740/A

لجنة البيان العربي

عائشة

أم المؤمنين

تأليف

زاهية مصطفى قدورة

بكالوريوس آداب (B.A) الجامعة الأميركية في بيروت

ماجستير — كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

(٩ شارع عدلي باشا ، شارع عدلي)

١٣٦٦ — ١٩٤٧

إلى أُمِّي

هذا الكتاب نفحة منكِ ،

قبس من عزمكِ وصبركِ ،

وصورة حية من إرشادكِ ،

فإليكِ أهدي أوّل جهودي .

زاهية

تصدير الكتاب

بقلم

الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم بك حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ والعميد السابق لكلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية كتاب « عائشة أم المؤمنين » الذى تقدمت به الآنسة زاهية مصطفى قدورة ، لنيل درجة الماجستير فى الآداب (فى التاريخ الإسلامى) ، من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . وإنه لمن بواعث اغتباطى أن أقوم بتصدير هذا الكتاب ، الذى قامت بتأليفه آنسة عربية ، عرفت بيننا بالجد والنشاط والغيرة على بعث تراث العروبة المجيد . وقد اختارت لبحثها موضوعاً محبباً إلى نفوسنا نحن معشر العرب والمسلمين ، هو حياة السيدة عائشة أم المؤمنين ، وزوج خاتم النبيين ، وبنت رفيقه أبى بكر ، الذى نزل فيه قوله تعالى : (ثانى اثنين إذ هما فى الغار) ، والذى قاسم الرسول مر العيش وحلوه ، وآلام الحياة وما فيها من انتصار وظفر .

نشأت عائشة فى بيت شرف ورياسة . وكان أبوها أبو بكر أعلم الناس بالعرب وأحسابها وأنسابها ، وتزوجت من رسول الله ، أطيب العرب عنصراً وأشرفهم محتداً . وكانت من أشد المسلمين اتصالاً به ، فنبغت فى القرآن والفقه والحديث والأخبار وغيرها . وكانت بعد وفاة الرسول مفتياً لا ينضب فى المسائل الدينية . يرجع إليها المسلمون فيما يعرض لهم من مشكلات . وظلت على ذلك إلى أن ماتت فى سنة ثمان وخمسين للهجرة وهى فى السادسة والستين من عمرها ، وتركت الأجيال

المقبلة أنبل الذكريات وأروع العظات . كل ذلك نراه مفصلاً فى رسالة الآنسة زاهية قدورة ، فى عبارة شائقة وأسلوب ممتع . وقد عكفت الآنسة زاهية ، على بحث هذا الموضوع ودراسته ، فامتاز بحسن الترتيب ، ودقة العبارة ، وسهولتها ووضوحها ، وبسط الحقائق التاريخية التى تناولتها بالتحليل والنقد والتعليق عليها بآراء متزنة ، واستطاعت بذلك أن تمدنا ببحث مبتكر ، يفيد العلم فائدة محققة ، ويلقى ضوءا ساطعاً يهتدى به الباحثون فى تاريخ المرأة العربية المجيد . والآنسة زاهية تستحق لهذا كله ، كل ثناء وكل إطراء وكل تهنئة ، على ما بذلت من جهد وتكبدت من عناء فى سبيل إخراج هذا البحث الطريف .

ومما يزيد من غبطتنا أن يكون هذا البحث ثمرة يانعة لآنسة لبنانية عربية جمعت بين الثقافتين العربيــة والغربية ، ولكنها — مع ذلك — تعتز بعربيتها وتقاليدها ، وتساهم فى بعث النهضة العربية ، التى نعمل نحن معشر العرب جاهدين على إحيائها ، حتى تعود إلى ما كانت عليه فى عصرها الذهبى المجيد .

ومما يزيد من غبطتنا أيضاً أن تكون الآنسة زاهية أول عربية لبنانية نالت هذه الدرجة فى التاريخ الإسلامى ، من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وهى لذلك تعد فى طليعة العربيات اللاتى ظفرن بنيل هذه الدرجة العلمية الرفيعة .

الدكتور حسن إبراهيم حسن

شـــكر وتقدير

لا يسعنى — وقد تم طبع هذه الرسالة ، التى بذلت فى تأليفها جهوداً شاقة — إلا أن أحمد الله على ما وصلت إليه من نجاح وتوفيق .

وأرى — وأنا أتوجه إلى الله بالحمد — أن أنتهز هذه الفرصة لأقدم إلى أستاذى الكبير الدكتور حسن إبراهيم حسن الاعتراف ببعض فضـــله ، على كريم مساعدته ، وحسن توجيهه . كما أتقدم بالشكر إلى « لجنـة البيان العربى » ، وعلى رأسها رجل العروبة والإسلام الأستاذ الجليل محمد على علوبة باشا ، إذ هيأت لى فرصة طبع الكتاب ونشره .

وأرجو الله أن يكون جهدى خالصاً للعلم والعروبة .

القاهرة فى : شعبان سنة ١٣٦٦
يوليه سنة ١٩٤٧

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دراسة التاريخ الإسلامى ، بالنسبة لنا معشر العرب والمسلمين، دراسة ماضٍ يتصل بحاضرنا أشد اتصال . يتركز فيه فخرنا، ومنه نستمد قوتنا وعزنا. ولئن كنا فى حاضرنا عبئاً على هذا الماضى المجيد فإنا لنرجو أن نتخذ منه نبراساً نستضىء به . يبعث فينا الهمم إذا تراخت، والعزائم إذا توانت، والنشاط إذا اعترانا الكسل، لننشىء لنا مستقبلا سعيداً يتناسب مع ماضينا الذى أضاء بنوره ظلمات العالم ، فساد الحق وهزم المنكر والباطل . وتداعى الظلم والبغى ، وأصبحت كلمة الله هى العليا .

أنه مصدر وحى وإلهام لنا ، نظل نقترب منه ونلتصق به ، حتى لنظن انه من صنع ايدينا ، فالمواقف الرائعة تستثيرنا والحوادث المحزنة تعتصر نفوسنا ، والحضارة الرفيعة تبعث زهونا ، والأدب الرفيع يحرك عواطفنا ، ذلك أن علاقتنا به وثيقة قوية لم يقطعها تاريخ غريب ، وصلتنا به شديدة طاغية لم تؤثر عليها عصور الجهل والانحطاط . وإذا كان هذا هو ارتباطنا به فما أكثر ما نستطيع استخراجه من العبر والعظات من طواياه ! ، وما أكثر الدروس التى يمكن أن نأخذها عنه ! ، فنصون أنفسنا مما وقعوا فيه من أغلاط ونسلك السبل التى سلكوها فعادت عليهم بالخير العميم والنفع الجزيل . ذلك أننا كلما أمعنا فى دراسة تاريخ أسلافنا تضاءلت بيننا وبينهم حواجز الزمن فأمكننا أن نغنم من حيث كانوا يغنمون ، ونتجنب مواطن الغرم والضعف التى زلقوا فيها، فساقتهم إلى هاوية التفكك والانحلال . فلندرس إذن التاريخ الإسلامى فى جميع نواحيه بتفصيل وتدقيق سواء فى ذلك أكان مضيئاً مشرقاً يشرف أصحابه ، أم كان مظلماً يستثير الأسى والألم .

لأن كليهما حدث فأنتج خيراً أو شراً . فلنبحث هذا وذاك بالروح العلمية فنقارن النتائج بالأسباب ، ليكون لنا من تاريخنا ذخيرة علمية من جهة ، وفائدة عملية من جهة أخرى . وهذا ماتستوجبه نهضتنا الحديثة التى نريدها عامة شاملة فى جميع الميادين .

تلك هى بعض العوامل التى تجعل دراسة التاريخ الإسلامى محببة إلينا، إن لم تكن واجبة ، فأقل مايجب على المتعلم أن يعرفه تاريخه الذى يحيطه بجوه و بروحه ، و يبعث فيه الحياة والأمل . وهو تاريخ متشعب النواحى ما أكثر مايحتاج من جهود وعناء !. لاستقصاء أطرافه و بحث مختلف ألوان الحياة ، ومختلف أنواع الشخصيات . فالحياة الاجتماعية الإسلامية لم يكتب فيها إلا قليل ، ونظام الدولة الإدارى والمالى والتجارى يحتاج إلى كثير من التنظيم والعناية. وكثير جداً من الشخصيات الإسلامية تفرقت عنها الأخبار فى بطون الكتب ، وتحتاج إلى مقارنة وتحقيق .

و إخالنا نفرط فى حق أنفسنا وتاريخنا أشد تفريط إذا لم نأخذ من المستشرقين زمام البحث فى تاريخنا ، إذ أنهم رغم الجهود التى بذلوها فى القرن العشرين لكشف نواحى التاريخ الإسلامى مازالوا بعيدين عن كثير من الحقائق، وسيبقون كذلك مادامو يعيشون فى غير محيطنا، و يتأدبون بغير أدبنا ، و ينظرون بمنظار قد لايظهر لهم حقائق هذا التاريخ بحكم نشأتهم و بيئتهم وثقافتهم الأولى ومجتمعهم : ثم إنهم وهم يعيشون فى محيط مادى يصعب عليهم فهم «الروح» التى جاء بها الإسلام ، فتلك لا تأتى بالقراءة والتتبع ولكنها تأتى مع ذلك من التقاليد الموروثة والبيئة والشعور بالصلة بيننا و بين بُناة هذا التاريخ . ومع أن المستشرقين قد تطورت أفكارهم وأحكامهم من كتابات — قبل القرن العشرين — مليئة بالتحيز والتهجم بحكم اختلاف الدين أو اختلاف المصلحة أو اختلاف الجنس أو بسبب قلة ما لديهم من المصادر وجهلهم اللغة العربية وسوء الترجمة القديمة إلى كتابات فى القرن العشرين ، فيها كثير من الحقائق وكثير من التحليل الدقيق و إن كان بعضها لا يخلو من الدس والتشويه حيناً عن سوء نية وحيناً عن سوء فهم للحقائق التاريخية .

اخترت السيدة عائشة أم المؤمنين موضوعاً لرسالتى لأنها احتلت منزلة فى التاريخ كبيرة ، فقد تفانى فريق من المسلمين فى خدمتها وتأييدها والدفاع عنها ، وتفانى فريق آخر فى حربها ، والقضاء على أنصارها وشغل الناس بأمرها حية ، و بعد أن انتقلت إلى جوار ربها . ومع ذلك لم تكتب عنها كتب مستقلة علمية تعنى بأمرها وتستقصى تاريخها . و إنما هى أخبار تفرقت بين كتب التاريخ وكتب الحديث . ومن ثم رأيت واجباً على — و يربطنى بها رباط الجنس — أن أجمع ما تفرق عنها ، يحدونى إلى ذلك شخصيتها الجبارة التى طغت على شخصيات كثير من كبار المسلمين فانقادوا لها يلبون طلبها ، و يطيعون أمرها ، وعظمتها التى لم تأت عن كونها أم المؤمنين — و يشاركها فى هذا اللقب زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم جميعاً — إنما جاءت عما جمعت من صفات جعلتها — فى واقع الأمر — مثالا للمرأة الكاملة الناضجة ، التى تقدر واجبها فتؤديه ، وحقها فلا تتهاون فيه .

وقد اعتمدت فى بحث تاريخها على المصادر الأولى ؛ أى الأصول التى لا يستغنى عنها باحث ، والتى إذا ضاعت ضاع معها التاريخ ، وهى أقدم الكتب التى بحثت فى التاريخ الإسلامى . ثم استعنت بالكتب الأخرى التى تعتبر بالنسبة للمصادر الأولى مصادر ثانوية لتوضيح الفكرة والمقارنات .

وقد قسمت الرسالة ، إلى خمسة أبواب ، يتكون الباب الأول منها من ثلاثة فصول : يبحث الأول : فى طبيعة الجزيرة العربية و يصور البيئة العربية . ويتناول الثانى : مركز المرأة العربية قبل الإسلام ، ونظرة المجتمع إليها ، وسهمها فى الحياة العامة . و يتعرض الثالث إلى : مكانتها بعد الإسلام ، وتحسن مركزها ، وتمتعها بحقوق كثيرة .

و يشتمل الباب الثانى على : فصل مفرد ببحث حياة السيدة عائشة : ولادتها وزواجها ، و بيئتها ، ومحيطها ، وأثر ذلك فى تكوين خلقها ومزاجها .

أما الباب الثالث فيتكون من ثلاثة فصول : تناول الأول الـ ت فى : اسم السيدة عائشة وكنيتها ولقبها ، وحب الرسول وحسن معاملته لها . وتناول الثانى :

« حديث الإفك » ويتناول الثالث : البحث فى ضرائر عائشة وعلاقتها بهن .

والباب الرابع يتكون أيضاً من ثلاثة فصول : تكلمنا فى الأول : عن أثر السيدة عائشة فى الحياة العلمية ، وفى الثانى عن أثرها فى الحياة الاجتماعية ، وفى الثالث : عن تدخلها فى الحياة السياسية وعلاقتها بالخلفاء .

وختمنا رسالتنا بالباب الخامس والأخير فتكوّن من فصلين : تحدثنا فى الأول : عن صفات السيدة عائشة وأنوثتها ، وعنايتها بمظاهرها من زينة وملبس .. الخ . وعن تدينها وورعها وتقشفها . وفى الثانى : عن وفاتها .

ولا شك أن فى الرسالة بعض المآخذ ، منها أنها لم تتعرض للناحية الفقهية من حياة السيدة عائشة ، ولا للناحية الدينية فى حياتها ، لأن البحث يتشعب فى ذلك كثيراً ويخرج الرسالة من بحث تاريخى إلى بحث فقهى ، قد تكون كتب الحديث وكتب الفقه أولى به .

كما أن الرسالة تضمنت بعض التكرار لم أر منه بداً ، فإن حادثة واحدة قد تمس موضوعين مختلفين فتفصل فى أحدهما حيث يشتد اتصاله بها ، وتختصر فى موضوع آخر ، تكون فيه عامل توضيح وتفسير ، ومع ذلك فقد يكون فيه بعض الفائدة لتكون الرسالة واضحة فى أقسامها — الأبواب والفصول — منسجمة فى مجموعها . على أنه مع ذلك قليل فى مجموعه .

وقد حاولت أن ألم بحياة هذه السيدة الكريمة ، وأفيها حقها من الوصف ، وأجعل من حقائقها مثلا عاليا . نقتدى بها المرأة العربية والمسلمة ، وتهتدى بسيرتها وتختط لها نهجاً من حياة بنت أبى بكر وزوج رسول الله .

وأرجو أن أكون قد وفقت والله الموفق للصواب ؟

المؤلفة

زاهية مصطفى قدورة

القاهرة فى : شعبان سنة ١٣٦٦
يوليه سنة ١٩٤٧

الباب الأول

الفصل الأول

الجزيرة العربية

الجزيرة العربية عبارة عن شبه جزيرة يحدها من الغرب : البحر الأحمر ، من الجنوب : البحر العربى ، ومن الشرق خليج عمان وخليج البصرة ، ومن الشمال : العراق و بلاد الشام .

وتقسم الجزيرة من حيث الطبيعة إلى أقسام : ففيها الصحارى الشاسعة ، والجبال الفاصلة والأراضى الخصبة . وفيها المناطق الآهلة بالسكان كما أن فيها مساحات شاسعه لا يقطنها أحد .

أما صحاريها فأهمها النفود فى الشمال . والدهناء فى الشرق ، ويليها إلى الجنوب الربع الخالى أو الأحقاف .

وأما مناطقها الجبلية فتقع فى غرب الجزيرة وهى منطقة الحجاز واليمن وتمتد نحو الشرق حيث توجد مجموعات من الهضاب فى الجنوب الشرقى — عمان .

وأهم أقسام الجزيرة الجغرافية :

١— تهامة : وهى سهل ساحلى فى غربى الجزيرة شديد الحر .

٢— الحجاز : وهو إقليم جبلى رملى ، وسمى حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد وتكثر فيه العناصر البركانية .

٣ــ نجد : وهو إقليم جبلى مرتفع يقع بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالا ،
ت نجداً لارتفاع أرضها .

٤ــ اليمن : وهو القسم الجنوبى الغربى، صالح للزراعة وتقع حضرموت إلى شرقه.
وقد سماه اليونان : بلاد العرب السعيدة .

٥ــ العروض : وتشمل اليمامة والبحرين. وسمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق . وليس فى الجزيرة العربية أنهار ، وإنما فيها أودية متفرقة تملؤها السيول ، وجوها حار وفيها كثير من الواحات [1] .

الجزيرة العربية هذه هى موطن العرب الأول . ولكن الهجرات المتتالية نحو الشمال جعلت بلاد العراق وسورية بلاداً عربية ومن ثم أصبح الهلال الخصيب جزءاً من بلاد العرب يتحدان بوحدة الجنس واللغة والتاريخ .

وقد عمرت بلاد العرب بمدنيات زاهرة سواء فى الهلال الخصيب كالأشوريين والبابليين والفينيقيين ، ووجدت حضارات كبيرة فى الجزيرة نفسها كما يدلنا ما عرف عن تاريخ اليمن. وإنه وإن كان ماوصلنا عن هذه المدنية قليلاً لضياع كثير من آثارها نتيجة العوامل الطبيعية والجغرافية ، ولأن المنقبين لم يستطيعوا بعد التوغل فى تلك البلاد واكتشاف ما خلفه القدماء من آثار توغلا كاملا إلا أن الاكتشافات الحديثة القليلة وما فى التوراة من أخبار جلت بعض الغموض من تاريخ اليمن القديم .

وسكان الجزيرة عرب ، والعرب شعب سامى ، يرتبط مع غيره من الشعوب السامية ، بروابط اللغة والأصل والموطن القديم .

ومع أن العرب جميعاً من جنس واحد فهم ينقسمون أيضاً إلى عرب جنوب، وهم القحطانيون الذين تشعبت قبائلهم وبطونهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وموطنهم الأصلى اليمن . والعدنانيون الذين يرجع نسبهم إلى عدنان ويرجع نسبه

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن — تاريخ الاسلام السياسى ١ ص ٢١ — ٢٦

إلى إسماعيل بن إبراهيم ، وموطنهم الأصلى مكة وما جاورها من أرض الحجاز [١]

وهذا التقسيم الذى كان بارزاً فى حياة العرب وتاريخهم على مدى الأجيال يرجع إلى اختلاف فى الشعور أكثر منه فى العنصر ، و إلى أنه اختلاف فى اللهجات والحضارة وطرق العيش، وذلك كله أدّى إلى اختلاف فى المصالح السياسية التى وسّعتها المنافسات وجعلت من هذا التباين الجزئى تباينا فى دعوى العنصر والجنس والموطن .

وسكان الجزيرة الأول الذين ورد ذكرهم فى التوراة والقرآن الكريم والمصادر الأدبية والأساطير هم العرب البائدة : عاد، ومركزهم حضرموت ، ونبيهم هود . وثمود، ومركزهم الشمال — مدائن صالح— ونبيهم صالح. والعمالقة الذين كانوا يقطنون المنطقة الممتدة بين يبرسبع وسيناء ، ثم طسم وجديس فى اليمامة . على أن تاريخ الحضارة يبتدىء فعلا بسبأ [٢] .

وأول ماعرفنا عن تاريخ اليمن مملكة معين بين سنتى ١٢٠٠ ـ ٧٠٠ ق . م . ومملكة سبأ يرجع تاريخها إلى ٧١٥ ق . م [٣] . وتنسب إلى سبأ بن قحطان الذى يرجع الناسبون أصله إما إلى ابراهيم أو إلى نوح وأولاده حمير وكهلان . وأكثر عرب الجنوب منحدر من هذين الفرعين .

ومملكة سبأ وأخبار ملكتها بلقيس معروفة، و يعزو المؤرخون العرب سبب سقوطها إلى تهدم سد مأرب الفجائى . و يرى المؤرخون الغربيون أن الانحطاط والتأخر فى النواحى الفنية والاقتصادية سبق تهدم السد ، فلم يصلحوه ، فجرفته المياه وقضى ذلك على مملكة سبأ [٤] . وكان تهدم السد فى أواخر القرن الثالث الميلادى قد أدى إلى الهجرة العربية الأولى من جنوب الجزيرة إلى الهلال الخصيب ؛ فأقام بنو غسان فى الشام ، واللخميون فى العراق .

(١) الحصرى — تاريخ الامم الاسلامية حـ ١ ص ١٦ — ٢٠

(٢) Nicholson : A Literary History of the Arabs pp. 2. 4.

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 4. Hitti, History of the Arabs, p. 49.

(٤) Ency. of Islam art. Marib

كما وجدت فى اليمن كذلك مملكة حمير التى يلقب ملوكها التبابعة . ويرجع تاريخها إلى سنة ١١٥ق . م - ٣٠٠ م [١] .

وإذا انتقلنا إلى الشمال نجد دويلات عربية، مثل الأنباط، وهم شعب عربى سكن فى شمال غربى الجزيرة ، واتخذ عاصمته سلعاً ، وذلك فى القرون الثلاثة الأولى ق . م . وقد قضى عليها الرومان سنة ١٠٦ م [٢] .

وقامت الدولة اللحيانية فى الشمال أيضاً — مدائن صالح — وعاصرت دولة الأنباط.

ولعل دولة تدمر التى يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر ق . م . أكثر هذه الدول آثاراً ، وقد قامت فى صحراء الشام ولها مع الرومان حوادث كثيرة ، واشتهر من ملوكها الزباء التى أسرها الرومان ، وظلت تدمر تحت حكمهم إلى أن فتحها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد .

وقامت قبل الإسلام بقليل فى شمال الجزيرة دويلات منها: دولة اللخميين بالحيرة وكانت تخضع لحكومة الفرس، ودولة الغساسنة فى الشام وكانت تخضع للدولة البيزنطية . ولعبت هاتان الدولتان دوراً كبيراً فى تاريخ العلاقات بين دولتى الفرس والروم والبلاد العربية [٣]

فإذا انتقلنا من هذه الدول إلى المناطق الأخرى من البلاد العربية وجدناها تتكون من قبائل متنقلة تعيش على الرعى والغزو ، ولذلك كانت العلاقة بين العرب علاقة تصادم مستمر . أما الرابطة فكانت رابطة القبيلة وليس للدولة ولا للموطن قيمة فى نظر البدو الجاهليين .

والحجاز أهم أقسام الجزيرة فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامى ، وهو قفر مجدب إلا واحات قليلة متفرقة، وهو المركز المقدس عند العرب قبل الإسلام و بعده، يحجون إليه ،

(١) الدكتور حسن ابراهم حسن — تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٤١ — ٤٣
(٢) راجع كتاب الدكتور حسن ابراهيم حسن — تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٢٠
O'Leary : Arabia Before Muhammad, pp. 79-83.
(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 49-86.

وتعقد فيه الأسواق ولسادته المركز الرفيع فى المجتمع العربى. وأهم أقسامه: مكة[1] مركز قريش التى تنتمى إلى عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم، وأهم القبائل العربية مكانة لما كانت تتولى من وظائف دينية فى الإشراف على مناسك الحج إلى بيت إسماعيل وإبراهيم. وقد قام فيها إلى جانب قريش قبائل عربية أخرى، وجاليات أجنبية من فرس وروم وأحابيش.

ويلى مكة فى الأهمية يثرب التى أطلق عليها فيما بعد (المدينة) تقع شمالى مكة اشتهرت بمياهها وخصب أرضها، وقد سكنها العمالقة واليهود والأوس والخزرج، ويليها الطائف ذات المناخ الجميل، وكانت مصيف الحجاز، وقد سكنتها هوازن[2].

(١) Lammens · La Mecque a la Veille de l'Hégire. pp. 116- 18.
Lammens : L'Arabie Occidentale Avant l'Hegire, p. 237-238.

(٢) Lammens : Le Berceau de l'Islam, pp. 9-76

الحيـاة العربيــة

الحياة السياسية :

لبست الحياة العربية الثوب الذى تضفيه البداوة، ومن أجل ذلك لم يكن للعرب حياة سياسية بالمعنى المفهوم ، وإنما كان نظام القبيلة ورياستها هو الذى يفرق بين المجتمعات . وكان يتزعم القبيلة ويسودها شيخها ويساعده فى تسيير أمورها رؤساء الأفخاذ والبطون خاصة عندما يحدث نزاع بين أفراد القبيلة ، فكانوا يجتمعون فى شبه مجلس لاتخاذ قرارات نهائية .

وكان أفراد القبيلة يرتبطون بشعور يفوق أى شعور آخر — العصبية القبلية — وهو استماتة الفرد فى الدفاع عن القبيلة ، سواء أكانت ظالمة أو مظلومة . وفى حالات الاعتداءات الشخصية كان على المعتدى عليه أن يثأر لنفسه ، وكانت قبيلته تشد أزره . ومن أمثالهم : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً (١) . وكثيراً ما قامت الحروب الطويلة المهلكة لأسباب تافهة ظن أنها تمس كرامة القبيلة ، منها حرب البسوس التى وقعت بين قبيلتى بكر ، وتغلب . وحرب داحس والغبراء ، وقد قامت بين عبس وذبيان (٢) .

ولقد حارب الإسلام هذه العصبية القبلية ، وحاول أن يتغلب عليها ، ولكنه لم يستطع أن يطفئها تماماً ، فكانت تختفى ثم تعود ، فتظهر وكانت بعد الإسلام من أسباب ضعف الدولة العربية فى مراحلها الأخيرة .

وكان للقبيلة أنظمة خاصة فى الحكم ورثها الخلف عن السلف كما كان لها أساليب

(١) الميدانى — مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٨

فى القضاء . وهى خلاصة اختبارات قديمة لا يزال بعضها معمولا به عند القبائل فى البلاد العربية المختلفة .

هذا عند البدو ، أما عند الحضر ، فكان الحكم قد اكتسب نوعاً من الاستقرار وأصبح وسطاً بين البداوة والحضارة : البداوة المتأصلة فيهم ، والحضارة المكتسبة من اليونان والفرس عن طريق حمير وغسان وعن الاحتكاك الناتج عن طريق مكة الاقتصادية والتجارية .

وكثيراً ما كانت القبائل تحتكم إلى مجالس خاصة فى مكة يشرف عليها القرشيون؛ منها مجلس الملأ الذى يضم رؤساء الأسر المعروفة وكبار التجار فى دار الندوة بمكة ليقروا أمور تجارتهم وحروبهم وحياتهم [١] . ويقول الأستاذ نيكلسون [٢] : إن الدستور القَبَلى عند العرب كان ديمقراطياً مسيراً بزعمائه المستمدة سلطتهم من الدم الشريف والأخلاق النبيلة والمال والحكمة والاختبار ، ومع ذلك فلم يكن بينهم وبين أفراد قبائلهم إلا المساواة [٣] .

أما الإسلام فقد أتى بشريعة سمحة وأحاط بنواحى الحياة كلها ووضع لها قيوداً وحدوداً ، وجزاء وعقاباً . ثم إن الرسول أراد أن يوحد بين المسلمين على مختلف أحزابهم وقبائلهم ، وأن يقضى على العصبية القبلية مصدر التنافس والنزاع بين القبائل العربية؛ وكان قصده عليه الصلاة والسلام أن يجعل الرابطة بين العرب الدين الإسلامى ، فيتخذوا الله ورسوله المرجع الأول والأخير لا العصبية القبلية التى يكون رمزها القبيلة ومرجعها زعماءها وأشرافها . إذ قال : « تآخوا فى الله أخوين أخوين . [٤] » و « المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . [٥] » وقال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة [٦]) .

(١) زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١١١
(٢) A Literary History of the Arabs, p. 83
(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 28.
(٤) ابن هشام ج ٢ ص ١٥٠
(٥) المسند ج ٢ ص ٣١١
(٦) سورة الحجرات آية ١٠

فبذلك وجّه الرسول ضربة قوية إلى هذا النظام المتركز فى حياة العرب [١] .

ويقول الأستاذ ميور [٢] إن نجاح النظام السياسى الذى وضعه محمد كان مستمداً من العناصر العربية نفسها ، كما بنى على عقيدة وحماس دينى .

من ذلك نرى أنه لم تكن هنالك حياة سياسية بالمعنى المفهوم ، بل إنها كانت أقرب إلى الناحية الاجتماعية . ولم يكن هنالك حد فاصل بينهما .

الحياة الاجتماعية :

كانت حياة العرب الاجتماعية بسيطة جداً تعكس صوراً رائعة من حياة العائلة والقبيلة وتتغاير هذه الصور باختلاف الأمكنة والأزمنة ، فتتنوع مظاهر حياتهم من مأكل ومشرب ولهو وغناء ومجالس أنس .

ويسود هذه الحياة فى العصور القديمة الأولى نظام الأم . فكانت السيادة والسلطة للأم ، والنسب يرجع عن طريقها لا عن طريق الأب [٣] كما كانت الحال فى كثير من المجتمعات فى أيامها الأولى ولكن فى القسم الأخير من العصر الجاهلى كان النظام الأبوى هو السائد .

أما عن مركز الأم والمرأة فنرجىء الكلام عنه إلى الفصل الثانى .

هذا عن الأسرة أما عن القبيلة فيمكننا القول إن أهم ظاهرة للحياة الاجتماعية عند البدو فى الجزيرة قبل الإسلام هى العصبية القبلية [٤] التى ضعفت وقويت بعد الإسلام تبعاً للتيارات السياسية .

(١) راجع للتفصيل Lammens: L'Arabie Occidentale Avant l'Hégire, 237 283.

(٢) The Life of Muhammad, Introduction, p. 94.

(٣) ونكس — الأمومه عند العرب ص ٣٥

(٤) وقد نقلت دواوين الشعراء كثيراً عنها . ومن قصيدة لدعبل بن على الخزاعى :

أحببت قومى ولم أعدل بحبهم ... قالوا تعصبت جهلا قول ذى بهت

دعنى أصل رحمى إن كنت قاطعها ... لا بد للرحم الدنيا من الصلة

فاحفظ عشيرتك الأدنين إن لهم ... حقاً يفرق بين الزوج والمرت

المبرد — الكامل ص ٢٢٩

وكان العرب ينقسمون من حيث طريقة العيش إلى بدو وحضر ، فالبدو هم العرب الذين يظعنون فى سبيل الكلأ ، ويعيشون على الرعى والغزو ، ولم يكن لهم مسكن ثابت ، إذ كانت مساكنهم لا تعدو الخيام على أنواعها بينما الحضر — سكان المدن — الذين يشتغلون بالتجارة ، ويعرفون البيوت والمساكن الثابتة التى كانوا يتفننون فى عمارتها ، وذلك بالنسبة إلى غناهم من جهة ، واتصالهم بالمدنيات الأجنبية من جهة أخرى . وكانت لهم مدن فى اليمن منها مأرب وصنعاء وغيرها [1] .

وكان الشرب والميسر متفشيين عند العرب ، ولقد غالى فى ذلك سكان مكة . ولما جاء الإسلام دعا إلى تجنب هذه المفاسد . ومن عادات اللهو عندهم أيضاً الصيد ومجالس الغناء ، وأشعار العرب وأخبارهم مليئة بهذه الصور الرائعة .

كان الرق متفشياً فى الجاهلية فلما جاء الإسلام حرم السبى ، وحدد الرق [2] وإذا كان الإسلام لم يمنع الرق منعاً باتاً فقد حرمه بين المسلمين ، وشجع على العتق وجعله مظهر تقوى وفداء عن يمين ، ووفاء لنذر وكفارة لذنب . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار » [3] . ثم إنه أوصى بالأرقاء خيراً إذ قال : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم [4]) . كما أن الرسول أوصى بهم قائلا : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى . [5] » وقوله أيضاً : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه قد كفاه علاجه ودخانه فليجلسه معه ، فإن لم يجلسه فليناوله

(١) الخضرى — تاريخ الأمم الاسلامية ج ١ ص ٢٣

(٢) وللرق فى الاسلام سببان جوهريان : الكفر والأسر . وقد انتشر الرق كثيراً فى الاسلام نظراً لكثرة الحروب فى بدء عهد الدولة وما نتج عن تلك الحروب من أسرى ولهذا نرى أن معظم الأرقاء قد وقعوا فى الرق نتيجة الحروب وقد جاء فى القرآن الكريم : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) سورة محمد آية ٤

(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧

(٤) سورة النور آية ٣٣

(٥) صحيح مسلم ج ٧ ص ٤٦

أكلةً أو أكلتين[1] » . « فأكرموهُم كرامةَ أولادِكم وأطعِمُوهُمْ مما تأكلون[2] » .

ولقد اشتهرت العرب بصفات خلقية رفيعة لم تزل فى أحفادهم محفوظة فى صدور الرجال والنساء ويطلق على أهمها كلمة المروءة وهى : الشجاعة والكرم والوفاء . وكتب الأدب مليئة بالإشادة بها ، ولم تكن الفروسية التى تغنى بها شعراء أوربا فى القرون الوسطى ، وسجلتها كتبهم إلا مقتبسة عن تلك الفروسية التى كانت سائدة عند عرب الجاهلية والإسلام ، ويصادق على ذلك الأستاذ نيكلسون[3] فى كلامه عن مركز المرأة فى الجاهلية ، وأنها كانت وحى الشاعر وحافز المحارب ، وأن فروسية القرون الوسطى ترجع حتماً إلى عرب الجاهلية .

الحياة الاقتصادية :

كان العرب يشتغلون بالتجارة ويعتبر القرشيون تجار العرب . ويقول الأب لامنس نقلاً عن (Strabo) المؤرخ اليونانى القديم: إن العرب هم قبل كل شىء عملاء وتجار وهذا الحكم ينطبق فى الدرجة الأولى على المكيين — وخاصة قريش[4] — الذين اختاروا مكة لموقعها التجارى . فمن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشىء .

وتبدو هذه النزعة التجارية فى القرآن الكريم[5] نفسه ، إذ نجد نصوصاً مليئة

(١) السيوطى جـ ١ ص ١٣

(٢) المسند جـ ١ ص ١٢

(٣) A Literary History of the Arabs. p.p. 87-88

(٤) جاء فى ابن هشام جـ ١ ص ١٩٩ . وكانت قريش قوماً تجاراً .

(٥) نجد فى القرآن الكريم سورة مفصلة عن الحياة الاقتصادية عند العرب ، فالقرآن الكريم يتكلم عن رحلتى الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، سورة قريش آيت ١ و٢ (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) ثم إنهم كانوا يعرفون البحر وتوجد عبارات فى القرآن الكريم تدل أنهم كانوا يعرفون البحر ويهتدون بالفلك فى طرقهم البرية والبحرية سورة النحل آية ١٤ . سورة البقرة ١٦٤ ، سورة الإسراء الآيات ٦٦ — ٧٠ ، سورة الحج آية ٦٥ .
كما توجد ألفاظ تنم عن الحياة الاقتصادية كالميزان والقنطار والحساب والوزن والربح والرهن وغير ذلك من ألفاظ حتى إن كثيراً من الاعتقادات الدينية كانت تصاغ فى تعابير اقتصادية لكى تكون قريبة إلى فهم هؤلاء القوم التجار وليكون أثرها كبيراً عليهم ومنها سورة آل عمران الآيات ٧٥ — ٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٩ وسورة المائدة الآيات ١ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١١٩ وسورة الزلزال آيتا ٧ ، ٨

بالتحـدث عن الناحية العملية ، وشئون الحياة المتصلة بالمعاملات والبيوع وتفصل القول فى طريقة كتابة العقود والعهود و إحضار الشهود ، كما نراها تعير اهتماماً للوصايا و إملائهـا .

وقد اشتغل الرسول نفسه قبل الرسالة بالتجارة حيث كان شريكا لخديجة ، وكان شريكه فى ذلك خادمه زيد بن ثابت ، ثم يبدو هـذا الإقبال على التجارة فى تاريخ الإسلام الأول أو فى صدره إذ نجد كثيراً من صحابة رسول الله يعنون بالناحية التجارية.

وقد غالى الأب لامنس فى وصف هذه النزعة التجارية فوصل به القول إلى أن موقعتى بدر الأولى والثانية كانتا أقرب إلى الحملات التجارية منها إلى الحربية ، وذلك لحمل المسلمين معهم السلع التجارية والبضائع(١) .

وليست هذه هى المرة الأولى التى يغالى فيها لامنس فى وصفه وتحليله ونقده للتاريخ الإسلامى . وهذا الغلوّ المصحوب بالتحيز المغلوط ليس بالدليل الكافى .

ألم يدر أنه من العبث فصل الحيـاة الاقتصادية عن الحياة السياسية . ذلك إذا صح ادعاؤه ، كما أن اصطحاب التجارة والأمتعة إلى الحرب حينذاك كان ضرورة لاتقاء العوز فى حال دوام القتال حينما يكونون بعيدين عن حاجيات الحياة ، ثم لاكتساب الفرص فى البيع والشراء بعد توطيد الأمر ، إذ يكون من الوعى الصحيح والنشـاط الكبير أن يفكر المرء فى الأمرين معاً ، ما دامت المسافة بعيدة والنقل شاقاً . فهذا إذن ليس معناه أن الغرض الأول فى تلك الغزوات التجارة فحسب ، وليس فى هذا التعليل ما يوجب تغيير وصف الغزوتين من حروب للقضاء على المشركين إلى حرب من أجل المـال لأن الحروب — قديماً وحديثاً — مهما كانت غايتها من أهم عوامل نشوبها الطمع المـادى ، ويعقبها أخذ الغالب ما مع المغلوب من مال وسلاح .

ولقد ساعد موقع مكة الجغرافى على التوسع فى هذه التجارة فكان العرب عامة

(١) Lammens : La Mecque a La Veille de l'Hegire, pp. 254-259.

(٢) Ibid. p. 25.

وأهل مكة خاصة منذ القرن السادس الميلادى همزة وصل تجارية عالمية وظهرت ميولهم كوسطاء تجاريين منذ القدم .

ومما ساعد على ترويج هذه التجارة تربة مكة نفسها ، فهى صخرية ، لا زرع فيها ولا ماء ، فلذلك استحال اشتغالهم بالزراعة ، وانصرف سكانها إلى ممارسة التجارة . وهكذا نرى أثر الموقع الجغرافى فى تحويل اتجاهات أهالى البلاد وميولهم ، وطموح دول أخرى فى استغلال بلادهم ، منذ القدم إلى وقتنا الحاضر .

ويقول لامنس فى هذا الصدد إن دولتى الفرس والروم ، وكذلك الدولة الحبشية وأكاسرة الفرس أدركوا ما للجزيرة العربية من أهمية فى الحياة التجارية ، فكانوا يحاولون التردد إلى تلك البلاد لما علموا من توقف ظفرهم السياسى عليها فحاولوا أن يسيطروا على الجزيرة العربية اقتصاديا أولاً ، وسعى كل منهم إلى أن يستأثر لنفسه بالعلاقات التجارية معها (١) .

وأما أنواع هذه التجارة فهى : الحرير من الصين . والتوابل والعطور والأدوية والحجارة الكريمة من الهند . ومن إفريقية التبر والعبيد والصاج . ومن مصر و بلاد الشام المنسوجات القطنية والحريرية والأسلحة والحبوب والزيوت والخمور .

هذه هى بعض الواردات . أما البضائع التى كانت تصدرها الجزيرة العربية فهى : الخيل والتمر والزبيب ، وقد اشتهرت بعطورها ومعادنها وخاصة الذهب .

المتداوله فكانت : البيزنطية والفارسية واليمنية ، والذهب والفضة غير المضروبين . أما الأعراب فكانوا يتعاملون بالحبوب والتمر والإبل وغير ذلك .

والطرق التى كانت تمر بها تجارة العرب هى الطرق البرية حول الجزيرة من شواطىء عمان إلى شبوة ، فمأرب ، فمكة ، فالبتراء ، فمصر أو الشام ثم الطريق البحرية فى المحيط الهندى ، ثم فى البحر الأحمر كما كانت فى الشمال طرق أخرى للتجارة(٢)

(١) Lammens : La Mecque à la Veille de l'Hegire, p. 125.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٨

وقد استفاد العرب وقريش خاصة من التجارة إفادة معنوية ومادية ، إذ كان هنالك ما يماثل الضرائب الجمركية الموجودة الآن ، والحقوق والامتيازات الاقتصادية إذ كانت تفرض على القوافل المارة فى المدن والمراكز العربية مبلغاً من المال لقاء السماح لهذه القوافل بالدخول بها والمرور بأرضها ، كما كانت نفرض على البضائع نفسها الضرائب والمكوس . وكانت القوافل تحتاج إلى من يقودها ويحرسها من غزو البدو والأعراب، فكان الأولاد والخفراء من سكان المدن يقومون بذلك، لقاء أجرتهم وتأمين هـذه التجارة كان عاملا فى تحسين العلاقات أو فى سوئها بين العرب [1] .

وهذا الازدهار التجارى كان يجلب إلى هذه المدن جماعات كثيرة من خارجها يشتغلون ويتجولون فيها ، وبذلك يفسحون مجال العمل لكثير من سكانها كما كان سكان هذه المدن يشتركون فعلا بهذه التجارة يشترون ويبيعون فيأخذون نصيبهم من أرباحها .

وقد أصاب بعض المكيين ثروات طائلة من هذه التجارة كأبى سفيان والوليد ابن المغيرة وغيرهم، ومن النساء أيضاً من أسهم فى ذلك وسيأتى الكلام عنهن فيما بعد .

أما الفوائد المعنوية فكثيرة أيضاً وهى : ان اشتغال العرب بالتجارة صرفهم عن المنازعات والحروب ، فكثر عددهم ، بيد أن هـذا الاختلاط التجارى أدى إلى تمازج فى الأفكار والآراء والعقائد ، وإلى علاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك .

على أن هـذه التجارة سببت بعض الشرور الاقتصادية والاجتماعية . إذ نجد القرآن الكريم يمنع الميسر والرهان والربا والدين الذى كان يجرى حول هذه التجارة. وكان للرخاء بعض المفاسد الاجتماعية من لهو وكسل إذ يقول [2] (O'Leary) ليس أغرب من منظر المدنية العربية التى أفسدها المال والتجارة ، حتى إنها استأجرت الأحابيش للدفاع عنها فى الحروب ، إذ كانوا يستخدمونهم كجند مستأجر .

(١) كان مركز قريش الاجتماعى والسياسى والاقتصادى يتوقف على هـذه التجارة فأى عبث فيها كان يؤدى إلى علاقات عدائيه بين القبائل . ولعل ذلك مما وسع الشقه بين البدو والحضر .

(٢) Arabia Before Muhammad p. 184.

وهكذا نرى أن الجزيرة العربية لم تكن مغلقة بل كان لها علاقات تجارية واسعة أسفرت عن تمازج اجتماعى وثقافى ودينى، وعلاقات سياسية كان لها الأثر الكبير فى حياة العرب الذين امتزجوا وتفهموا الظروف التى وجدت بين جيرانهم المتمدنين فعادت عليهم بكثير من الفوائد[1].

الحياة الأدبية

اللغة مرآة عقول الأمم، ومقياس تطورها، فلذلك يمكننا أن نستدل على ماوصلت إليه الأمم من ازدهار أو انحطاط فى حياتها العامة من إنتاج أدبائها، وأساليبهم، ومعانيهم

فالأدب والشعر ملكة برزت فى حياة العرب مع السجية. وكما كانت مكة مركز الحياة التجارية كذلك كانت قبلة الأدباء والشعراء، يؤمونها من كل صوب وحدب فى المواسم والأسواق، وفى أيام الحج ينشدون الأشعار الحماسية ويتنافسون فيما بينهم ويعتدون بالحسب والنسب والشجاعة والشرف والكرم والوفاء.

ولقد تأثر الأدب العربى بالفرس عن طريق الاتصال بالمناذرة، أو بالروم عن طريق الغساسنة، وبهما معاً عن طريق التجارة.

فآداب اللغة — وإن اختلفت فى نوعها أو وفرتها — مؤلفة فى جميع العصور وعند جميع الأمم من نثر وشعر، كما أنها وإن تشابهت فى مواضيعها ومصادرها — فى الشعر كالغزل والفخر والحماسة والمدح والرثاء — وفى النثر كالتاريخ والفلسفة والعلوم على أنواعها — تتباين فى توجيه أدبها حيث تمتاز كل أمة بنوع من الأدب عن سواها.

وأكثر ما حفظ من الأدب الجاهلى ذلك الشعر الذى نراه فى المعلقات والقصائد، أما ما بقى من النثر الجاهلى فقليل، منه الخطب والأمثال.

ولعل السبب فى ذلك راجع إلى عاملين:

أولهما أن الأمة تبدأ إنتاجها الأدبى أولا بالشعر — وهو لغة القلوب ـ لا بالنثر ـ لغة العقول — وذلك لأن التذوق الفنى فى الشعر أسهل من تذوقه فى النثر، والنثر

(1) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 179-180

أيضاً يحتاج إلى عقلية اجتازت مراحل فى طريق النمو والارتقاء ، وتأييداً لذلك نلاحظ أن إنتاج اليونان الأدبى كان فى بادىء الأمر الملاحم الشعرية ، ومن ناحية أخرى نعلم أن الأدب الجاهلى لم يدون فى زمن نظمه و إنشاده بل بعد ذلك بزمن طويل وكان يروى شفاهاً ، و بما أن الشعر أسهل للحفظ والرواية من النثر فلذلك أيضاً يمكن القول إن أكثر ما تبقى من الأدب الجاهلى شعرى .

والعامل الآخر هو أن الجاهلية تمتد بين ١٥٠٠ ق . م إلى ٦٢٢ م وأن ما نسميه بالأدب الجاهلى لا يمتد إلا بين ٥٠٠ — ٦٢٢ م .(١) و يشتمل على عصور قليلة من الجاهلية وهو القسم الأخير منها .

وأهم رواة الشعر الجاهلى حماد الرواية ، وخلف الأحمر ، وأشهر المجموعات الشعرية المعلقات التى جمعها حماد ، والمفضليات وقد جمعها المفضل الضبى، وديوان الحماسة لأبى تمام وحماسة البحترى ، وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، وغير ذلك من قصائد وأبيات حفظت فى كثير من كتب الأدب كالكامل والأغانى وغيرها .

فالإسلام أضعف الشعر والأدب العاطفى إلى درجة ما(٢) ولكن هذا ليس معناه أن شعراء الإسلام كانوا أقل عدداً ، أو أضعف أسلوباً من شعراء الجاهلية .

ومن شعراء الاسلام : حسان بن ثابت ، عبد الله بن رواحة ، كعب بن مالك ، الحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات ، والأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم كثير .

غير أن الإنتاج النثرى كثر حرصاً على التراث الإسلامى كالسيرة والأحاديث والفقه و إلى غير ذلك من علوم إسلامية وكتب أدبية وتاريخية ، وما يقتضيه تنظيم الدولة من وسائل و إيضاحات وتدوين وتأليف أحزاب .

(١) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 71.

(٢) كانت جهود المسلمين مصرفة فى بادىء الأمر إلى تأسيس كيان جديد وإلى الفتوحات وتنظيمها ونشر الإسلام فيها ، فمن الطبيعى أن يهمل الشعراء الشعر العاطفى نوعاً ما ويصرفوا إلى الحماس الدينى فيصعون فيه الشعر و لنثر على السواء .

ولم يخل حقل الأدب من المرأة ، وسنتحدث عن نصيبها فى ذلك فى فصل خاص إن شاء الله .

الحالة الدينية :

كان فى الجزيرة العربية أربعة أديان ، أهمها من حيث الانتشار : عبادة الأوثان التى كان لها المكان الأسمى ، يتقرب إليها العرب بالقرابين ويحجون إليها ويقدمون لها الذبائح . فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان عمرو بن ربيعة هو لحىّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى وهو أبو خزاعة(١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه بالرغم من وفرة الآلهة عند العرب لم تحك حولها الأساطير الزاخرة المعقدة ، كالتى عند اليونان مثلا .

وكانت هذه الآلهة تعبر عما كان يجول فى خاطرهم من قوى طبيعية ومعنوية وأجرام سماوية : كالشمس ، الثريا ، العزة ، الرضا . وهناك آلهة حملت أسماء حيوانات كنسر ، وغير ذلك من تشابيه واستعارات .

وكان يعبر عن هذه الآلهة العديدة رموز أهمها الأصنام التى كانت تحل فيها هذه الآلهة ، كما كانت تحل أيضاً فى الأشجار وهى تبعث الخير وتبعد الشر . وأقدم هذه الأصنام مناة ثم اللات والعزى ، ولكل قبيلة أصنام ، وأعظم أصنام قريش هبل فى الكعبة(٢) .

كانت هذه الآلهة تعبد فى بيوت وهياكل بسيطة جداً ، منتشرة فى أنحاء الجزيرة أهمها : — الكعبة فى مكة وكانت بيتاً لآلهة قريش، ثم جاء الإسلام وقدس الكعبة . وجاء فى القرآن الكريم أن مكة كانت بيت الحرام ، منذ زمن إبراهيم وإسماعيل . ثم دنسها العرب بالأصنام والشرك فجاء النبي وأعاد سيرتها الأولى(٣) .

ونستدل من القرآن الكريم على أن العرب رفعوا إلهاً فوق الآلهة الأخرى، فكان

(١) ابن الكلبى — كتاب الأصنام ص ٨
(٢) نفس المصدر — ص ١٣ ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٧
(٣) سورة البقرة آيتا ١٢٧ ، ١٢١

عندهم الإله الأكبر الذى يسير أمور حياتهم بالاشتراك مع آلهة أخرى . فالإسلام إذن لم يبشر بالله و إنما بوحدانية الله ومحاربة الشرك، ورفع معنى العبادة من مظاهرها الحية إلى وجوهها المعنوية، وذلك بتحريم عبادة الأصنام والأشجار، وغيرذلك من مظاهر مادية.

ثم إن اليهودية ، وهى تلى الوثنية فى أهميتها ، كانت منتشرة فى الواحات، وخاصة فى يثرب — المدينة — وكان لليهود فى الطائف جالية ، وفى مكة أفراد قلائل ، كما تأسست دولة يهودية فى اليمن عاركت النصارى، وتدخلت فى ذلك العراك الروم والأحباش والفرس . وكان أكثر اليهود حضراً اشتغلوا فى التجارة إلى حد مّا ومهروا فى الصناعة، وكان لهم نظامهم الخاص فى حياتهم الدينية ، ولكنهم فى حياتهم الاجتماعية اصطبغوا بلون الحياة العربية بالجزيرة (العرب والمستعربون منهم على السواء) . وينقسم اليهود إلى ثلاث قبائل : بنى قريظة ، و بنى قينقاع ، و بنى النضير[١] .

أما المسيحية فكانت أقل انتشاراً ونفوذاً فى الحجاز وأكثرها فى الشمال . وقد تسربت إلى نجران خاصة، وقامت بينها و بين اليهودية عراك، أدى إلى تدخل السلطات الخارجية، كما أنها تسربت إلى الحجاز ، وكان هناك فى مكة جماعة أخرى . واشتغل أكثر النصارى بالزراعة والتجارة . وأكثر هؤلاء النصارى لجئوا إلى الجزيرة العربية ، هرباً من البيزنطيين الذين فرضوا عليهم العقيدة الرسمية فرضاً أسفر عن غضاضة دينية وجنسية بينهما[٢] .

هذه هى المعتقدات الرئيسية فى الجزيرة العربية حينذاك . غير أنه كانت هناك ثورة روحية فى حياة العرب ، معتقدات غامضة فى النفس والروح والحياة الأخرى تمخض فى نفوسهم، ولكن لم يكن لها قوة كبيرة أو توجيه خاص يصل بهم إلى حد

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص٨٧
Lammens: Arabie Occidentale Avant l'Hegire, pp 51-99.
O'Leary: Arabia Before Muhammed pp. 173-177

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٨٤ — ٨٧
O'Leary: Arabia Before Muhammed, p.143.
للتفصيل راجع كتاب Lammens: L'Arabie Occidentale Avant l'Hegire, pp.1-49

فاصل أو انقلاب فعلى . بيد أن ناموس الطبيعة واحد ، فالإنسان يتطور مع نظرية النشوء والارتقاء فى جميع أدوار حياته ، فينتقل من مرحلة إلى أخرى ، دون تعمد أو قصد ، ويجتازها قدماً دون إجهاد و إرهاق .

ولعل بعض أفراد العرب فى أواخر العهد الجاهلى سئموا من الحياة الدينية السائدة واعتقاداتها البالية ، وملّوا عبادة الأصنام ، وشعروا بضعفها وهوانها ، فأخذوا يتطلعون إلى اعتقادات أخرى أعمق معنى فى قلوبهم وأشد أثراً فى نفوسهم، منهم: ورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة ، وعبد الله بن جحش وغيرهم . ويقال إن بعضهم تنصر والبعض بقى يتخبط فى فوضى من الاعتقادات ومنهم الأحناف[1] الذين يشيرون إلى عبادة إله واحد ، ويمقتون الأصنام ويؤمنون بالبعث والحساب . هذا التطور الداخلى فى نفوسهم ، وهذا الاستطلاع إلى حياة أسمى وأنبل مما كانت عليه ظل مكبوتا إلى أن جاء محمد بن عبد الله ، الذى خرج عن الدين القديم ، وأحدث فى تاريخ العرب انقلاباً تاماً تعدى العرب فى أثره وتأثيره إلى العالم أجمع .

سار محمد بحزم وعزم بدينه الجديد ، مجاهداً بوحدانية الله ، غير متخاذل أمام الصعوبات ، منتصراً على الباطل، متسامحاً مع الأعداء ، متناسياً المضض والعذاب، فلقد لقى من القرشيين العنت والاضطهاد ، حيث كان مستضعفاً فى مدينتهم ، ولكنه حين قويت دعوته ، وكثر رجاله ، ودخل مكة مربط المناهضين والمناوئين دخول المنتصر خشى القوم الانتقام والثأر ، ولكنه لم يفعل إلا ما يقتضيه سمو الأخلاق . إذ قال :

« يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[2] » .

غير أن تسامحه هذا لم يمتد إلى الفساد والضلال ، فهدم أصنام الكعبة و بددها وقال : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً[3]) .

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٨٧

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٥٥ (٣) سورة الاسراء آية ٨١

كذلك كان هذا النوع من الأخلاق عاملا من عوامل سرعة نشر دعوة الرسول وانصياع الجزيرة لإمرته .

ويعزو الأستاذ ميور[1] نجاح الرسول فى توحيد صفوف العرب دينياً وسياسياً إلى مقدرته الفذة ، وتفوقه العقلى ، فهو لم ينقض اليهودية ولا المسيحية بل وفق بينهما حتى أنه عد فى نظر وثنيي مكة معيداً سيرة الكعبة الأولى .

غير أنه لا يغيب عن ذهن أحد أن الإسلام جاء خاتمة الأديان ، وجاء النبى عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء ، فهو دين عربى ظهر فى الجزيرة العربية ، بلغة العرب ، وعلى لسان أشدهم عروبة ، محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى . فجاء ملماً بأمورهم جميعها ، ومداوياً لمشاكلهم الدينية والدنيوية ، وهكذا نقلهم من دور ضعف ، وتشتت وضلال ، إلى دور قوة واستقرار ونظام .

(١) The Life of Muhammad, Introduction p 98

الفصل الثاني

المرأة العربية قبل الاسلام

تباينت آراء المؤرخين حول العصور التى سبقت الإسلام ، فمنهم من يصورها عصور جهل وانحطاط وظلم ، ولذلك دعيت بالجاهلية . ومنهم من يطلق عليها هذا الاسم لجهل العرب الإسلام(١) .

وكذلك قضية المرأة : ففريق يرفع مَنْزِلَتَهَا فى نظر عرب الجاهلية ، والفريق الآخر ينكر ذلك ، ويظهرها فى مظهر الممتهن المسلوب الحقوق .

والواقع أننا لا نستطيع أن نقبل أيًّا من هذين الرأيين لأنهما متطرفان ، والحقيقة وسط بينهما فلم تكن كلّ النساء لتلقى الإرهاق والشدة فى المعاملة ، بل بينهن من نالت المكانة المحترمة والمنزلة السامية ، كخديجة بنت خويلد ، وهند زوج أبى سفيان كما أنه وجدمن احتقر المرأة ، ووصل به الأمر إلى وأدِها . ولم تكن خديجة هى مثال المرأة العربية فى المنزلة ولا الموءودة المثال الذى يذكر لمعرفة مركز المرأة .

فيمكننا القول إذن أن مركز المرأة قبل الإسلام كان محتقراً من جهة ، وبارزاً من جهة أخرى ، ونحن لضيق المقام نؤثر اختصار هذه النواحى ، كلٌّ على حدة .

المرأة العربية الوتر الحساس فى قلب الرجل العربى ، فهى سرُّ إلهامه ووحيه ، ومطلعُ قصيدته . وسبب غضبه وهياجه . وما تمجيدُ الشعراء لها مفاخرين بحمايتها ، ذائدين عنها ،غاضبين لغضبها ، إلا مظهراً يدل على أن مكانتها لم تكن بالشكل

(١) Nicholson: A Literary History of the Arabs, p. 30.

ويعلق على ذلك الأستاذ حتى فى كتابه تاريخ العرب ص ٨٧ أنه من غيرالمعقول أن يكون هذا هو السبب نظراً لما كان عليه عرب الجنوب من مدنية .

الممتهن الذى يصورها به بعض المؤلفين. وكثيراً ما ذكرها المحاربون وهم يقاتلون ليزيدهم ذكرها حماساً وبسالة وشجاعة.

فالمعلقات التى تعد روائع الشعر الجاهلى لا تخلو من الإشادة بالمرأة، والغزل بها، والمدح والفخر لإرضائها(١).

والمرأة موضع شرف العربى وفخره. فهو حريص على كرامتها، ولم يتلكأ يوماً فى شن الحروب من أجلها، وما حرب ذى قار التى سجلت انتصار العرب على الفرس إلا مثل لحرص العربى على الدفاع عن كرامة المرأة حين أبى النعمان تزويج ابنته لكسرى أبرويز ملك الفرس وسيد ملوك المشرق واعتبار كسرى أن الرفض امتهان له.

وكذلك حرب الفجار الثانية فى عُكاظ، التى قامت بين قريش وهوازن، والتى سالت فيها دماء العرب، تلبية لاستنجاد امرأة بآل عامر للذود عن شرفها.

وحرب البسوس الضروس التى دامت أربعين عاماً، وأتت على الأخضر واليابس كان سببها انتهاك جوار امرأة.

ولقد كرّم العرب الأم خاصة، سواء كان مركز ابنها كبيراً أو صغيراً، وسواء أدت حمايتها إلى خصومة حادة، أو ما يعتبر من الناحية الاجتماعية تطاولاً. وسواء أنتجت مآسى وفواجع، فلا مفر للرجل مهما كانت الظروف من أن يحول دون تحقير

(١) وما ميزة معلقة امرئ القيس إلا الغزل فى المرأة.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبـك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعـل

ثم إن معلقة عنترة التى مطلعها الغزل يتخللها كثير من الفخر والحماسة ومنها:

هل غادر الشـعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبـلة بالجواء تكلمى ... وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

ثم ينتقل إلى الفخر

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسـل ... مر مذاقتـه كطعم العـلقم
فإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم
يخبرك من شهد الوقيعـة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

هذا قليل من الشعر الجاهلى الذى يمتاز بالإشادة بالمرأة والتغنى بها.

أمه وذويه . وما قصة عمرو بن هند ملك العرب وعمرو بن كلثوم إلا مثل لذلك[1] .

« تتميز المرأة الجاهلية فى الجملة بخلال ثلاث . العفة ، والفصاحة ، وحسن التربية لبنيها . وإن الرجولة الطافحة فى بلاد العرب مدينة بالشىء الكثير للمرأة إن لم تكن مدينة بها وحدها بكل صفاتها من مروءة وشجاعة وكرم ونجدة . وأصبح اختيار الأمهات أول ما يفكر فيه الجاهلى إذا ابتغى النجابة لأبنائه حتى صح أن يكون رأس ما يمن به الرجل على أبنائه إذا كبروا هو حسن اختياره لأمهم[2] » .

لباس المرأة العربية وزينتها

تستوى المرأة فى إقبالها على الزينـة ، وحبها لها وتعلقها بأسبابها . ولا تختلف فى ذلك المرأة منذ خلقت ، وفى عصور تطورها ، وفى الجاهلية ، وفى القرن العشرين ، فى أى مكان أقامت فيه .

فالمرأة فى الجاهلية ارتدت الملابس ذات الأزياء والألوان المختلفة ، وتوفر لها ذلك من مناسج البحرين واليمن وعمان والعراق والشام ، وما استورد من الأنسجة الرقيقة من الهند و بلاد فارس .

وكانت مادة هذه الأقمشة الحرير على أنواعه المختلفة ، وألوانه العديدة .

ومن أعم الأردية المرط — وهو كساء من صوف وخز — كما أنها التفت بالشال . وشدت بين خصرها وعاتقيها بالوشاح وهو كرسان من لؤلؤ وجوهر ولبست فى رجليها الخف والقفش والجورب والقفاز وكانت تتميز الأمة عن الحرة بارتدائها العمر — وهو منديل الرأس — كما كن يختلفن فى غير ذلك من الأزياء[3] . لقد حرم

---

(١) رغب عمرو بن هند فى ألا تتكبر عن خدمة أمه أى من نساء العرب فتعمد فى أن تفعل ذلك أكثر نساء العرب أنفة وكبرياء . وهى ليلى بنت المهلهل والدة عمرو بن كلثوم . ومن أثر ذلك أن قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند دفاعاً عن كرامة أمه . وقال قصيدته المشهورة :

أبا هنـد فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينـا
بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا

الألوسى — بلوغ : الأرب جـ ٢ ص ١٤٢

(٢) سعيد الأفغانى — الاسلام والمرأة ص ١٩

(٣) الألوسى — بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٧٤

الله الجزيرة العربيــة كثيراً من الخيرات والمحصولات ولـكنه منّ عليهـا بوفرة اللؤلؤ والمرجان ، المستخرج من شواطىء البحرين وعمان ، وغيرها من المعادن الثمينة كالذهب والفضة ، والجواهر الـكريمة ، كالزبرجد والعقيق والياقوت ، الذى كان يرد من مختلف الأقطار . ولم تحرم المرأة الجاهلية نفسها من التزين والتحلى عامة ، إلا امرأة منحها الله جمـالا ، فأرادت أن يكون جمالها طبيعياً لتفخر به وامرأة ألمت بهـا الخطوب ، ونكبتها بعزيز فتزهدت الدنيا واستخفت بها ، فابتعدت عن الزينة والحلى .

وكما أن المرأة تستوى فى التحلى والتزين فى كل العصور وهى كذلك تختلف فى ضروب الزينة وصنوف التحلى وأنواع التطيب . فالبخانق والعقود والأكاليل المرصعة بالجواهر الـكريمة والأساور والخواتم المختلفة كلها كانت مستعملة ومصنوعة بطرق شتى ، وكذلك أنواع الطيب من صندل وعود وعنبر ومسك [1] .

لم يكن الحجاب قاعدة مضطردة عند العرب ولم يكن شاملا ولـكنه كان معروفاً والعادة الغالبة بين نساء الجاهلية السفور بل إن القبيلة الواحدة كانت تجمع بين الحجب والسفور فبعض نسائها سافرات يجلسن إلى الرجال ، ويشاطرنهم الحديث . وآخريات يرخين القناع ويتحجبن وذلك إما استحياء أو دلالا .

ولم يكن للسفور شكل واحد بل كان على أنواع : سفور محتشم ، وسفور مبتذل فبعض النساء كن يتبرجن تبرجاً مستنكراً مخالفاً للآداب ينافى لبسهن الحشمة والوقار ، ويخرجن بين الرجال وغالبهن من الاماء ، وقد أنتج ذلك مفاسداً وشروراً اجتماعية .

وهذا سبب من الأسباب التى أنزلت من أجله آيات الحجاب .

المرأة العربية فى ميادين الحياة عامة

ولم يحل الحجاب الذى كان قائماً عند بعض الناس دون اشتراك المرأة فى مختلف ميادين الحياة .

ولا يكون مغالياً من يقول إنها ساورت المرأة فى كثير من الأمور فى عصرنا

---

(١) عبد الله عفيفى — المرأة العربية فى جاهلتها وإسلامها ج ١ ص ١٢٥ — ١٣٠

هذا ، فظهرت فى الحيـاة الاجتماعية كما أنها برزت فى الحياة الحربية والأدبية .

اشتركت المرأة فى الأفراح والأتراح ، وكانت العـادة فى الأفراح أن تعزف المرأة وتغنى ، ولم يكن مستهجناً أن ترقص وأن تظهر سرورها بكل وسيلة ، وتزيد الجو سروراً وبهجة .

أما فى الأحزان فكانت العادة أن تضرب المرأة صدرها ، وتحلق شعرها ، وتشق جيبها . وقد ذكر للخنساء بين فضائلها أنها لم تحلق شعراً ولم تضرب صدراً ، رغم فجيعتها بأخويها وقالت هى بذلك فى رثاء أخيها معاوية « ولكن رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق »[1] .

ولم يكن نصيب المرأة العربية فى الحيـاة الحربية ضئيلا . فكانت تخوض غمـار الحروب تثير الحماسة فى قلوب المحاربين ، وتشجعهم ، وتنقل إليهم الماء ، وتعتنى بالمرضى والجرحى ، وظلت هـذه العـادة إلى مابعد الإسلام . ففى غزوة أحد خرجت هند بنت عتبة مع بعض النسوة يضربن الدفوف تحريضاً للرجال على محاربة المسلمين[2] .

كان قسط المرأة من الحياة الأدبية كبيراً . فالعربى يطرب للشعر ، وتهتز مشاعره للأدب والفصاحة والبيان ، وقد وهبه الله فصاحة اللسان وحسن التعبير ، وسرعة اقتباس اللهجات واللغات . والمرأة العربية لاتختلف عن الرجل العربى فى هـذه المزايا فحسن منطقها وروعة كلامها وسلامة تعابيرها كان يزيدها جمالا وسحراً ويجعلها تأخذ بقلوب سامعيها ومحدثيها . فكانت تتردد على مجالس الرجال وتخطب فى محافلهم وتقف على منابر سوق عكاظ — أكبر مواسم العرب الأدبية — تأتى إليه من كل صوب وحدب ، وتزاحم الرجال ، وتنشد الشعر وتنقده . وامتازت المرأة العربية بدقة النقد وسرعة البديهة حتى كان لمبرزات منهن الكلام الأخير فى بعض الأحيان وذلك كحادثة الخنساء والنابغة الذبيانى والأعشى .[3] والشـاعرات منهن كثيرات كليلى

(١) المبرد — الكامل ص ١ : ٧
(٢) ابن هشام — ج ٣ ص ٧٣
(٣) الأغانى — ج ٩ ص ١٠٣ الألوسى : بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٥

الأخيلية — وهى من المخضرمات ، والخنساء ، وهند بنت عتبة ، التى أدركت الإسلام فيما بعد وهى شاعرة مشهورة وغيرهما كثيرات .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين نساء العرب فى الجاهلية من اشتهرن بإصابة الرأى ورجاحة العقل وفصل الخصومات : منهن حجر بنت لقمان التى « كانت العرب تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات فى الأنساب وغيرها »[١] .

وكانت المرأة العربية تقوم بكل ما يتطلبه البيت[٢] من عمل . فرعاية المنزل ، ونظافته ، ونظامه ، وتربية الأطفال ، والطهى ، والرعى ، ومشاركة زوجها أعماله ، من النواحى التى ظهرت فيها المرأة ولكنها لم تقتصر عليها ، بل انصرف بعضهن إلى الأعمال والصناعات ، للتسلية أو الارتزاق . وذلك باختلاف الحاجة فلم تكن الفقيرة دائماً عالة على وليها . ومن أعمال التسلية ، الغزل والضرب على المعازف والغناء[٣] . ومن أعمال الارتزاق وكسب المال ، الغناء الذى هو صناعة القيان عادة ، وكن يجلبن من بلاد فارس والروم . كذلك اشتغلت المرأة بصناعة الرماح والتجارة ، كهند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب ، وخديجة بنت خويلد ، التى كانت تدفع المال مضاربة « وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم[٤] » . وجاء أيضاً : « كانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة[٥] » .

وكان الفقيرات من النساء يقمن بأعمال أخرى كذبح الجلود ، وارتياد الأماكن المتعددة لابتياع التمر ، والعسل ، والسمن ، أو بيعها أو استمدادها بمثلها ، ومهن

(١) الآلوسى — بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٤٢

(٢) لم يكن للعرب عامة بيوت فى المعنى المعروف وإنما كانت خيم تضرب وتطوى إلا فى المدن كان هنالك دور وقصور تتفاوت بين البساطة والعظمة .

(٣) الأغانى — ج ١٠ ص ١٨

(٤) ابن هشام — ج ١ ص ١٩٩

(٥) ابن سعد — ج ٨ ص ٩

عن المستقبل زجر الطير[1]، والكهانة والعرافة[2]، كما كانت الرضاعة شائعة جداً، وكان بعض العرب يسلمون أولادهم لغير قبائلهم، ليكونوا أنجب وأفصح وقد استمرت هذه العادة إلى ما بعد الإسلام، وقد اعتز الرسول بذلك قائلا: « أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت من بني سعد بن بكر. »[3] وكذلك النوح والندب أصبح مهنة تسخر لدفع العوز والفقر. ومن أمثالهم: ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة.

وتمتعت المرأة العربية بقسط غير قليل من الحرية الشخصية فكانت في مسألة الخطبة والزواج المرجع الأخير، ولها حق القبول والرفض، ومثال ذلك: الخنساء التي رفضت دريد بن الصباء عندما خطبها قائلة: « ادع بني عمي الطوال مثل عوالي الرماح وأتزوج شيخاً »[4]. وهند بنت عتبة بن ربيعة التي اشترطت على أبيها عتبة بن ربيعة ألا يزوجها رجلا حتى يعرضه عليها. والواقع أنه خطبها رجلان من قومها، فعرض أبوها الأمر عليها، فقالت هند: « أما الأول.. ولا يسمه لي، وأما الآخر.. فبعل الحرة الكريمة »[5]. وكان الثاني أبا سفيان بن حرب. بل انها في أحيان نادرة كانت تعرض نفسها على من تختاره زوجاً لها. ولم يستنكر العرف الاجتماعي ذلك ومثاله: اختيار خديجة بنت خويلد الرسول.

---

(١) الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم. الألوسي — بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٠٧

(٢) ادعاء علم الغيب كأخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب والأصل فيها استرقاق السمع مع كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن (الألوسي بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٦) الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة بينما العرافة تختص بالأمور الماضية. (الألوسي بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٧٤) وممن اشتهرن بالكهانة والعرافة طريفة الكاهنة التي أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بخراب سد مأرب وغيرها فاطمة الخثعمية التي قالت لعبد الله والد الرسول « رأيت في وجهك نور النبوة » الألوسي بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٠٥

(٣) ابن هشام — ج ١ ١٧٦

(٤) ابن حجر — ج ٨ ص ٦٦

(٥) القالي — ج ٢ ص ١٠٤

وتمتعت المرأة العربية بحق ذى أثر كبير، وهو حق الطلاق — « وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية »[1].

ومن أظهر ما يأخذه المؤرخون على عرب الجاهلية الوأد، وأنه دلالة الانحطاط والتأخر، وعلامة ذل المكانة وحقارة المنزلة التى أُنزلتها المرأة، وهو فى الواقع أقصى ما تصل إليه القسوة البشرية، بل هو الإجرام الشنيع بعينه. ويرجع السبب الغالب لذلك إلى اعتبارات اقتصادية هى « خشية إملاق » وما ينتج عن ذلك من تهاون فى الأعراض. والجزيرة العربية جدباء، فالزراعة فيها قليلة جداً (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم)[2]. ويشتغل معظم أهالى الجزيرة بالرعى الذى يدر عليهم دخلا ضئيلا جداً على حين احتكرت طبقة معينة — قريش — التجارة التى كانت مصدر ربح وخير لها، وكانت تقوم برحلتين: رحلة فى الشتاء إلى اليمن، ورحلة فى الصيف إلى بصرى من أرض الشام[3] وكانتا تدران على الأغنياء من قريش مالا كثيراً، فيجمع هذا المال ويقسم ربح الغنىّ بينه وبين الفقير « حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك »[4].

بيد أن الفقر والعوز كانا سائدين بين القبائل الأخرى، فكان يلجأ بعضها لقتل أولادها تخلصاً منه، ويبين لنا ذلك من ظاهر النص فى الآية سورة الإسراء — آية ٣٦ — (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وهذا يشير إلى الأولاد جميعاً ذكوراً وإناثاً، على السواء. أضف إلى ذلك أن العرب رجال حرب وثأر، وكان السبي منتشراً فى حروبهم وغزواتهم، فهذه الأسباب مجتمعة ترجع إلى طبيعة أرضهم ثم تخوفهم من أن تترك نساؤهم دون من يعولها، وخشية من السبى التجئوا إلى وأد بناتهم، حرصاً على أعراضهم وتخلصاً من الفضيحة والعار. ومنهم

١ الأغانى — ج ١٦ ص ١٠٢
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٧
(٣) الألوسى — بلوغ الأرب ج ٣ ص
(٤) نفس المصدر — ج ٣ ص ٣٨٧

من كان يئد فئة معينة من البنات ، من كانت منهن « زرقاء أو تيماء أو برشاء أو كسحاء تشاؤماً منهم بهذه الصفات » [1] . ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن وأد البنات كان شائعاً بين قبائل العرب كلها وأنه يستعمله واحد ويتركه عشرة . » [2] في حين أن البعض يقول : إن ذلك كان مقصوراً على بعض القبائل ككندة وتميم [3] .

وسواء صح هذا القول أو ذاك فإن ذلك لايخفف من روح الإجرام عند القبائل التي كانت تعمل بها والتي تسكت عنها لأن السكوت عن الشيء رضا . ولم تقفر الجاهلية من بعض قلوب غلب عليها الحنان والرحمة وغرائز إنسانية ، ترفعت عن مادة الدنيا وقساوتها، ولم تخل الجزيرة ممن كان يشفق على البنات — فيفتدي الموءودة أو يتعهد بالإنفاق عليها ، كزيد بن عمرو بن نفيل الذي أحيا ستاً وتسعين موءودة ، وكصعصعة ابن ناجية بن عقال الذي أنقذ مائة وثمانين طفلة [4] .

واستمرت عادة الوأد حتى ظهر الإسلام فقضت تعاليمه على مفاسد الجاهلية وشرورها .

ولم تكن حياة المرأة العربية هادئة مستقرة مطمئنة ، بل كانت تساورها المخاوف والقلق ، فإن نجت من الوأد لم تكن لتتخلص من السبي الذي كان متفشياً عند العرب جميعاً ، وقد اعتبروا المرأة متاعاً تسبى في الحروب ، ويتصرف فيها الرجل كما يشاء ، يتمتع بها ، أو يسترقها ، أو يبيعها ، أو يهبها ، كما يستحل ما يغنمه من الأموال والغزوات . وكانت أنفسهن العربية تأبى الرضا بمثل هذه الأمور .

لذلك كانت النساء تكره السبي ، وتخافه ، وتبذل أقصى الجهد للخلاص منه . ويروى أن فاطمة بنت الخرشب عندما أسرها حمل بن بدر آثرت الموت على الأسر ،

(١) الألوسي — بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٤٣
(٢) الميداني أحمد — مجمع الأمثال . ج ١ ص ٣٧٣، الألوسي — بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٢
(٣) الألوسي — بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٢
(٤) نفس المصدر — بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٥ و ٤٦

فألقت بنفسها من الهودج منكسة ، فتوفيت فى الحال ، وذلك لكى لا تلحق العار بنيها[1] .

الزواج فى الجاهلية

كان الزواج فى الجاهلية على أنواع ، ولم تكن هناك قواعد تبين حقوق كل من الزوجين وواجباتهما .

وأهم أنواع الزواج هذه أربعة :

الأول — يشبه الزواج فى وقتنا الحاضر بمعنى أن الرجل يخطب المرأة إلى وليها ، فيصدقها ، ثم يعقد عليها .

والثانى — ما يسمونه بزواج الاستبضاع ، بمعنى أن الرجل يسمح لامرأته أن يتمتع بها أحد الأشراف من قومه ، وذلك رغبة فى نجابة الولد . ويقول الأستاذ ولكن[2] إن هذه العادة كانت معروفة عند غير العرب من الشعوب ، ولكن باختلاف السبب وهو أنه يحق للمرأة أن يتمتع بها غير زوجها إذا لم تنجب منه أولاداً .

والثالث — كان يجتمع الرهط من العشيرة فيختلفون عليها ، وإذا حملت كان لها الحق فى أن تجمعهم ، وتعين الأب أو تختاره من بينهم .

الرابع — وهو أن المرأة كانت مباحة للجميع — شأن البغايا — وإذا حملت كان الأب يعرف بواسطة القافة .

وكان هنالك أنواع أخرى من الزواج ، كالمتعة والبدل ، وغير ذلك . ولما جاء الإسلام أبطلها كلها ، وأبقى النوع الأول مع بعض التعديل فى زواج المتعة[3] .

ويقول الكاتب اللاتينى Annianus Marcellinus[4] : «إن العرب فى الجاهلية

(١) الأغانى — .
(٢) ولكن — الأمومة عند العرب ص ٢٥
(٣) الألوسى — بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣ — ٤
(٤) فى كتاب ولكن — الأمومة عند العرب ص

لم تكن تعرف زواجاً مستمراً تربط فيه المرأة مع رجل معين لأجل مسمى وذلك لأن العرب كانوا يفضلون النكاح الوقتى على غيره . » من ذلك نرى أن الزواج فى الجاهلية كانت تسوده الفوضى من استبضاع ونكاح مشاركة ، وتعدد الأزواج والزوجات ، والاستبدال ، و إلى غير ذلك من ضروب، دون أن تقيده قيود أو تحدده شروط ، ولم يكن الطلاق على أحسن حال ، بل كان فى فوضى من طلاق وخلع و إمساك بضرار [1] أضف إلى ذلك أن المرأة كانت تسبي وتشترى وتباع ولم يكن تفشى الرق بين الأناث والذكور ، وسوء معاملة الأرقاء إلا ظاهرة تثبت ذلك ، وكما كانت تورث المتاع كذلك كانت النساء بعد وفاة أزواجها يرثهن أولاد الزوج مع سائر الأشياء، ويتمتعون بهن .

ومن بقايا الجاهلية عند أهل البادية الذين لم يتصلوا بتطور الحياة ولا بالمدنية الحديثة عدم توريث البنات وتخليصها مهورهن [2] . و إلى جانب هذه العادات كلها العضل، وهو أن تكون يتيمة عند رجل هو وليها ووارثها فيحرمها من الزواج ويعضلها لئلا يشركه فى مالها أحد . [3] وكان بعض الرجال يكرهون فتياتهم على البغاء كسباً للرزق ، وظل هذا الفساد الشنيع إلى أن حرمه الإسلام مع ما حرم من شرور الجاهلية .

أما وقد أتينا بكلمة موجزة عن حياة المرأة فى الجاهلية نستطيع أن نقول إنه لم تكن هناك إذن قاعدة عامة مطردة فى المعاملة ، فقد وجد الوأد ، ووجد إلى جانبه

(١) الآلوسى — بلوغ الأرب ج ٢ ص ٤٩ — ٥٥

(٢) أما عدم توريث المرأة فلا يزال معمولا به عند بعض العائلات الكبيرة فى الداخل — سوريا ولبنان — وهم الاقطاعيون الذين يرغبون فى حفظ كيانهم وسيطرتهم، ذلك لأن التقسيم أو تقسم أراضيهم وإشراك الصهر الغريب فيها يضعفهم ، ولذلك يلجأ بعضهم إلى حرمان بناتهم من الميراث إذ يعوضون عنه بدراهم نقداً ويحتفظون بالأملاك والأراضى للذكور .

(٣) توجد روايات كثيرة تظهر سخط الفتيات على عضلهن والتمرد على هذه العادة الظالمة . القالى ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٦

تفضيل المرأة والقبول بحلها وحكمها. من أجل ذلك يصعب إصدار حكم عام ولا بد لصحة الاستنتاج ، من التفريق بين الطبقات و بين القبائل .

ويقول الأستاذ عبد الله عفيفى : [1] « إذا نحن أرخينا الستر عن تلك المظالم وضربنا صفحاً عن أولئك الوائدين من القوم فإنا واجدو العرب من وراء ذلك يكادون يذوبون عطفاً وحناناً على بناتهم» فى حين يقول الأستاذ سعيد الأفغانى : [2] «لا يستطيع أحد أن يزعم — بعد هذا — أن الحال التى وجدت فيها المرأة العربية من وأد وسبى وحرمان ميراث وعضل وغصب مهر وامتهان هى حالة حسنة، والحكم دائماً على المجموع لا على الجميع . »

والواقع أن الوأد لم يكن بالأمر السهل الذى يمكن إسدال الستار عليه كما يقول الأستاذ عفيفى ليبقى مركز المرأة رفيعاً ، ولا يمكن اعتبار سبى النساء — وكان عاماً على عكس الوأد الذى كان محدوداً — تكريماً لهن و يبقى بعد ذلك أن نقرر بصورة عامة أن منزلة المرأة كانت دون منزلة الرجل ، وأن ما تمتعت به من حقوق كان دون حقوق الرجل بمراحل كبيرة ، ويقول نيكلسون : [3] « إن المرأة نالت مركزاً طيباً وكان لها تأثير محسوس فى المجتمع » .

(١) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ج ١ ص ٥١

(٢) الإسلام والمرأة ص ٢٩

(٣) A Literary History of the Arabs p, 87.

الفصل الثالث

الاسلام والمرأة العربية

لم يأت الإسلام بدين جديد يهدم فيه عقائد الجاهلية وأصنامها فحسب ، بل جاء بثورة اجتماعية، بدّد فيها مظالم الحيـاة عامة ، واعوجاج عاداتها ونظمها ، وأتاح للمرأة مكاناً مرضياً ، فدافع عنها ورفع من شأنها . ألم يحرم وأدها ويمنع سبيها ويهبها حقوقاً اجتماعية وشرعية ؟

وجاء بثورة اقتصادية شملت حياة العرب جميعاً فلم تعد المرأة فى ظله متاعاً ولم تبق محرومة ممـا ينعم به الرجل من الإرث والمـال .

وجاء بثورة سياسية خلقت من العرب المبعثرين الضعفاء بمجموعهم قوة ضخمة مهيبة ، شعرت بكيانها ، فنظمت دولتها على خير ما عرف من أنظمة الدول ، ورتبت شئونها لئلا تبقى إلى الأبد عالة على خصومها الفرس والروم واليهود .

وجاء مع ذلك بثورة ثقافية ، وقواعد من شأنها أن تلزم الرجل والمرأة المسلمين أن يتعلما وأن يتفهما كل شيء ويتفقها فى الدين، وألزمهما بالجهاد لنشر العقيدة ، والمعانى السامية الجديدة ، كلّ فى الحقل الذى يستطيع العمل فيـه . وهو قد سعى فيما بث فى المسلمين من آراء أن يجعلهم المثل العالى ليكونوا أقدر وأقوى فى أفرادهم ، وفى مجموعهم ألم يخاطبهم بقوله تعالى: « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنـكر »

أما المرأة عامة فى هذه الحياة الجديدة ، فقد كانت فى أول أمرها ثقلا يرى الرجل

(١) سورة آل عمران آية

من الشهامة أن يحتمله حتى اعتاد مالم يألفه فى الجاهلية فأصبحت حقوق المرأة طبيعية فى نظره .

وأول ما بدأ به الإسلام تحريم وأد البنات فنزلت آيات بينات ، مطمئنة للفقراء بأن الله سيرزقهم وأولادهم ، وأن قتلهم كان خطأ كبيراً . وقد ردّد الله تعالى ذلك أكثر من مرة فى سور مختلفة إذ قال: (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) [1] وقال لغير الفقراء : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيراً) [2] .

ولم ير الله مبرّراً لوأد البنات حتى لو كان سبب ذلك الغلو فى العفة والفضيلة فقال: (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) [3] وجاء أيضاً: (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) [4] . ثم إنه أظهر عدم ارتياحه لسخطهم من وجود البنات: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء مايحكمون) [5] ومن ثم وضع حداً لوأد البنات . ولم يقف الإسلام عند تحريم الوأد والسبى ، وإنما امتد إلى التوصية خيراً بالمرأة ، وأكثر فى ذلك . ولعل سبب الإكثار هو الرغبة فى أن يمحو من الأفكار ماتركز فيها من ظلم المرأة ، وكتب الحديث والتاريخ مليئة بتوصية الرسول بهن ، والحث على إعلاء شأنهن ، والاستئناس بهن، أليس هو القائل: «أوصيكم بالنساء فإنهن عندكم عوان» أى أسيرات [6] وقال أيضاً — عن عائشة —: « من ابتلى من البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار » [7] كما قال الرسول أيضاً : « إنما المرأة خلقت من ضلع عوجاء فان تحرص على إقامتها ، تكسرها فدارها تعش بها » [8] .

(١) سورة الأنعام آية ١٥١
(٢) سورة الإسراء آية ٣١
(٣) سورة كورت آية ٨ ، ٩
(٤) سورة الأنعام آية ١٤٠
(٥) سورة النحل آية ٥٨ ، ٥٩
(٦) المبرد ص ٢٧٠
(٧) المسند ج ٦ ص ٨٨
(٨) ابن قتيبة ج ٤ ص ٢٧

والرسول، كما نعلم، عملى منطقى فى عقائده ونظمه كلها ، فهو قد ابتدأ بنفسه بحسن معاملة النساء ، وخاصة أهل بيته . فالأقربون أولى بالمعروف .

وسنرى فى كلامنا عن عائشة حسن معاملة الرسول لها ، وكذلك لنسائه جميعاً ، وكان يحترم آراءهن ويقبل أن يراجعنه فيما لايرضين به ، فلا يسخطه ذلك ، حتى أصبحت سائر النساء يقتدين بهنّ . وفى حديث لعمر بن الخطاب قال : « فصحت على امرأتى فراجعتنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه »[1]. ثم إن حبه وتدليله لبناته و بناتهن ، و بنات صحابته كان أمراً غير مألوف عند العرب، كما أن إعجابه وحبه لابنته فاطمة قد فاق حب الآباء للبنين ، ألم يقل « خير نساء العالمين مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد . »[2]

وكان الرسول يردّد دائماً أن مايسوءها يسوءه ومايسرها يسره. وكان ﷺ يساعدهن فى خدمة البيت وقضاء حاجاته . سئلت عائشة ماذا كان يصنع الرسول فى البيت فقالت: « كما يصنع أحدكم يشيل هـذا ، ويحط هـذا ويخدم فى مهنة أهله . وفى رواية ﷺ يخدم فى مهنة أهله ، ويقطع لهم اللحم ويقم البيت ويعين الخادم فى خدمته »[3]. وقالت فى رواية أخرى «كان رسول الله ﷺ يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته »[4]وكان ﷺ يقول لنسائه: « إن أمركن لما يهمنى بعدى ولن يصبر عليكن إلا الصابرون »[5] وقال : « الذى يحافظ على أزواجى الصادق البار[6] » .

وكما أحسن الرسول معاملة أهله طلب من المسلمين أن يفعلوا مثله وقال : « دينار

(١) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ١٨٣
(٢) ابن عبد البر جـ ١ ص ٧٤٠ — ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص٤٣٧ .
(٣) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ١١
(٤) المسند جـ ٦ ص ١٦٧
(٥) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ١١
(٦) ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٢

أعطيته مسكيناً ودينار أعطيته فى رقبة ودينار أعطيته فى سبيل الله ودينار أنفقته على أهلك هو أعظم أجراً »[١]. ويقصد « بأهلك » الذكور والأناث على السواء وقال أيضاً: « كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا تأديبه فرسه ورميه عن قوسه وملاعبته أهله »[٢] وأوصى أيضاً: « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى . »[٣]

وكانت النساء ترتاح إلى الرسول وتجد من الحرية والتشجيع فى حضرته مايجعلهن يقلن ماشئن ، وبالطريقة التى يخترنها من ذلك مايروى من أن عمر بن الخطاب استأذن على الرسول وعنده نساء من قريش يكلمنه بأصوات عالية ، فلما دخل عمر ، دخلت النساء واحتجبت فضحك الرسول فقال له عمر: «أضحك الله سنك يارسول الله . فقال رسول الله ضحكت من هؤلاء — كذا — اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك بادرن الحجاب فقال عمر : ياعدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ؟ فقال رسول الله والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجاً غير فجك »[٤].

والظاهر أن الرجل كان يلجأ إلى ضرب المرأة لتقويمها وتأديبها . الأمر الذى جعل الرسول يستنكر هذه العادة ويقاومها من الناحية العملية ، وعن طريق الدعوة إلى الإقلاع عنها . وعن عائشة: « ماضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط ولا خادماً ولا ضرب شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله»[٥] ولم يستثن من الضرب إلا الأشرار وقد أثر عنه « ولا يضرب إلا أشراركم »[٦] يستوى فى ذلك الرجال والنساء .

وشكا مرة سبعون امرأة إلى الرسول بضرب رجالهن لهن فأغضبه ذلك وقال إنه لايحب أن يرى ذلك أبداً[٧] وقال عند ما شكت له امرأة ضرب زوجها : « يظل أحدكم يضرب امرأة ضرب العبد ثم يظل يعانقها ولا يستحى »[٨]

(١) ابن قتيبة جـ ٤ ص ٨١ (٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٨١
(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ١٤٨ (٤) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٣٠ ، ١٣١
(٥) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٤٧ (ابن حنبل المسند جـ ٦ ص ٣٢
(٦) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٤٧
(٧) ابن سعد جـ ٨ ص ١٤٧ ، ١٤١ (٨) نفس

وأوصى الرسول بالمرأة أختاً و بنتاً وزوجاً وجعل الجنة كلها تحت أقدام الأمهات. ولقد شدّد فى احترام الأم وحسن معاملتها وخاصة عندما تبلغ الكبر ، فتفقد قوتها ونشاطها ، امتثالا لأمر الله تعالى فى قوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً)[1]. وجاء أيضاً : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير)[2].

ويروى أن رجلا جاء إلى الرسول وقال له : «من أحق الناس بحسن حمايتى ؟ قال: أمك قال : ثم من ؟ قال : ثم أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك »[3].

ويروى أن رجلا استأذن النبى للجهاد فقال له : أحىّ والداك ؟ قال نعم . قال: ففيهما فجاهد[4] وظل النبى طوال حياته يوصى المسلمين بنسائهم. ولم يفته أن يشير إليهم فى خطبة الوداع حيث قال : « استوصوا بالنساء خيراً »[5].

وقد أثمرت تعاليم الرسول وأفعاله فى وقت قصير ، فاحتذى حذوه كثير من المسلمين ، وأحسنوا معاملة المرأة . ويروى عن علم من أعلام التابعين وشاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام (معن بن أوس) أنه كان « مئناثاً وكان يحسن صحبة بناته وتربيتهن » ولقد كان له ثمانى بنات . ويروى أنه ولد لأحد عشيرته بنت فكرهها واغتاظ من ذلك فقال معن يؤنبه على ذلك :

رأيت أناساً يكرهون بناتهم ... وفيهن لا تكذب نساء صوالح

وفيهن والأيام تعثر بالفتى ... نوادب لا يمللنه ونوائح[6]

ومن العادات القبيحة الأخرى التى قضى عليها الإسلام توريث النساء مع المتاع

---

(١) سورة الإسراء آيتا ٢٣ ، ٢٤ (٢) سورة لقمان آية ١٤

(٣) صحيح مسلم جـ ٨ ص ٢ (٤) نفس المصدر جـ ٨ ص ٢

(٥) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٥١ — السيوطى جـ ١ ص ٣٥

(٦) الأغانى جـ ١ ص ١٦٥

فكان الولد يورث زوجة أبيه ويتصرف فيها كما يشاء ونزل الوحى مانعاً ذلك : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا)[1] . كما أنه حرم العضل بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن)[2] . وكان بعض الرجال يكرهون فتياتهن على البغاء رغبة فى كسب المال فحرم الإسلام ذلك : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء)[3] .

ولما كانت عادات العرب تتشدد كثيراً فى أمر الحداد والحزن، وتضع لذلك قيوداً فقد جاء الإسلام ليخفف من تلك العادات المستهجنة فقال عليه السلام: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها[4] » كما منعهن من حثو التراب على رؤوسهن والغلو فى البكاء . فقال: « إن الميت ليعذب ببكاء الحى »[5] .

الزواج والطلاق فى الإسلام

جاء الإسلام وعادة الاشتراك فى المرأة وتعدد الزوجات شائعة لكل منها أنصار وتابعون . ولم يكن للزواج قيود وحدود لكل من طرفيه ، فوضع الإسلام قوانين ثابتة ، واضحة المعالم من حيث واجبات الرجل وحقوقه من جهة وحقوق المرأة وواجباتها من جهة أخرى .

ومن أهم ما جاء به الدين الحنيف أنه أعطى للمرأة الحرية فى اختيار الزوج وليس لأحد أن يغصبها عليه ، حتى ولو كان أحد أبويها ، كما كان لها حق فسخ عقد الزواج إذا اتضح فيما بعد أنها أكرهت عليه ، وخدعت فيه ، ولقد فسخ الرسول زواج خنساء بنت خذام الانصارية لأن أباها أكرهها على ذلك[6] . ومن قوله أيضاً : « امروا النساء فى أنفسهن فان الثيب تعرب عن نفسها وإذن البكر صمتها »[7] .

(١) سورة النساء آية ٢٢
(٢) سورة النساء آية ١٩
(٣) سورة النور آية ٣٣
(٤) المسند جـ ٦ ص ١٨٤
(٥) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٤١
(٦) ابن حجر — جـ ٨ ص ٦٥
(٧) السيوطى — جـ ١ ص ٣

وجعل الإسلام الرجل والمرأة من نفس واحدة فى قوله: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيراً ونساء) [١] (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) [٢] وكذلك (فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) [٣]. وصرح أن الزواج رابطة سكينة واطمئنان: (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) [٤].

ثم جعل المودة والرحمة أساس العلاقة الزوجية: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [٥].

وأمر الله تعالى بحسن المعاشرة : (وعاشروهن بالمعروف) [٦].

وأقر أن لكل منهما على الآخر حقوقاً :(ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) [٧].

وعلى الرجل أن ينفق على زوجته من ماله على قدر طاقته دون أن تكلف أو تجبر رضاعاً أو طبخاً أو غسلاً إلا راضية مرضية .

وحياة زوجية مبنية على هذه الأسس تتمثل فيها السعادة والهناءة والسرور .

وقيد الإسلام حق الرجل بالزواج بأربع نساء : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) [٨] (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) [٩].

وقد جعل لهذا الحق قيداً ثقيلا هو العدل بينهن فإن انتفى هذا العدل حرم التعدد ومع أن الفقهاء فسروا العدل بالعدل المادى إلا أن مجال القول واسع فى الاعتراض على هذا التفسير لأن الآية الخاصة بالتعدد أطلقت كلمة العدل ، وأطلقت عدم إمكانه

(١) سورة النساء آية ١ ثم سورة الزمر آية ٦ (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها)
(٢) سورة النحل آية ٧٢
(٣) سورة الشورى آية ١١
(٤) سورة الأعراف آية ١٨٩
(٥) سورة الروم آية ٢١
(٦) سوره النساء آية ١٩
(٧) سورة البقرة آية ٢٢٨
(٨) سورة النساء آية ٣
(٩) المصدر نفسه آية ١٢٩

أيضاً ، ومن ثم نستطيع أن نستنتج أن التعدد مشكوك فى إباحته على أقل تقدير .

وللإسلام حكمة فى إباحة الطلاق ولا سيما إذا اتبع ما جاء به من أحكام وقيود وواجبات .

وما الخير فى حياة كلها نزاع وشقاق ، وجو كله توتر وعدم ارتياح ، فإما عيشة راضية ، وإما فراق بمعروف . هذه هى الحياة المثالية العليا فى الزواج ، إما سعادة وهناء أو فراق دون شقاء : (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) [1] . أضف إلى ذلك أنه لم يجعل الطلاق من حق الرجل وحده فللمرأة حق الطلاق إذا اشترطته فى عقد الزواج ، وإن لم تشترط فيكون من حق الرجل وحده . وذلك مثال للحقوق المضمونة بين الجنسين فى هذا الأمر المهم ، ولئن أهملته المرأة فرجع ذلك إلى ثقتها بالرجل فإن كان غير أهل لها فما عليها إلا أن تطلبه وتستطيع كذلك أن تطلب من القاضى الطلاق فى حالات كثيرة لا مجال لذكرها . ولم يبح الإسلام الطلاق إلا فى حالات الضرورة . والطلاق اليوم لا يمثل على أية حال الضرورة التى ألجأت الشارع إلى وضعه وهو وإن كان حلالا إلا أنه بغيض . فقال عليه الصلاة والسلام : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » [2] .

أما وقد جعل الطلاق آخر طريقة لحل الخلاف بين الزوجين اشترط قبل وقوعه تدخل الأهل والقضاة لإزالة الخلاف ولإحلال الوئام : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) [3] . وفرض على الزوج القيام ببعض الواجبات كالنفقة وأن يدفع لها متأخر صداقها وحرم عليه أن يسترد شيئا مما أعطاها إياه : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) [4] .

(١) سورة البقرة آية ٢٢٩
(٢) ابن ماجة — ج ١ ص ص ٤ — السيوطى — ج ١ ص ٤
(٣) سورة النساء آية ٣٥
(٤) سورة النساء آية ٢٠

وهكذا نرى أن الطلاق ليس بالأمر اليسير . ويقول فى ذلك ﷺ : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح ، والطلاق، والرجعة »[1] .

حقوق المرأة المالية

منح الإسلام المرأة حقوقاً لم تنلها امرأة غيرها (فيما يتعلق بممارسة حقوقها المالية) فى وقت ضيقت فيه جميع الشرائع على المرأة فسلبتها حق التصرف وجعلتها تابعة لزوجها أو أبيها فى كل مايمس صلاحيتها وأهميتها لإدارة واستغلال أموالها .

فقد جعل الإسلام للذكر والأنثى حقوقاً متساوية فى الولاية على المال وفى مباشرة العقود على اختلاف أنواعها ، وجعل سن الرشد بالنسبة لهما الحد الفاصل بين استقلالهما فى إدارة أموالها وتبعيتهما للولى عليهما؛ فالمرأة إذا بلغت سن الرشد استطاعت أن تقوم بالبيع والشراء ، حرة فى ذلك كل الحرية (التى يملكها الرجل)، وكذلك فى الإجارة والشركة والرهن وغيرها من العقود ، كما أعطاها حق الولاية والوصاية لافرق فى ذلك بين صلاحياتها وما يمنح الرجل من صلاحيات ولا يملك أبوها أو زوجها حق منعها من ذلك، أو حق تحديد ماتريد مباشرته من الأعمال فقال تعالى: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم)[2] .

وتشمل كلمة اليتامى الرجال والنساء على السواء .

جاء الإسلام والعرف العربى لايعطى المرأة حق الميراث وإنما هو للأبناء الذكور وعلى هؤلاء أن يتعهدوا بالإنفاق على المرأة حتى تتزوج. وفى هذه الحالة يكون من حق وليها أن يأخذ المهر . فكانت بذلك محرومة من تصريف شئونها المالية بنفسها ، لذا أنصفها الإسلام من هذا الحيف فعين لها حقوقاً واضحة فى الميراث سواء كانت أماً أو زوجة أو ابنة أو أختاً ، كما جعل المهر من حقها دون أهلها ، وذلك فى قوله تعالى : (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة)[3] . وقد قال تعالى فى توريثهن : (للرجال نصيب

(١) ابن ماجة جـ١ ص١٤٨ ؛ الألوسى — بلوغ الأرب جـ٢ ص ٥٥
(٢) سورة النساء آية ٦
(٣) المصدر نفسه آية ٤

مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا)[1] فسوى بذلك بين الرجال والنساء من حيث مبدأ الوراثة فى جملته ووضع بهذا القاعدة العامة فى توريثهن مع الرجال ، ثم حدد بعد ذلك هذا الميراث فى قوله : (للذكر مثل حظ الأنثيين)[2] .

جهد المرأة فى نشر الاسلام :

سار الإسلام فى دعوته بين الرجال والنساء فآمن به فريق من هؤلاء وفريق من أولئك حين كان يعتبر فى الجزيرة بدعة تحارب ، فابتدأ الرسول دعوته فى بادىء الأمر بأهل بيته ، فكان أول من آمن برسالة محمد زوجه خديجة وشجعته وبعثت الطمأنينة فى نفسه. وكانت تهون عليه ما يلقاه من الأذى من قومه وعشيرته الأقربين. قال فى ذلك ابن هشام[3] : « وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء منه . فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ ألا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس رحمها الله تعالى » . وجاء أيضاً : « وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام كان يسكن إليها »[4]. ولعل فيما حوته كلمة (وزيرة) من معان شاهداً على ما كان لخديجة من شأن فى الإسلام كما دخل فى الدين الجديد كثير من النساء منهن : أسماء بنت أبى بكر ، وعائشة بنت أبى بكر ، وهى صغيرة[5] وأسماء امرأة عياش بن أبى ربيعة ، وكانت من المهاجرات إلى الحبشة[6] ، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبى طالب[7] وغيرهن كثيرات .

(١) سورة النساء آية ٧ كما أن نصيب الأم والأخت والجدة وغيرها وردت بها نصوص فى القرآن ... يراجع فى ذلك كتب الميراث والأحوال الشخصية .
(٢) سورة النساء آية ١١ (٣) جـ ١ ص ٢٥٧
(٤) ابن الأثير أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٣٩ (٥) ابن هشام جـ ١ ص ٢٧١
(٦) نفس المصدر ص ٢٧٣ (٧) نفس المصدر ص ٢٧٥

وقد لقيت المرأة المسلمة كما لقى الرجل المسلم كثيراً من العنت والاضطهاد فهاجرت مع من هاجر إلى الحبشة صابرة محتملة المشاق والعذاب ، فقد صحب عثمان بن عفان فى هجرة الحبشة الأولى زوجه رقيـــة بنت الرسول وسهلة بنت سهيل بن عمرو زوج أبى حذيفة بن عتبة وغيرهما[1] .

ونذكر مثالا لجهد المرأة وجهادها فى خدمة الإسلام ما فعلته أسماء بنت أبى بكر حين هاجر الرسول وأبو بكر إلى المدينـة ، وكيف كانت تعرض نفسها للخطر ، وهى تحمل لهما الزاد والماء فى غار حراء ، مما يدلنا على اشتراك المرأة فى الدعوة منذ فجرها ، كما أنها ساهمت فيما بعد بالحروب والغزوات تحث الرجال وتحمسهم ، وكم من أم دفعت بنيها للجهاد ، وزودتهم بالنصح والإرشاد ثم قضت الثكلى أيامها الطوال متـذرعة بالصبر والسلوان ، مفاخرة باستشهادهم فى سبيل الواجب المقدس .

ولعل خير مثل على ذلك الخنساء بنت عمرو السلمية التى حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة فكانت تحرضهم على الجهاد ، وعدم الفرار فاستبسلوا واستشهدوا جميعاً ، واحداً بعد واحد ، وهم يتفكرون موعظتها : « إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين وإنكم لابن أب واحد وأم واحدة ما جنت آباؤكم ولافضحت أخوالكم »[2] .

ولقد نظر الإسلام إلى جهاد المرأة ومشاركتها الرجل فى شتى ميادين الدعوة واحتمالها الأعباء فى الحروب نظرة غايرت نظرة العرب إليها فى الجاهلية وسمت بها حتى دفعت الرسول إلى مبايعتها لتشارك الرجل حتى فى هذه الميزة التى كان يظن أنها مقتصرة عليه فجعلها بذلك فى منزلة الرجل فى نظرة الإسلام إليها على أنها جزء أساسى من المجتمع البشرى — قال تعالى فى قبول إيمان النساء : (يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٤
(٢) ابن حجر جـ ٨ ص ٦٧

فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) [1] فللنساء بَيْعَةٌ فى القرآن كما للرجال. وتقول عائشة : إن المؤمنات كن إذا هاجرن إلى الرسول امتحن بقول الله تعالى : وإذا أقررن ذلك كان يقول لهن ﷺ : « انطلقكن فقد بايعتكن » [2].

وقد كانت صيغة المذكر هى التى تطلق على المجتمع الإسلامى فاعترضت على ذلك النساء قائلة : « أسلمنا كما أسلمتم وفعلنا كما فعلتم فتذكرون فى القرآن ولا نذكر » [3] وكان النــاس يسمون المسلمين فلما هاجروا سموا المؤمنين فأنزل الله : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) [4] إلى آخر الآية التى تقر المساواة بين المرأة والرجل . ويتضح من ذلك أن المرأة كانت ترى منزلتها كمنزلة الرجل سواء بسواء وأن الدين والمسلمين لم يضنوا أو يجادلوا فى أمر تلك المساواة وقد حملت المرأة مسئوليتها كاملة فأسلمت مع من أسلم ، وجاهدت مع من جاهد فى سبيل الله ولإعلاء كلمته ، فانتظمت فى صفوف المقاتلين مشجعة ، مستبسلة، مواسية .

ولم يمنع الحجاب المرأة من هذا كله ، بل كانت تجاهد وتحج وتحارب وتخرج طلباً للعلم ونشره فتتردد على المحافل والأسواق ، تخطب وتبحث وتجادل ، ولهـا فضل كبير فى حفظ ورواية أحاديث الرسول وسنته . وكتب التاريخ والحديث مليئة بذكر نساء عالمـات جليلات تبوأن مراكز اجتماعية وعلمية رفيعة يستشيرهن العلماء والفقهاء فى كثير من أمور الدين .

وممن تفــوقن على الرجال فى الشعر الخنساء بنت عمرو الشريد وليـلى الأخيلية — وهما مخضرمتان — وقيل فيهما : « وكانت الخنساء وليلى بائنتين فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول ورب امرأة تتقدم فى صناعة وقل ما يكون ذلك » [5] .

ويظهر لنا أن الخنساء كانت ثقة كبيرة فى الألفاظ والاصطلاحات والتعابير يرجع إليها عندما تقع اختلافات بذلك [6] . ولعلنا فى غنى عن مدح شعرها « وأجمع

(١) سورة الممتحنة آية ١٢
(٢) صحيح مسلم ج ٦ ص ٢٩
(٣) ابن سعد ج ٨ ص ١٤٥
(٤) سوره الأحزاب آية ٣٥
(٥) المبرد ص ٧٣٦
(٦) نفس المصدر ص ١٢٩ ، ١٦٣ ، ٤٣٢ ، ٤٥٦

أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها »[1]. وكانت بعد أن أسلمت يعجب الرسول بشعرها وكان يستنشدها ويقول لها: « هيه ياخناس ويوحى بيده»[2]

ومن جيد شعر الخنساء رثاؤها أخاها معاوية :

أريقى من دموعك واستفيقى ... وصبراً إن أطقت، ولن تطيقى
وقولى إن خير بنى سليم ... وفارسها بصحراء الحقيق
ألا هل ترْجعَنَّ لنا الليالى ... وأيام لنا بلوى الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم ... إذا حضروا فتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو ... على أدماء كالجمل الفنيق
فنبكيه فقد أودى حميدا ... أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسى ... لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً ... من النعلين والرأس الحليق[3]

ورثاؤها أخاها صخراً أشهر من أن يذكر، ومنه :

وإن صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتوا لنحار
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار[4]

وليلى الأخيلية لم تكن أدنى فصاحة ولا أقل بلاغة من الخنساء، ولها رثاء مشهور لتوبة بن الحمير الخفاجى الذى كان محباً لها وقال فيها كثيراً من الشعر، وقتله بنو عوف ابن عقيل ومن أجود قولها :

أعين ألا فابكى على ابن حمير ... بدمع كفيض الجدول المتفجر[5]

ولا عجب أن نرى الآن بعض النساء المثقفات يجعلن من مجالسهن أندية وحلقات أدبية يقصدها الشعراء ويتردد إليها الأدباء . فالواقع أن للمرأة العربية جهداً محموداً فى نشر الثقافة وتشجيعها، وأبرزهن سكينة بنت الحسين التى كان لها حلقة أدبية يؤمها

(١) ابن حجر ج ٨ ص ٦٧
(٢) نفس ج ٨ ص ٦٦
(٣) المبرد ص ٧٤٠—٧٤١
(٤) نفس المصدر ٧٣٧
(٥) نفس المصدر ص ٧٣٢

كثير من العلماء والأدباء من كل صوب وحدب للمذاكرة والنقد واستماع الشعر[1] وفى كتب الأدب قصص كثيرة تروى عما كان لها من أثر فى توجيه الحياة الأدبية .

ومن أمثلة ذلك أنه تمنت بعض النسوة أن تسمع شعر عمر بن أبى ربيعة ومجلسه وحديثه ، وهو الذى اشتهر بالظرف الساحر والغزل العذب الرقيق، ولم يكن لهن حيلة إلا الالتجاء إلى سكينة بنت الحسين التى حققت رغبتهن وأرسلت إلى عمر رسولا فحضر وحدثهن « حتى وافى الفجر وحان انصرافهن »[2] .

رأينا كيف أن المرأة المسلمة اقتحمت ميادين العلم كلها ، وبرزت فى كثير من نواحيها . فالأدب والشعر والخطابة نشأت بالسليقة عندها والحماسة الحربية امتزجت بدمها العربى . ولقد برزت أيضاً فى العلوم الدينية فروت أمهات المؤمنين كثيراً من أحاديث الرسول ، وسنته وكن مرجعاً موثوقاً به فى أمور الدين ، خاصة السيدة عائشة التى سيأتى الكلام عنها .

ولم تساو المرأة بعد ذلك الرجل مساواة حقيقية إلا فى أمور الدين وخاصة فى المجتمعات الصوفية؛ فكان مقامها لا يقل عن مقام الرجل، بل إنها كانت تمنح مهابة القداسة كما تمنح هذه المهابة للرجال ، لذلك نلمس وحدة تامة بين أصحاب الله من النساء والرجال .

ولقد اختار المتصوفون رابعة العدوية ، المتوفاة سنة ١٨٥ هـ كممثلة لمرامى الصوفية ونزعاتها ، وخضعوا لأماناتها القدسية . وكان لرابعة تلامذة عديدون تستقبلهم فى بيتها ليلا ونهاراً فيعملون بنصائحها وتلهمهم من قوة روحها ، على أن تلامذتها من الرجال كانوا أكثر من النساء .

«وقد تكون رابعة العدوية أولى من هتفت فى رياض الصوفية بنغمات الحب شعراً ونثراً . فالسيدة رابعة هى السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف الإسلامى ، وهى التى تركت فى الآثار الباقية نفثات صادقة فى التعبير عن محبتها وعن

(١) الأغانى جـ ٢ ص ١٢٧ (٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٣٦

حزنها . وإن الذى فاض به الأدب الصوفى بعد ذلك من شعر ونثر ، فى هذين البابين لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية أمام العاشقين والمحزونين فى الإسلام »[1] .

ومن العدل أن نقر بعد هـذا العرض السريع أن الإسلام أنصف المرأة كثيراً وأعطاها حقوقاً وافرة وفتح لهـا أبواب الحياة كلها وبرزت فى جميع ميادين الحيـاة كما رأينا .

وما جريمة الإسلام إذا تخاذلت هى والرجل فيما بعد .

(١) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمـة العربية) مادة تصوف تعليق الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا .

الباب الثاني

السيدة عائشة منذ ولدت إلى أن تزوجت :

للبيئة تأثيرها الواضح على الإنسان ، فهى تطبعه بطابعها إلى درجة كبيرة ، كما أن لعنصر الوراثة أثره فى تكوين الخلق والمزاج . ولا يعنينا هنا البحث فى أيّهما أكثر أثراً فى حياة الإنسان ، إلا أن الواقع — كما يرى علماء النفس— أنهما يسيران معاً فى تكوين الفرد .

ولم تكن البيئة العربية قبل أن يأتى الإسلام إلا بيئة ينتابها التبلبل والاضطراب، ويعوزها الاستقرار حتى جاء الإسلام بقواعده ونظمه ، فخلق طرازاً جديداً من الخلق، كان من نتيجته أن انقلب العربى الفردى والأنانى إلى عربى يشعر بالتضامن الاجتماعى، ويقدس مبدأ لا يمت إلى الفرد أو القبيلة بسبب .

ولم تكن بيئة عائشة فى الإسلام لتختلف فى كثير أو قليل عن بيئة غيرها من المسلمين ، ولكن بيئة أبيها قبل الإسلام هى التى تعنينا هنا . على أن هذه البيئة ليست معروفة تماماً ، بل يكتنفها الغموض ، إذ قلما عنى المؤرخون فى بحث أبى بكر إلا بعد أن أسلم ، وتكون بالتالى معلوماتنا عن عائشة فى أول نشأتها قليلة .

ينتسب أبو بكر إلى قبيلة تيم من أفخاذ قريش ، وهو ابن أبى قحافة بن عامر ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى [1] . وكان من نصيب

---

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٩
وكان اسم أبى بكر عتيق لأنه لم يكن يعيش لأمه ولد فندرت إن عاش لها ولد تسميه عتيقاً أى الذى أعتق من الموت . وكان يسمى عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الله . وقيل سمى عتيقاً لأن الرسول قال له حين أسلم أنت عتيق من النار — ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٦
وأما لقب الصديق فذلك مانعته به الرسول عندما كان يحدثه عليه السلام عن الاسراء . ابن هشام جـ ٢ ص ٤٠

تيم بين أفخاذ قريش تسوية الدية أو الغرم حين حدوث قتل أو جرم. ولا أدل على منزلة تيم بين قبائل قريش من اتخاذ دار أحدهم مثابة كونوا فيه حلف الفضول فى دار عبد الله بن جدعان [1]. ويصف المؤرخون تيماً بالشجاعة والكرم والوفاء والذود عن الكرامة. ومن ثم كان إسناد هذه الوظيفة لها من باب إعطاء القوس باريها، لما تحتاجه من نقاء الضمير وحسن التبصر فى الأمور، وزادهم نفاذاً اشتغالهم بالتجارة وما تتطلبه من حسن المعاملة وسعة الأفق وشدة الأمانة. ولم تكن معاملتهم للناس هى وحدها التى تسترعى النظر، ولكنهم اشتهروا بحسن معاملتهم لنسائهم، وشدة غيرتهم عليهن [2]، كما عرفت قبيلة تيم بالكرم [3].

وقد عرف أبو بكر قبل الإسلام بصدقه وأمانته، ومن ثم فقد احتل منزلة كبيرة فى نفوس العرب، فأكبروه وأعزوه « وكان أبو بكر رجلا مألفاً — كذا — لقومه محبباً سهلا. وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف. وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه » [4].

ولم تكن مكانته فى الإسلام لتقل عن ذلك بل كانت أعلى وأكبر فهو رابع من أسلم: وقد ورد قوله عليه السلام: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه.» [5] ودفعه إيمانه الشديد بالدين الجديد إلى أن يدعو له ويبشر فيه فدخل الإسلام بدعوته عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وغيرهم [6] كما تحمل من أجل عطفه على المسلمين وخاصة الضعفاء

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٤١ — اليعقوبى جـ ٢ ص ١٦ الأغانى جـ ١٦ ص ٦٦، ٧٠
(٢) الأغانى جـ ١ ص ٨٠ (٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ٣، ٤
(٤) ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٧ (٥) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٦٩
(٦) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٦٧، ٢٦٨

منهم كثيراً من العنت والإرهاق، وبذل من أجلهم كثيراً من المال ، فقد أعتق بلالا وغيره ولقد ذكر ذلك الرسول : « ما نفعنى مال قط ما نفعنا مال أبى بكر ، قال فبكى أبو بكر، وقال: يارسول الله هل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله ؟ »[1]. وقد عانى أبو بكر كثيراً فى الدفاع عن الدين ورد الأذى عن الرسول وآثر البقاء إلى جانبه ، حيث هاجر المسلمون هجرتهم الأولى إلى الحبشة، وشاركه الضرر والاضطهاد ، ولم يغادر مكة إلا حيث هاجر منها فكان (ثانى اثنين إذ هما فى الغار)[2] وكان أنيسه فى الكرب والغم إذ قال : « أبو بكر صاحبى ومؤنسى فى الغار، سدوا كل خوخة فى المسجد غير خوخة أبى بكر»[3] .

ذلك هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه أبو السيدة عائشة ، ولا شك أنها أخذت عنه كثيراً من طباعها وأخلاقها . أما تأثير أمها أم رومان فإننا لا نعرف عنها شيئاً كثيراً . وكانت تدعى زينب أو دعدا . وقد اختلف فى نسبها كما اختلف فى اسمها غير أن المتفق عليه أنها من كنانة .

كانت أم رومان قبل زواجها بأبى بكر زوجاً لصديقه وحليفه عبد الله بن الحارث ابن سخبرى الأزدى ، وقد خلفت منه ابنه الطفيل . ثم توفى عبد الله بمكة فتزوجها أبو بكر فولدت له عبد الرحمن وعائشة .

لقد كانت أم رومان من المسلمات الأول فى مكة وبايعت الرسول وهاجرت إلى المدينة مع أهله وأهل أبى بكر ، ومما يذكر عن أم رومان أنها كانت امرأة صالحة ذكية جميلة ويروى عن الرسول عليه السلام أنه قال : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان »[4] .

وقد اختلف فى سنة وفاة أم رومان فقيل إنها توفيت فى عهد النبى بالمدينة وقيل إنها عاشت إلى زمن عثمان .

(١) ابن ماجه جـ ١ ص ١٠
(٢) سورة التوبة آية ٤٠
(٣) السيوطى — جـ ١ ص ٥
(٤) ابن سعد جـ ٨ ص ٢٠٣

تلك هى بيئة عائشة وقبيلتها وذلك هو بيتها الذى ولدت فيه وترعرعت ، ثم انتقلت إلى بيت محمد رسول الله الذى جعل منها دعامة كبرى من دعائم الإسلام ومصدراً وثيقاً للأحاديث النبوية والأحكام الشرعية ، وشخصية نسائية فذة فى تاريخ البشر.

ولدت عائشة فى مكة فى السنة الرابعة من النبوة ويقال فى الخامسة(١) وهى أصغر من فاطمة بنت الرسول بثمانى سنين(٢). وأسلمت مع أختها أسماء وهما ، يومئذ صغيرتان وذلك بعد أن أسلم قبلها ثمانية عشرة من العرب(٣) وتعد بذلك من المسلمين الأولين .

وتولى تربية عائشة جماعة من بنى مخزوم ، كما كانت العادة فى الجزيرة العربية فنشأت فصيحة اللسان قوية البيان تحفظ كثيراً من أشعار العرب ، كما كانت تنشد الشعر . وقد أكسبتها حياة البادية كثيراً من صفات الشجاعة والجرأة والمروءة والكرم وغيرها من الصفات التى عرف بها عرب الصحراء . كما كان لهذه الصفات أثر كبير فى حياتها الطويلة الحافلة بجلائل الأعمال فى الدين والعلم والسياسة والاجتماع فى حياة الرسول وفى عصر الخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية .

ولم تكن عائشة أولى زوجات الرسول ؛ فقد تزوج قبلها من خديجة بنت خويلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشية الأسدية(٤) . وأمها فاطمة بنت زائدة التى يرجع نسبها إلى فهر بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر ابن لؤى بن غالب(٥). كانت خديجة تدعى فى الجاهلية الطاهرة وكانت تكنى أم هند .

ذكرت خديجة قبل زواجها لابن عمها ورقة بن نوفل(٦) ولكن لم يتم بينهما زواج وتجمع أكثر المصادر أنها تزوجت من أبى هالة بن زرارة بن النباش بن عدى التميمى

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٤ ، ابن حجر جـ ٨ ص ١٣٩

(٢) الذهبي ص ١٧ (٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٧١

(٤) ابن سعد جـ ٨ ص ٧ . ابن عبد البر جـ ١ ص ١٥ ، ابن الأثير أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٣٤ ، ابن حجر جـ ٨ ص ٦٠

(٥) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠١ — ابن سعد جـ ٨ ص ٨ — ابن الأثير أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٣٤

(٦) ابن سعد جـ ٨ ص ٨ — ابن حجر جـ ٨ ص ٦٠

أولا ثم خلف عليها عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ثم تزوجها الرسول [١] وهنالك رواية أخرى تقول بأنها تزوجت من عتيق بن عابد بن عبد الله أولا ، ثم خلف عليها أبو هالة [٢] .

وللسيدة خديجة شخصية فذة تتجلى فيها ميزات المرأة المتعلمة الحديثة إذ كانت تشتغل بالتجارة ، وتشرف عليها بنفسها الحرة الطليقة ، فأجازت لها حقوقاً مشروعة ، لم تكن مألوفة فى ذلك الحين ، وأعجبت بمحمد فتزوجت به وكان الزوج المخلص الوفى ، والصديق الأمين .

كان الرسول عندما تزوج خديجة يافعاً فى مقتبل العمر مفعماً بالحياة والنشاط وكانت قد تجاوزت مرحلة الشباب . فكان هو فى الخامسة والعشرين على حين كانت هى فى الأربعين .

كان زواج الرسول بخديجة من أكبر العوامل التى سهلت له سبيل الحياة والنجاح فيما بعد ، فانصرف لنشر الدين الحنيف مؤيداً رسالته الكبرى ، وخديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه [٣] فتذكر المصادر : « مكث رسول الله ﷺ وخديجة يصليان سراً ماشاء الله » [٤] .

وكان الرسول يحترمها ويشاركها الرأى فى جميع أموره « وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها » [٥] وكان للسيدة خديجة منزلة سامية فى نفس الرسول إذ قال : « خديجة خير نساء العالمين » [٦] ويقول أيضاً : « خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم أفضل نساء أهل الجنة » [٧] ومما زاد

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ — ابن سعد ج ٨ ص ٨ — ابن الأثير أسد الغابة ج ٥ ص ٤٣٤ ابن حجر ج ٨ ص ٦٠

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٣ — ابن الأثير — أسد الغابة ج ٥ ص ٤٣٤ ابن حجر ج ٨ ص ٦٠

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٥٧ ، (ولكن فى ابن الأثير . أسد الغابة ج ٥ ص ٤٣٧ (بما جاء به)

(٤) ابن سعد ج ٨ ص ١٠ (٥) ابن هشام ج ٣ ص ٥٧

(٦) البلاذرى الانساب ج ١ ص ١٥٣

(٧) ابن الأثير — أسد الغابة — ج ٥ ص ٤٣٧

حب الرسول لها أنها كانت الزوجة الوحيدة التى ولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم إلا إبراهيم [1] . ولا يعزب عن أذهاننا حب الرسول لابنته فاطمة ، ولولديها الحسن والحسين .

لهذا الزواج أهمية كبرى فى حياة الرسول وفى تاريخ الإسلام عامة ، فهو موضوع بحث وجدل عند علماء الغرب ، فمنهم من جعل سبب هذا الزواج مادياً فقط ، ومنهم من استطاع أن يفرق بين السبب الجوهرى والسبب العرضى ؛ فهو لا يعدو مانقله Stobart[2] عن الأستاذ ميور : « أن ثروة خديجة رفعت محمداً إلى مستوى زعماء قبيلته ، وأغنته عن رعاية الغنم إذ تفرغ لنشر رسالته ، وذلك أن الرسول لم يتمتع بتلك الثروة ، ولم يتلذذ بها ، بل قضى حياته فقيراً . ويروى أنه مات ودرعه مرهون ولعله أنفق القسم الأكبر من هذا المال فى سبيل دعوته ، ولا سيا عندما حاصرته قريش ، وضيقت عليه وعلى أصحابه ، وزواج أساسه المادة لا يمت إلى السعادة بشىء فنحن نعلم أن الرسول كان سعيداً مطمئناً خلال السنين الطوال التى قضاها مع زوجته خديجة بالرغم من اضطهاد قريش وإيذائها له ، وطالما حن إليها بعد وفاتها وذكرها بالخير وعرفان الجميل » .

ونحن نؤيد مايقوله البعض إن زواج الرسول بخديجة كان فاتحة حياة زوجية سعيدة ، إذ كان محمد مثال الوفاء بالرغم من الفرق الكبير بينهما فى السن [3] إلا أن الرسول كان فى عصر شاع فيه تعدد الزوجات سواء بين الملوك والأمراء ومن سبقه من الأنبياء ، ولكنه لم يجرح قلب خديجة ولم يثر غيرتها بزواجه من امرأة فى حياتها [4] .

ولقد وجد من رد التهم الباطلة عن الرسول ، وإننى أفضل أن ينطق بذلك لسان

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٣ — ابن سعد ج ٨ ص ١١ ابن حجر ج ٨ ص ٦٠
(٢) Islam and Its Founder p. 57.
(٣) Scholl: L'Islam et Son Fondateur p. 82.
(٤) Stobart: Islam and Its Founder p. 124.

أعجمى لا يربطه بالإسلام والعروبة شعور أو غرض ، بل واجب الدفاع عن الحقيقة المجردة ، ويقول الأستاذ Lane-poole [1] لو صح ما نسب البعض من أن وفاء الرسول لخديجة لم يكن مبعثه الإخلاص فقط بل كان التهيب من مقامها المالى والاجتماعى، وخشية من مطالبتها إياه بالطلاق لرأينا محمداً يحمد الله على وفاتها ، ويرمى بذلك العبء الثقيل متهافتاً إلى حياة أكثر حرية ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك . إذاً ما كان هذا الوفاء إلا نتيجة حب وشكر لها .

توفيت السيدة خديجة بعد أن أدت واجبها نحو الرسول ، فهى أول من آمن به، وشجعه على تلقى دعوته ونشرها ، فلا ريب أن نرى الرسول يحزن عليها حزناً عظيماً ، وكانت وفاتها بعد وفاة عمه أبى طالب بمدة قصيرة فسمى هذا العام عام الحزن ، لشدة حزنه وجزعه . وبوفاتها تتابعت عليه المصائب وساورته الهموم [2] .

ويقول الأستاذ ميور [3] قد أحدث فقد خديجة فراغاً عظيماً ، ومع أن النبى تزوج بعدها أكثر من واحدة ، ولكن واحدة منهن لم تستطع أن تفوقها إخلاصاً وفضيلة ووفاء .

ولا نعلم شيئاً كثيراً عن طفولة عائشة ولكن تبتدىء معرفتنا لها عندما خطبها الرسول محمد، وكان لها من العمر ست سنوات . وهنا نتساءل : هل كان للرسول رغبة فى عائشة قبل زواجه بها ؟ .

ذكرنا من قبل أن أبا بكر كان من الأربعة الأول الذين آمنوا بمحمد ، وأخلصوا له ، فمن الطبيعى أن الرسول كان يعرف عائشة منذ طفولتها فقد عرف عنه أنه كان يختلف إلى بيت أبى بكر ، منذ أسلم ، إلى أن هاجر معه فى السنة الثالثة عشرة من

---

(١) Studies in a Mosque p. 79.

(٢) تجمع الروايات تقريباً على أن خديجة توفيت فى عشرة من شهر رمضان أى قبل الهجرة بثلاث سنين وذلك قبل أن تفرض الصلاة على الجنائز وكان لها من العمر خمس وستون سنة ونزل الرسول بحفرتها ودفنت بالحجون . ابن سعد جـ ٨ ص ١١ ابن عساكر جـ ١ ص ٣٠٢ — ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٣٩ . ابن حجر جـ ٨ ص ٦٢ .

(٣) The Life of Mohamet and the History of Islam. Vol. II, p. 194.

البعث [1] . ولم يكن له عنــدئذ أية فكرة فى زواجه بها لأن السيدة خديجــة كانت لا تزال على قيــد الحياة ، ولم يرغب الرسول فى الزواج من غير خديجة فى حياتهــا . أضف إلى ذلك صغر سن عائشة مما لا يدع مجالا للشك فى أن الرسول لم يكن يفكر فى الزواج منها .

وكان محمد يعطف على عائشــة عطف الأب على ابنته ، وهــذا أمر طبيعى ناتج عن علاقته بأبى بكر ، إذ كان يتردد بعد وفاة خديجة على بيت أبى بكر ، ويوصى أمها بها قائلا : « يا أم رومان استوصى بعائشة خيراً واحفظينى فيها » [2] فكان ذلك يعلى منزلة عائشة عند أهلها ، وعنــدما كان يتردد كعادته على بيت أبى بكر دخل ووجد عائشة مستترة بباب الدار تبكى بكاء شديداً فسألها عن ذلك فشكت له أمها فدمعت عينا الرسول ودخل على أم رومان وقال لها : « يا أم رومان ألم أوصك بعائشة أن تحفظينى فيها ، فقــالت يا رسول الله إنها بلغت الصديق عنى وأغضبته علينا ، فقال النبى ﷺ وإن فعلت قالت أم رومان لا جرم لا سوءتها » [3] .

هذه علاقة الرسول بعائشة كانت كعلاقة الأب ببنيه حتى كانت وفاة خديجة ، وحزن عليها النبى حزناً شديداً كما تقدم ، فبعث الله جبريل للرسول قائلا « يا رسول الله هذه تذهب بعض حزنك وإن فى هذه خلفاً من خديجة » [4] .

ونلاحظ أن الظروف كانت مساعدة على زواج الرسول من عائشة وهو لم يفكر فيها قبل أن اقترحت عليه، إذ كان خلال تردده على بيت أبى بكر فى حالة نفسية يسودها الحزن على وفاة خديجة « وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى خشى عليه حتى تزوج عائشة » [5] وكان يلاحظ فى عائشــة على صغر سنها شيئاً من الذكاء والنباهة والطفولة البريئــة ، فكان يعجب بها ، ويرى فيها ما يلائم طباعه ، وترتاح نفسه إليها لأنه كان يشعر بأنه قد كتب له الزواج بها ، والعيش معها ، وأنها ستكون

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٤ (٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٤
(٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٤ (٤) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٤
(٥) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤١

شريكة حياته التى سوف تساعده على تحقيق رسالته وأن فى بيتها وفى علو منزلة أبيها الذى أدبها فأحسن تأديبها حافزاً له على تحقيق أمنيته الشريفة .

وكانت عائشة تفخر فيما بعد على سائر أزواج الرسول ، وتعتز بأن الله سبحانه وتعالى أوصى الرسول بها ، وأتاه جبريل بصورتها فى خرقة من حرير خضراء قائلا له : إنها زوجته فى الدنيا والآخرة . وكانت عائشة تردد دائماً أن رسول الله قال لها « أريتك فى المنام مرتين ، أرى رجلا يحملك فى سرقة من حرير فيقول هذه امرأتك فاكشف عنها فإذا هى أنت فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه »[1] .

ليس لدينا أى نص صريح يبين لنا رغبة زواج الرسول بعائشة، سوى هذا الحديث الذى أثر عنه صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرف الوقت الذى قال فيه الرسول هذا الحديث فمن المعقول إذن أن يكون ذلك قد حدث بعد وفاة السيدة خديجة ومحمد لم يفكر بالزواج إلا بعد فقدانها بالرغم من الفرق الكبير بينهما فى السن[2] ، ولكن بعد أن قضت نحبها، وتتابعت على الرسول بوفاتها المصائب والأحزان، جاءت خولة بنت حكيم بن الأوقص ، امرأة عثمان بن مظعون من مكة واقترحت على الرسول الزواج إما بكراً أو ثيباً فسألها : من قصدها بذلك . فقالت البكر ابنة أحب خلق الله إليه عائشة بنت أبى بكر ، والثيب سودة بنت زمعة . وهنا يقع الالتباس فيما إذا كان تزوج عائشة بعد خديجة مباشرة ، أو سودة . ونعالج هذا بعد سرد الروايتين .

عرضت خولة على الرسول تزويجه ، فقبل وأرسلها تسعى بذلك ، فدخلت على أم رومان وأخبرتها بسبب مجيئها ، ولكن أم رومان لم تبت فى هذا الأمر . فانتظرت قدوم أبى بكر ، وأخبرته خولة أن الرسول أرسلها لتخطب عائشة له ؛ وقالت : إن الله قد أحل على بيت أبى بكر كثيراً من الخير والبركة فأجابها أن عائشة

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٤ — (المسند جـ ٦ ص ٤١ — الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٤١٣ ، الذهبى ص ١٩ — مع تغيير فى لفظ النص .)

(٢) كان محمد فى الخامسة والعشرين بينما كانت خديجة فى الأربعين ابن سعد جـ ٨ ص ١٠ ، البلاذرى الانساب جـ ١ ص ١٤٨

لا تصلح للرسول ، وهى ابنة أخيه . فرجعت خولة إلى محمد وأخبرته فقال : إن أبا بكر أخوه فى الإسلام ، وابنته تحل للرسول .

وكانت عائشة قد ذكرت لجبير بن مطعم بن عدى ، فلما خطبها الرسول من أبى بكر سأله أن يتمهل ، ريثما يفسخ خطبتها من جبير ، فلما تم ذلك تزوجها الرسول[1] .

ويقول ابن سعد : « جاءت خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمية امرأة عثمان ابن مظعون إلى رسول الله ، فقالت : « يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ، فقال : أجل ، كانت أم العيال ، وربة البيت . قالت : أفلا أخطب عليك ؟ قال : بلى ، فإنكن معشر النساء أرفق بذلك فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بنى عامر بن لؤى ، وخطبت عليه عائشة بنت أبى بكر فتزوجها فبنى بسودة بمكة وعائشة يومئذ بنت ست سنين ، حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة[2] .

فمن سودة هذه ؟ هى « بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر ابن مالك بن حل ابن عامر بن لؤى وأمها الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد[3] وهى قرشية عامرية[4] .

كانت سودة من الأنصار ، الذين آمنوا بالرسول ، وأسلمت هى مع زوجها السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حل بن عامر ابن لؤى[5] فهاجرت معه إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، فلم يلبثا هنالك طويلا بل رجعا إلى مكة فتوفى زوجها ، ثم تزوجها الرسول[6] .

وبعد أن عرضت خولة الزواج على الرسول بسودة ، وأخبرتها بذلك طلبت

---

(١) المسند جـ ٦ ص ٢١٠ ، ابن سعد جـ ٨ ص ٤٠ ، ابن عساكر جـ ١ ص ٣٠٣ ابن حجر جـ ٨ ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٩

(٣) ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٢ ، ابن سعد جـ ٨ ص ٣٥

(٤) ابن حجر جـ ٨ ص ١١٧

(٥) ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٢ . ابن سعد جـ ٨ ص ٣٦

(٦) ابن هشام جـ ٢ ص ٧ و ٨ و جـ ٤ ص ١١ . ابن سعد جـ ٨ ص ٣٦ ابن حجر جـ ٨ ص ١١٧

سودة منها أن ترفع الأمر لأبيها ففعلت فسأل الشيخ الكبير الذى كان قد تخلف عن الحج ابنته إذا كانت ترضى بذلك ، فأجابت . ثم دعا ابنه عبد بن زمعة الذى كان عائداً من الحج وتم الزواج [1] .

لم يكن للرسول أية معرفة سابقة بسودة ولكن علو مكانته ، وصدق طويته ، وحسن سيرته و بطولته ، كل ذلك مما ملك قلبها ، وحدث وهى ما زالت فى عصمة السكران بن عمرو أنها رأت الرسول فى المنام ، يدنو إليها ، فقال لها زوجها عندما قصت له ذلك « وأبيك لأن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت ، وتزوجين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت حجراً وستراً . . . ثم رأت فى المنام ليلة أخرى أن قمراً انقض عليها من السماء وهى مضطجعة فأخبرت زوجها فقال : وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت وتزوجين من بعدى ، فاشتكى السكران من يومه ذلك فلم يلبث إلا قليلا حتى مات وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . » [2]

حقق الله آمال سودة وأصدقها أحلامها ، فتزوجت من محمد . وتتفق المصادر على أن خولة خطبت عائشة للرسول ، ثم خطبت سودة من بعدها ، وقالت عائشة فى كلامها عن سودة : إنها كانت أول امرأة تزوجها بعدها [3] . وأما بناؤه بهما فاختلف فيمن بدأ بنكاحها منهن بعد خديجة ، فقال بعضهم : كانت التى بدأ بنكاحها بعد خديجة قبل غيرها عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وقال بعضهم : بل كانت سودة [4] .

أما المصادر الأخرى فتكاد تجمع على أن الرسول بنى بسودة فى مكة ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين ، ثم بنى بعائشة عند قدومه المدينة [5] .

---

(١) المسند جـ ٦ ص ٢١١ . ابن عساكر جـ ١ ص ٣٠٣ . ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٢ — ٥٠٣ لم يكن عبد بن زمعة راضياً على هذا الزوج لأنه كان مشركا فجعل يحثو التراب على رأسه يوم زواج أخته لمحمد .
(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٨ — ٣٩
(٣) المسند جـ ٦ ص ٦٨
(٤) الطبرى — ابن جرير — التاريخ — جـ ٣ ص ٤١١
(٥) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٩ ، المسعودى جـ ٤ ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ابن حجر جـ ٨ ص ١١٧

تزوج الرسول إذن بعائشة ، وسودة ، ولكن بناءه بسودة كان أولا بمكة ، ثم بنى بعائشة ثانياً عند قدومه المدينة .

تختلف المصادر فى سنة زواج الرسول بعائشة ، فالبعض تعين ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، وذلك سنة عشر من النبوة ، وهى ابنة ست سنين ، وقيل : كانت بنت سبع سنين وذلك قبل الهجرة بسنتين وكان زواجه بها بمكة ، و بنى بها فى ذى القعدة ، وذلك لثمانية أشهر بعد قدومه إلى المدينة [1] . غير أن معظم المصادر تجمع على أن ذلك كان فى شوال من السنة العاشرة للنبوة [2] . وقد أثر عنها أنها كانت تفضل تزويج النساء فى شهر شوال [3] ، وكانت تقول : « تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال ، وأدخلت عليه فى شوال فأى نسائه كان أحظى عنده منى » [4] .

وصفوة القول أن الرسول تزوج عائشة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين ، و بنى بها فى المدينة ، فى السنة الأولى من الهجرة ، وهى بنت تسع سنين [5] وذلك بمنزل أبي بكر بالسنح ، حيث كان دار أبى بكر ، وكانت عائشة أول وآخر بكر تزوجها ، وكان عمرها عند وفاة الرسول ثمانى عشرة سنة [6] .

---

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٩ ، ٤٠ — البلاذرى الانساب — جـ ١ ص ٦٤٨ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، المسعودى جـ ٤ ص ١٤٦ ، ابن عبد البر جـ ١ ص ٧٦٤ — ٧٦٥ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ٥٠٢ ، أبو الفدا جـ ١ ص ١٣٤ ، الطبرى — محب الدين — السمط الثمين ص ٣٣

(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٤ ، البلاذرى — الانساب — جـ ١ ص ٦٤٩ ، الطبرى ، ابن جرير التاريخ جـ ٢ ص ١١٨

(٣) البلاذرى — الانساب جـ ١ ص ٦٤٩ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ١١٨ الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٣٣ على أن العرب فى الجاهلية كانوا يكرهون الزواج فى شوال ويتطيرون منه ولكن أبطل هذا الاعتقاد بعد زواج عائشة فى شوال ابن قتيبة جـ ٤ ص ٧٢

(٤) المسند جـ ٦ ص ٥٤ (البلاذرى — الانساب — جـ ١ ص ٦٤٩ ، الذهبي ص ٤٧ ، الطبرى ، محب الدين ، السمط الثمين ص ٣٣ — مع تغيير فى لفظ النص)

(٥) ابن سعد جـ ٧ ص ٣٩ و ٤٠ و ٤١ — ابن قتيبة جـ ٤ ص ١ الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ١١٨ — ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٢

(٦) ابن سعد جـ ٨ ص ٤١ — الطبرى — ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٤١٤ ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٤ ، أبو الفدا جـ ١ ص ١٣٤

وللزواج عادات وتقاليد منذ القدم ، فعقود الزواج ودعوات الزفاف تختلف باختلاف البيئة والأشخاص ، فتتراوح بين الفخامة والبساطة ، بحسب مركز الشخص الاجتماعى والمادى .

وللزواج عند العرب يومان : يوم الأملاك — وهو يوم العقد — ويوم البناء — وهو يوم الدخول — ولربما تم الأمران معاً فى يوم واحد .

ولم يغير الرسول العادات المستحسنة الموجودة حينذاك ، والتى أقرها ، بل كان يعمل بها بنفسه . ولقد مر بنا خطبته لعائشة ، وتوسط خوله فى شأن ذلك لدى أم رومان وأبى بكر ، الذى طلب فيها أن تستدعى محمداً ، وكان مصمماً أن يزوجه بها .

ومن مراسيم الزواج : أن يدفع المهر للزوجة ، وهو مقدار من ذهب وفضة وماشية أو ما يساوى ذلك يتفق عليه من الجانبين ، ويختلف باختلاف نعمة العيش ، وبسطة الغنى .

ولم يساوم أبو بكر بمهر ابنته ، بل إنه اكتفى بالشرف الذى أحله عليه الرسول بمصاهرته إياه ، واكتفى بما قدمه وهو أربعمائة درهم[1] ، فخوراً راضياً مبتهجاً ، وبذلك تم عقد الزواج .

ولم تنحر جزر ولم تعد المطاعم ولم يسمع الغناء .

ولقد سئلت عائشة : كم كان صداق الرسول لأزواجه ؟ فقالت كان « اثنتى عشرة أوقية ونشا . قالت أتدرى ما النش ؟ قلت : لا ، قالت نصف أوقية فتلك خمسمائة درهم »[2] .

ومن ثم أصبح عدم المغالاة فى الصداق سنة من سنن الرسول — تبعه كثير من الصحابة فيما بعد — وتقوى من الله تعالى . وقال عمر بن الخطاب فى ذلك « لا تغلوا فى صدقات النساء فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة فى الدنيا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أولاكم بذلك ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية

(1) ابن هشام ج ٤ ص ٢٥٣ (2) [illegible] ص ٤٤

وهى ثمانون وأربعمائة درهم »[1] . وذلك أن الإسلام لم يضع حداً أقصى للمهور . وآية ذلك قوله تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً)[2] . وإن كان قد وضع حداً أدنى — ١٠ دراهم — وذلك تشجيعاً للفقراء على الزواج لئلا يضربوا عنه خوفاً من ثقله .

ويعتبر يوم البناء من أهم الأيام فى حياة العربى وأكثرها بهجة وسروراً ، حتى كان مضرب المثل عندهم ، إذ قال قائلهم : ياليلة ما ليلة العروس ، فكان يجتمع الأصحاب والخلان ، ويتبارى الفتيان ، بلعب الرماح ، وركوب الخيول ، ويظهر الكرم العربى فى أعلى ذروته فتذبح النياق والماشية ، وتمد الأطعمة المختلفة . أما النساء فتظهر على أتم وجه من الزينة والتفنن فى اللباس ، ويلهون ويغنون ، ويتخذ بعض النساء على عاتقهن زينة العروس فيمشطنها ، وتزينها بالحلى التى تملكها ، والتى تستعار من أهلها وأصحابها ، فيصبح مظهرها جذاباً خلاباً .

وهكذا يقضى الليل فى الغناء والطرب ويملأ كل والمرح .

أما يوم بناء عائشة فكان بسيطاً ، ممعناً فى البساطة ، وهادئاً كل الهدوء لا صخب فيه ولا نصب ، وليس فيه من الشكليات شىء . إذ لم يكن الغرض من الزواج شيئاً خارجاً عنه . وإنما كان هو المقصود لا ما يلابسه من مظاهر ، ولم يحضر يوم زواجها إلا القليل من الناس ، ومن خاصتهم فقط ، على الرغم من أن زواج الرسول بعائشة كان الأول بعد خديجة ، وكان من المعقول إذن أن يحوى شيئاً من الاحتفال به لمنزلتها ، ومنزلة أبيها عنده ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، تمشياً مع خلق السذاجة والبساطة.

ولننقل عن عائشة نفسها حديث بناء الرسول بها قالت :

بعد أن هاجر محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة خلف وراءه بناته وبنات أبى بكر وزوجته ، فأرسل زيد بن حارثة وغيره مع ما يحتاج إليه من دواب ودراهم ، أخذها

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١١٥ — ١١٦ (٢) سورة النساء آية ٢٠

من أبي بكر ، لكى يأتى ببناته ، كما أن أبا بكر أرسل يأمر ابنه عبد الله بأن يصطحب زوجته أم رومان ، وابنتيه عائشة وأسماء ، فوصلوا مكة ووجدوا طلحة بن عبيد الله على أهبة السفر بآل أبي بكر ، فخرجوا جميعاً يريدون المدينة . وبينما هم فى الطريق نفر بعير عائشة فذعرت أم رومان ، وقالت : « وابنتاه واعروساه »[1] . ثم وصلوا المدينة وكان الرسول يبنى المسجد ، وأبياتاً حوله ، أصبحت فيما بعد بيوت زوجاته ، منها بيت عائشة الذى جعل باب المسجد مواجهاً لبابها ، ونزلوا فى السفح فى بنى الحرث بن الخزرج .

جاء الرسول إلى بيت أبي بكر مع رجال ونساء من الأنصار . وكانت عندئذ عائشة مجممة الرأس ، تلعب مع البنات فى الأرجوحة ، فخرجت أم رومان تريدها فأنزلتها منها وأخذتها بيدها ، وهى لا تدرى ما تقصده أمها ، فقادتها إلى الباب وهى تنهج ومسحت وجهها بالماء وأدخلتها ، وكان الرسول جالساً على سرير فى بيتهم مع رجال ونساء من الأنصار . وقالت عائشة « فأجلستنى فى حجره . ثم قالت : هؤلاء أهلك . فبارك الله لك فيهم . وبارك لهم فيك . فوثب الرجال والنساء فخرجوا وبنى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتنا »[2] .

ويبدو لنا من ذلك بساطة يوم زفاف عائشة ، الذى ينطوى على الرضا والتفاهم والوئام ، فالتف حول العروسين الأهل والأصحاب مظهرين تمنياتهم الطيبة . وخرجوا دون أن يأكلوا من وليمة الزفاف ، لأنه لم يتوفر للعروسين من الطعام إلا ما أرسله سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى الرسول عندما يدور على نسائه ، وقدح من لبن . فشرب منه الرسول وناوله لعائشة فخفضت رأسها حياء . فانتهرتها إحدى [illegible] ثم أخذته عائشة من الرسول ، وشربت منه[3] وتقول عائشة ما نحرت على جزور ولا ذبحت علىّ شاة[4] .

(١) ابن سعد ج ٨ ص ٤٣ الذهبى ص ٣٢
(٢) المسند ج ٦ ص ٢١١ (الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٣٣ مع تغيير فى [illegible]
(٣) المسند ج ٦ ص ٤٥٠ ؛ الذهبى ص ٤٤
(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١١ ، الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٣٣

وأقامت عائشة في حجرة من بيت الرسول ، تعد نموذجاً لباقي الحجرات ، و بنيت هذه الحجرة من اللبن وسعف النخيل ، وأسدلت على فتحاتها المسوح المتخذة من الشعر ، وكان باب هذه الحجرة يطل على المسجد ، بحيث كان في استطاعة الرسول أن ينظر من خلاله فيرى الواقفين للصلاة ، و إلى الشمال من هذه الحجرة وجدت الحجرات الثمانية الأخرى ، سكنتها بعض زوجات الرسول . وكانت جميع أبواب الحجرات تطل على الفناء الفسيح ، الذى توسط ذلك البيت والذى أقيمت في طرفه الشمالى الغربى مظلة أهل الصفة . ولم يكن لهذه الحجرات أبواب على النحو المعروف الآن ، بل اتخذت الستائر من المسوح ، لتقوم مقام الأبواب ، كما رأينا في حجرة السيدة عائشة (١) .

ولم يكن أثاث بيت عائشة ليختلف في بساطته عن البناء ، وليس أدل على ذلك مما جاء عن عائشة من أن عمر دخل على الرسول و « كان راقداً ، وتحت رأسه وسادة من أدم محشوة ليفاً ، وليس بينها و بين الأرض إلا الحصير ، قالت : واقر في جنبه فلما رأى ذلك عمر ذرفت عيناه بالدموع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ياعمر ؟ قال يا رسول الله كسرى وقيصر عدوا الله يفرشان الديباج والحرير وأنت نبيه وصفيه ، ولبس بينك و بين الأرض إلا الحصير ، ووسادة محشوة ليفاً ، وعند رأسك أهبة فيها ريح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك عجلت لهم طيباتهم » (٢) . ونقول عائشة : إنه لم يكن لديهما إلا فراش واحد في بادىء الأمر ، ثم رزقا فراشاً آخر (٣)

ولم تكن بيوت أمهات المؤمنين لتضاء إلا من وهج أوراق النخيل التى تحرق وتقول عائشة : إنه كان يمر « هلال وهلال » (٤) ولم توقد فيهن النار .

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١١٩ ، ١٢٠
(٢) الطبرى محب الدين — السمط الثمين هامش ص ١٨٦
(٣) المسند ج ٦ ص ١٩١
(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٧١ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٤٢٣

وبيت هذا أثاثه ، وذاك بناؤه لم يكن أكل ساكنيه ليختلف عنهما في بساطته ، إذ كان أكل عائشة كأكل زوجات الرسول من البلح واللبن والتمر والماء [1] .

وتقول عائشة : كان يأتي « على آل محمد الشهر ما يختبزون خبزاً ، ولا يطبخون قدراً »[2] .

على أن هذه البيوت الصغيرة البسيطة كان يعمرها ما يخلعه الرسول عليها من بشاشته وإيناسه ورغبته في التسرية عن زوجاته ، من ذلك حين دخل أبو بكر بيت عائشة ، ورأى عندها جاريتين ، تغنيان بغناء بعاث فانتهرهما ، فما كان من الرسول إلا أن يأمره بالكف عن المغنيتين ، وفي ذلك سماح منه بالغناء[3] .

وكان الوحي ينزل على الرسول في بيت عائشة . وكانت تفخر بذلك قائلة : « إني لأفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأربع . . . . وما ينزل عليه القرآن منذ دخل علي إلا في بيتي »[4] . كما كانت مقر عبادة وزهد يصلي فيه الرسول النوافل[5] ، كما أن جبريل كان [illegible] له في حجرتها دون غيرها[6] .

ومضت عائشة حياتها في المدينة في بيتها الذي تزوجت فيه . ودفن فيه رسول الله ، ودفن إلى جانبه صاحباه أبو بكر وعمر ، وقد اشتراه معاوية منها في رواية . وابن الزبير في رواية على أن تقيم فيه طول حياتها[7] . وقد أمر الوليد بن عبد الملك بعد وفاة عائشة بإلحاق حجرات زوجات الرسول بالمسجد . وقال عطاء الخراساني : « فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم ! . قال عطاء : فسمعت

(١) المسند ج ٦ ص ٧١ — الطبري — ابن
(٢) نفس المصدر
(٣) الطبري . محب الدين — السمط الثمين ص ٤٨—٤٩
(٤) نفس المصدر ص ٤٢ ومن الآيات التي نزلت في بيت عائشة قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » سورة الأحزاب آية ٣٣
(٥) ابن سعد ج ٨ ص ١٤٤
(٦) نفس المصدر ج ٨ ص
(٧) نفس

يقول يومئذ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها — فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها يعني الدنيا »[1] .

وهكذا أصبح بيت عائشة بقبوره الثلاثة حرماً مقدساً عند المسلمين ، يلي الكعبة في التقديس .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١٢٠

الباب الثالث

الأول

السيدة عائشة بعد زواجها من الرسول

اسم السيدة عائشة . كنيتها . لقبها :

لفظة عائشة مأخوذة من العيش ، وكان الرسول أحياناً يناديها « ياعائش »[(١)] ، وكان هذا الاسم شائعاً بين العرب ، وعدد من كان يدعى بعائشة من الصحابة عشرة[(٢)] .

أنعم الله على عائشة بنعمه الكثيرة ، وفضلها على بقية نساء الرسول بميزات عديدة ، وكانت هي تشعر بذلك وتفخر عليهن ، ولكن الله سبحانه وتعالى شاء ألا يتم سعادتها ، فحرمها البنين والبنات ، وعائشة كغيرها من النساء كانت تتوق إلى الأولاد ، وتشعر بحنان وحب يتدفق من قلبها وصدرها ، ولا سيما بعد ما علمت من حب النبي لخديجة ، وخاصة لأنها كانت ربة البيت وأم العيال . عز ذلك على عائشة ، وتمنت أن تتخيل أن لها أولاداً ، وتكنى بهم أو بهن ، فأتت الرسول يوماً من الأيام ، وقالت له وهي حزينة : إن كل نسائه لهن كنى إلا هي ، فقال لها الرسول أن تكنى بابنها — وهو ابن أختها أسماء — عبد الله ، ومن ذلك الحين أصبحت تكنى بأم عبد الله[(٣)] . وقد كان

(١) المسند ج ٦ ص ٨٨ — ابن الأثير أسد الغابه ج ٥ ص ٥٠٣ العيني ج ١ ص ٤٥

(٢) العيني ج ١ ص ٤٥

(٣) ابن سعد ج ٨ ص ٤٣ و ٤٤ المسند ج ٦ ص ١٨٦ ، ابن الأثير — أسد الغابة ج ٥ ص ٥٠٢ ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠ وجاء في ابن حجر ج ٨ ص ٤٠ أن عائشة كانت تكنى بأم عبد الله لأنها ولدت من النبي ولدا ومات طفلا ثم يقول « ولا يثبت هذا » وتلك الرواية لايعتمد عليها لأن ابن حجر انفرد بها ولأنه نفسه شك بها ثم لأن الإجماع منعقد على أنها لم تلد قط . المسند ج ٦ ص ١٥١ ، البلاذري — الانساب ج ١ ص ٦٦٥ .

اختيار الرسول اسم ابن أختها لأنه يعلم أنها لم تحب أحداً قط كما أحبته[1] . وكانت غريزة الأمومة فيها قوية ، يتدفق الحنان من قلبها الصغير بغزارة ورقة ، فهى لم تتبن ابن أختها عبد الله، وشملته برعايتها وحبها ، طول أيام حياتها فحسب ، بل شملت كذلك القاسم ابن أخيها محمد وأخته ، بعد ما توفى أبوهما فى مصر ، وجاء عمهما عبد الرحمن ابن أبى بكر وأخذهما إليه ، ثم أرسلت عائشة فأخذتهما ، وقد غمرتهما بحنانها وعطفها إلى أن كبرا ، وردتهما ثانياً إلى عمهما عبد الرحمن[2] .

وكانت عائشة — كغيرها من أزواج النبى — تكنى بأم المؤمنين ، وجاء فى عمدة القارىء[3] إنهن سمين كذلك عن قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم)[4] وكانت عائشة تحب أن تدعى بلقب أم المؤمنين فقالت لامرأة عندما نادتها : يا أماه « أنا لست بأمك إنما أم رجالكم »[5] وقالت أيضاً « أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم »[6] ويروى أن ابن عباس قال لها « أم المؤمنين ما سميت أم المؤمنين إلا لتسعدى و إنه لاسمك قبل أن تولدى[7] وقال ابن عباس وهو يخاطب المسلمين « أمكم عائشة »[8] وكان لعائشة ألقاب كثيرة فهى إما صفات تتصف بها نعتها بها الناس ، أو لعلاقتها مع الرسول منها المبرأة[9] كما كانت تدعى الصادقة

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٩٣ .

(٢) نفس المصدر جـ ٢١ ص١٤، ١٥ ويقول القاسم « فما رأيت والدة قط ولا والداً أبر منها ثم كلمت عبد الرحمن أخوها قالت : ياأخى إنى لم أزل أراك معرضا عنى منذ قبضت هذين الصبيين منك والله ماقبضتهما تطاولا عليك ولاتهمة لك فيهما ولا لشىء تكرهه ولكنك كنت رجلا ذا نساء وكانا صبيين لايكفيان من أنفسهما شيئا فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرن به من قبيح أمر الصبيان فكنت ألطف لذلك وأحق بولايته فقد قويا على أنفسهما وشبا وعرفا مايأتيان فها هما هذان فضمهما إليك » .

(٣) العينى جـ ١ ص ٥٤ (٤) سورة الأحزاب آية ٦

(٥) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٦

(٦) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٤٤ — العينى جـ ١ ص ٤٦ — (مع بعض التغيير فى لفظ النص)

(٧) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٥٢

(٨) ابن عبد البر ص ٥٧٧

(٩) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٥ — ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٤

أو الصديقة بنت الصديق[١]، وذلك لصدق أحاديثها وأقوالها وروايتها . علم الناس حب الرسول لأبي بكر ، وبالتالى لعائشة فلا عجب إذن أن يطلق على عائشة لقب محبوبة رسول الله ، أو حبيبة رسول الله[٢] وكانت تدعى أيضاً حبيبة حبيب الله ، وكان مسروق إذا حدث عنها يقول « حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله »[٣] وألقابها هذه شفعت لها فى ساعات حرجة ، عندما كانت تحارب فى موقعة الجمل وأساء ذكرها أحد الرجال ، فوبخه عمار بن ياسر قائلا « أتؤذى حبيبة رسول الله »[٤] كما أنها كانت تدعى بالموفقة ، دعاها كذلك الرسول وهو يكلمها يوماً من الأيام .

وكانت السيدة عائشة بيضاء اللون حمراء الشعر وقد نعتها الرسول « بالشقراء » و « الحمراء »[٥] ويظهر أن غيره نعتها بذلك ، وهذا عندما دخل أحد الرجال على الرسول ومعه عائشة فسأل الرسول عن هذه الحمراء ، فقال له محمد صلى الله عليه وسلم : إنها عائشة بنت أبي بكر[٦] .

حب الرسول لعائشة ومعاملته لها :

لم تلق عائشة معاملة خاصة من زوجها أفضل بكثير مما كانت بقية الزوجات تلقاه منه ، لأنه كان عادلا فى معاملته ، مساوياً بين الجميع مقسماً أيامه وأوقاته بالعدل والقسطاس بين نسائه ويقدم لكل منهن مثل ما يقدمه للأخرى ، من لوازم البيت وحاجات الأسرة ، وأسباب المعيشة .

(١) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥ — نفس المصدر ج ٥ ص ٥٠٤ — ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠
(٢) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥ — نفس المصدر ج ٥ — ٥٠٣ ص ٥٠٤ — نفس المصدر ج ٨ ص ١٤٠
(٣) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥
(٤) البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٥٤ — الطبرى — محب الدين ، نسمط الثمين ص ٣٤
(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٥٠؛ ٥٥ — بلاذرى الأنساب ج ١ ص ٦٥٧
(٦) البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٥٧ وجاء فى سير النبلاء للذهبي ص ٥٠ أن لفظة الحمراء فى خطاب أهل الحجاز هى البيضاء بشقرة ، وهذا نادر فيهم .

وكان الرسول يحرص على أن يقسم أوقاته بالعدل بين نسائه جميعاً ، وكان يدور عليهن كل يوم إمرأة إمرأة إلى أن يصل إلى التى لها الدور « فيبيت عندها »[1] غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة إرضاء للرسول ، الذى كان يؤثر عائشة على سائر زوجاته فى كل ما له صلة بالقلب[2] فيقول عندما يقسم بين نسائه ويعدل : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك يعنى الحب فى القلب. »[3] فقد كان مولعاً بها أشد من ولعه بغيرها من نسائه يحبها حباً شديداً لصفات خاصة بهـا ، ففيها النضارة ، والشباب ، والذكاء ، وسرعة الخاطر . وفوق ذلك كانت ابنة أحب الرجال إليه ، يرى فيها مثـلا من جهاد الأب المخلص ووفائه ، فهو إذن يعزها لذاتها ولصلتها بصاحبه أبى بكر . ولئلا يكون القلب هو الحكم فى معـاملته لزوجاته ، كان إذا أراد السفر أقرع فأيتهن خرج سهمها خرج بها غير أنه إذا خرج سهم غير سهم عائشة تغير وجهه ، وكان بعد رجوعه من سفره يبتدىء دورته عليهن بها[4] .

تزوج الرسول عائشة وهى صغيرة السن ، فلقيت منه ما يلقاه الأطفال ، من رعاية وعناية ، وما يلقونه أيضاً من الحدب والعطف . وقد سبق أن رأينا كيف أخذت عائشة من الأرجوحة وسلمت للزوج ، ولم يغير الزواج فى أوله كثيراً من طبيعة الطفولة عندها فقد كانت لا تزال حديثة السن حريصة على اللهو[5] . وتقول « دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأنا ألعب بالبنات فقال : « ما هذا ؟ فقلت : خيـل سليمان .

(١) المسند جـ ٦ ص ١٠٨ ، الطبرى ، محب الدين — السمط الثمين ص ٧

(٢) وقد تعدى هذا التفضيل الى تقسيم الأسهم فى الفتوحات والغزوات فكان يخص عائشة بضعف مايخص به باقى نسائه ففى يوم خيبر مثلا أعطاها مائتى وسقا وكذلك أعطى ابنته فاطمه وأعطى باقى نساءه جميعاً سبعمائة وسقا وقد احتذى حذوه فى هذا التفضيل الخلفاء فيما بعد — ابن هشـام جـ ٣ ص ٣٦٥ . ولعل ذلك كان سهم عائشة وسهم سودة الذى نازلت عنه مع يومها إلى عائشة .

(٣) المسند جـ ٦ ص ١٢١

(٤) ابن سعد جـ ٨ ص ١٢٢ — البلاذرى — الانساب جـ ١ ص ٦٦١

(٥) المسند جـ ٦ ص ١٦٦ — البخارى جـ ٣ ص ٤٤٢ — الطبرى . محب الدين — السمط الثمين ص ٤٩ — الذهبي ص ٣١

فضحك »[١] . وكان أحياناً يشاركها اللعب بالبنات ، فعندما كان يدخل عليها، وهي تلعب كان يقول لها حتى لا تخجل « مكانكن »[٢] ودخل عليها يوماً ، وهي تلعب بالبنات ، واستتر بثوبه منها ، ملاعباً لها ، وقال : « أبو عوانة لكى لا تمتنع . »[٣] كما أنه عندما كان يدخل عليها ، والجوارى عندها ، كن يستحين فيخرجن ، فكان يخرج ويسربهن إليها فيلعبن معها[٤] . ولم يرد الرسول أن يحول بينها و بين ما تتطلبه الطفولة من لهو ولعب ، بل كان حريصاً على راحتها ، مراعياً رغباتها وهي تقول : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي بصواحبي يلعبن معي »[٥] . وكان صلى الله عليه وسلم واسع الصدر في مراعاة شعورها ، أكثر من أبيها نفسه . ويروى أنه دخل عليها أبو بكر في أيام عيد الأضحى ، وعندها جاريتان تضربان بدفين ، فانتهرهما أبو بكر : فقال له الرسول : دعنا ياأبا بكر ، إن لكل قوم عيداً ، وإن عيدنا هذا اليوم »[٦] . وكان يلاعبها بنفسه إذا لم تجد أطفالا نلعب معهن فقد خرجت مع الرسول في إحدى أسفاره ، وكانت صغيرة لم تبدن بعد ، فتسابق وإياها ، فسبقته ، فسكت عنها إلى أن بدنت ، وخرجت معه مرة أخرى فتسابقا ، فسبقها ، فجعل يضحك وهو يقول لها : « هذه بتلك »[٧] وكان يحرص على أن يشبع فيها رغبات الطفولة . فلا يحرمها منظراً تصبو نفسها إليه ، فتقول « لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون بالحراب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه ، لأنظر إلى لعبهم ، من بين أذنه وعاتقه ، ثم يقوم من أجلي ، حتى أكون أنا التي أنصرف[٨] كما كان حريصاً على راحتها من ذلك أنه حين كان يدخل عليها ، وهي نائمة يخرج

---

(١) ابن سعد ج ٨ ص ٤٢ — البلاذرى — الانساب ج ١ ص ٦٥٣
(٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٤١ (٣) نفس المصدر ج ٨ ص ٤٤
(٤) ابن سعد ج ٨ ص ٤٢ — المسند ج ٦ ص ٢٣٣ — البلاذرى . الانساب ج ١ ص ٦٥٠ ، ٦٥١ (٥) المسند ج ٦ ص ٢٣٣
(٦) المسند ج ٦ ص ٩٩ (وردت في المستطرف للابشيهى ج٢ ص ١٨٥ مع تغيير في لفظ النص)
(٧) نفس المصدر ج٦ ص ٣٩
(٨) نفس المصدر ج ٦ ص ١٦٦

بهدوء لئلا يقطع عليها نومها [١] ، وتتمثل أمامنا صورة للطفولة البريئة ، فى استرضاء الرسول لها ، وذلك عندما كانت معه ومع نسائه فى إحدى أسفاره ، وبرك جملها فى الطريق فبكيت ، وتقول « فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح دموعى بردائه و بيده ، وجعلت لا أزداد إلا بكاء وهو ينهانى فلما كثرت عليه زبرنى » [٢].

ولم يكن ليخفى على عائشة اهتمام الرسول بها ، ومراقبته لما يصدر منها ، من ذلك قال لها يوماً « ياعائشة ما يخفى على حين تغضبين على ، وحين ترضين قلت بما تعرف ذلك يارسول الله ؟ قال أما حين ترضين فتقولين : لا ورب محمد وأما حين تغضبين فتقولين : لا ورب ابراهيم . قالت : قلت : صدقت والله يارسول الله ، إنما أهجر اسمك » [٣].

وقلنا : إن الرسول كان يحبها لذاتها ، ولم تكن إحدى الثلاث المفضلات فحسب بل يقول البلاذرى [٤] « كانت أحب نسائه إليه » وكان يقول لها « أنت أحب إلى من زبد بتمر » [٥] ولم يتردد صلى الله عليه وسلم فى إظهار حبه لها ، فكان يقول لها من حين إلى آخر : إن حبها فى قلبه كالعروة الوثقى ، وكانت هى تسأله أيضاً من وقت إلى آخر عن العروة الوثقى فيقول لها : إنها لم تتغير ولم تتبدل . وكانت منزلتها رفيعة عنده فيقول صلى الله عليه وسلم : إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام [٦] ويقول أيضاً : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر

(١) الطبرى ، محب الدين — السمط الثمين ص ٥٩ — ٦٠
(٢) نفس المصدر ص ١٢٢ ، (زبرنى أى نهرنى)
(٣) ابن سعد ج ٨ ص ٥٥ (ووردت فى المسند ج ٦ ص ٦١ والطبرى ، محب الدين السمين ص ٤٥ مع تغيير فى لفظ النص)
(٤) الانساب ج ١ ص ٦٥٤ — ٦٥٥
(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٥٥
(٦) ابن سعد ج ٨ ص ٥٥ — المسند ج ٦ ص ١٥٩ — ابن عبد البر ج ٢ ص ٧٦٦ السهيلى ج ٢ ص ٣٦٦ — ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠

الطعام »[1] وكان الرسول يحب عائشة لذاتها ، ولصلتها بأبي بكر ، وقد سأله يوماً عمرو بن العاص « يارسول الله من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة قال : إنما أقول من الرجال ، قال : أبوها »[2] وتنازعت مرة عائشة وصفية بنت حيي — إحدى ضرائرها — فسبت صفية عائشة فانتصر الرسول قائلا : « ياصفية أتسبين أبا بكر . ياصفية أتسبين أبا بكر »[3] وكانت شخصية أبي بكر تتجلى فى عائشة أمام الرسول ، فقد اختصمت مرة عائشة مع زينب بنت جحش — إحدى ضرائرها — أمام النبي فلم يتداخل بينهما ، وتركهما وشأنهما ، وقد استطاعت عائشة بلباقتها أن تغلب زينب ، فتبسم الرسول ، وقال : « إنها بنت أبي بكر »[4] ولعله أراد أن يقف موقفاً محايداً لا ينحاز به لزوجة ضد الأخرى ، بل ترك لهن الفصل فى اختلافهن ، دون أن يتدخل فى كبيرة وصغيرة ، منعاً للتحاسد ، ثم هو من ناحية أخرى وقد أعجبه ذكاء عائشة واستعدادها الفطرى وما اقتبسته من فضائل أبيها من فطنة وحسن تصرف أراد أن يستجلى فيها صورة ذلك الأب عندما يتعرض للمواقف . ومن يدرى لعله أراد أن يختبر بنفسه تصرف عائشة ، مشجعاً إياها إن أحسنت ، ومقيلا عثرتها إن أخطأت .

وكان الرسول يحب عائشة منذ طفولتها كما قلنا وطالما أوصى أهلها بها خيراً ، وكم كان يستأنس بها بعد فقد خديجة ، التى أخلص لها كل الإخلاص ، وأعجب بها كل الإعجاب وقد يكون من أسباب حرص الرسول عليها ، وحبه إياها أن جبريل عليه السلام خاطبه بشأنها قائلا : « يارسول الله هذه تذهب بعض حزنك وأن فى هذه خلفاً من خديجة »[5] وهذه إذن صفة أخرى تحبب عائشة إليه أنها وحى من الله والعوض الذى اختير له .

(١) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٦٠ — الذهبي ص ٢٤

(٢) ابن سعد ج ٨ ص ٤٦ (ووردت فى البخارى ج ٢ ص ٤٢٠ ، وبن عبد البر ج ص ٧٦٦ مع تغيير فى لفظ النص)

(٣) ابن سعد ج ٨ ص ٥٦

(٤) نفس المصدر ج ٨ ص ١٢٣

(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٥٤

أحب الرسول زوجته الصغيرة حباً قوياً ، فاحتلت قسماً كبيراً من قلبه ، لم يحتله سواها ، وكان حبها هذا غلابا حتى أصبح علماً ، وأصبح اسمها حبيبة رسول الله[1] أو حبيبة حبيب الله ، وشاع هذا اللقب واستعمل فى الكلام عنها ، وفى رواية أحاديثها ، فكان مسروق يقول « حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله »[2] .

وكان المسلمون يؤثرون عائشة بالرعاية تقليداً كما يفعل زوجها ، فكانوا يرسلون الهدايا إليه ، وهو فى بيتها ، فاستفز ذلك زوجاته الأخر ، واجتمعن وطلبن من ابنته فاطمة أن تطلب لهن المساواة بعائشة ، فدخلت فاطمة على الرسول وعائشة عنده وقالت : « إن نساءك أرسلننى إليك ، وهن ينشدنك العدل ، فى ابنة أبى قحافة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتحبيننى ؟ قالت : نعم ، قال فأحبيها »[3] — وفى رواية أخرى قال لها « أى بنية الست تحبى ما أحب ؟ فقالت : بلى فقال : فأحبى هذه لعائشة »[4] . عندما سمعت فاطمة ذلك وجدت أن لا سبيل للكلام فرجعت إلى أزواجه ، وأخبرتهن بذلك فلمنها لعدم استطاعتها تحقيق رغباتهن ومساواتهن معها فى المعاملة ، وطلبن منها أن ترجع إليه مرة أخرى ، فرفضت ، فالتجأن إلى زينب بنت جحش[5] التى دخلت على الرسول ، وعائشة عنده . فقالت له إن أزواجه أرسلنها إليه يسألنه العدل فى ابنة أبى قحافة ، واستطالت فى الكلام على عائشة ، وعائشة تنظر إلى النبى ، ليأذن لها فى الدفاع عن نفسها ، وعندما لاحظت أنه صلى الله عليه وسلم يريدها أن تنتصر أفحمتها ، فتبسم الرسول وقال إنها إبنة أبى بكر[6] وفى رواية أخرى : إن أزواج الرسول

---

(١) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥ — ابن الأثير — أسد الغابة ج ٥ ص ٥٠٣ — ٥٠٤ ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠ (٢) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥

(٣) المسند ج ٦ ص ١٥٠ (ووردت فى الطبرى — محب الدين — السمط الثمين ص ٣٨ مع تغيير فى لفظ النص)

(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٨٨

(٥) إحدى المفضلات لدى الرسول ، وهى التى كانت تعترف عائشة بأنها تساويها فى المنزلة عند النبي

(٦) المسند ج ٦ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٨

أرسلن أم سلمة إليه يسألنه أن يأمر الناس أن يرسلوا هداياهم إليه أينما كان ، فكررت الطلب ثلاثاً إلى أن قال « لا تؤذيني في عائشة ، فإن الوحي لم ينزل علي في لحاف واحدة منكن غير عائشة »[1] وكلمته هذه لا تؤذيني في عائشة كافية في الدلالة على مبلغ ما يحمله لها في نفسه ، وكان دفاعاً ومنعاً غير مباشر للتعرض لها ورغبته بألا يخاصمها أحد ، ويفعل ما من شأنه إيذاؤها لأن في ذلك إيذاء له أيضاً ونقر الشيعة أيضاً بحظوة عائشة عند الرسول ، ولقد جاء في شرح نهج البلاغة أنه كان لعائشة « حظ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وميل ظاهر إليها ، وكانت لها عليه جرأة وإدلال عليه »[2] كان الرسول لا يقتصر بتقديره إياها وحنانه عليها وحده . بل كان يحب أن يحتذي حذوه الأهل والأصدقاء . ويروى أنه شكا الرسول عائشة لأبي بكر ، فغضب أبو بكر وضربها ضربة قاسية ، فقال له الرسول : « غفر الله لك يا أبا بكر ما أردت هذا »[3] وكانت رغبة الرسول في عائشة لا تنحصر في الدنيا فقط بل تعدتها إلى رغبته في أن تكون زوجته في الآخرة أيضاً ، أي في الجنة . وتقول هي سبب ذلك لأنه لم يتزوج بكراً غيرها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخشى الموت ، لاعتقاده أنه سوف يلتقي بعائشة في الجنة ، قد أثر عنه أنه قال « لقد أريتها في الجنة ليهون بذلك علي موتي كأني أرى كفيها يعني عائشة »[4] .

وكانت عائشة سريعة الخاطر ، طروبة المزاج ، فرحة القلب . وكان الرسول يقدر ذلك فيها ولا يمتنع في أي فرصة من إشباع هذه الرغبة فيها وكانت تزيل عنه متاعب الحياة ، فتخلق روحها الشابة المرحة جواً ترتاح إليه نفس هذا المصلح العظيم . ويروى أن عائشة طلبت مرة من الرسول أن يدعى لها ، فقال : « اللهم اغفر لعائشة ما تقدم

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١١٧ ووردت في ابن الأثير — أسد غابة ج ٥ ص ٥٠٣ بن حجر ج ٨ ص ١٤٠ مع تغيير في لفظ النص) (ولعلنا نرجح أن أم سلمة هي التي دخلت على الرسول لأنها كانت تميل إلى فاطمة وعلي وتشترك معهما في تخفيف حب الرسول لعائشة)

(٢) ج ٢ ص ٤٥٧ (٣) ابن سعد ج ٨ ص ٥٣

(٤) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥

من ذنبها وما تأخر ، وما أسرت وما أعلنت ، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أيسرك دعاى ؟ فقالت : ومالى لا يسرنى دعاؤك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنها لدعائى لأمتى فى كل صلاة »[1] وكان صلى الله عليه وسلم يرغب فى ألا يقسوا عليها أحد حتى ولا أبوها وجاء أن أستأذن أبو بكر على النبي فأذن له فدخل ، وكان قد سمع أن عائشة ترفع صوتها على الرسول فوبخها وتناولها ، فحال الرسول بينه و بينها ، وعند خروج أبى بكر جعل النبي يسترضيها و يمازحها وقال لها : « ألا ترين أننى قد حلت بين الرجل و بينك ؟ قال : ثم جاء سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، فاستأذن عليه ، فوجده يضاحكها فقال ، يا رسول الله : أشركانى فى سلمكما كما أشركتمانى فى حربكما »[2] . كما أنها هى الأخرى فى دورها كانت تنتهز الفرص بلباقة ، لتظهر مكانتها واعتزازها بنفسها ، وأنها خير من غيرها لتكون دائماً ملء السمع وملء البصر ، فقد دخل عليها الرسول يوماً بعد خروجه من عند أم سلمة فسألته ، أين كان ؟ فأخبرها ، فعادت تسأله ثانية إن كان نزل بواد فيه شجرتان، إحداهما رعيت والأخرى لم ترع فأيهما يفضل ؟ فقال التى لم ترع وتبسم لذكائها و براعتها فى الكلام ، لأنها عنيت بالتى لم ترع نفسها ، و بالتى رعيت ضرائرها[3] ، ولقد قصدت بذلك أن تذكره أنه لم يتزوج بكراً غيرها . ولم يحل المرض دون مزاح الرسول والتبسط فى الحديث مع عائشة فرفع حاجز الكلفة بينهما ليشعرها بشخصيتها و يقربها منه من ذلك أنه دخل عليها أثناء مرضه الأخير فوجدها متوعكة ، تشكو صداعاً فى رأسها فقال لها « وما ضرك لو مت قبلى . فقمت عليك و كفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ قالت قلت والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى ، فأعرست فيه ببعض نسائك قالت فتبسم رسول الله

---

(١) الطبرى ، محب الدين ، السمط الثمين ص ٤٢

(٢) نفس المصدر ص ٤٣

(٣) ابن سعد ج ٨ ص ٥٥ ، البلاذرى — الانساب ج ١ ص ٦٥٥ ابن الجوزى ص ١٥٣ الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٤٧

صلى الله عليه وسلم وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعز به وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى فأذنّ له »[1].

وكان حب الرسول لعائشة ممزوجاً بالثقة بها واحترامها ، وذلك منذ طفولتها . فأودع الرسول أبا بكر سره العظيم وهى موجودة وذلك يوم قرر أن يهاجر إلى المدينة ، فتقول عائشة : إن الرسول أتاهم فى ساعة لم يكن يأتى فيها ، فاستغرب أبو بكر مجيئه وقال إن هنالك حدثاً عظيماً قالت : « فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله صلى الله وسلم، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ، فقال يا رسول الله إنما هما ابنتاى »[2] وأفضى له السر بحضورهما . ومن علائم ثقته بها واعتماده على إخلاصها أنه كان يكلفها فى أشد المسائل وقعاً على نفسها من ذلك أنه أرسلها مرة تخطب له امرأة من بنى كعب ، وعند ما رجعت سألها عنها ، فلم تتكلم ، فقال لها : إنها رأت خالا فى خدها فاشمأزت عائشة منه . فقالت له : « ما دونك سر »[3].

وظل الرسول يخص عائشة بأوفر قسم من قلبه ، إلى آخر أيام حياته ، فلما مرض مرضه الأخير كان يوم عائشة قد مر ، وكان قد وصل فى طوافه بزوجاته إلى ميمونة ، فأظهر رغبته بصورة غير مباشرة فى أن يمرض ببيت عائشة ، فقال « أين أنا غداً ؟ أين أنا بعد غد ؟ »[4] فاستنتج أزواجه فى أن يمرض فى بيت عائشة فحققن ما يرجو وقلن له : « يا رسول الله قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة »[5] وتقول عائشة : إن الرسول دعا نساءه ، بعد أن اشتد مرضه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيتها ،

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٢ (ووردت فى المسند ج ٦ ص ٢٢٨ و الطبرى ابن جرير التاريخ ٢ ص ٤٣٣ و أبو الفدا ج ١ ص ١٥٩ مع تغيير فى لفظ النص)
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩
(٣) ابن قتيبة ج ٤ ص ١٩ (وفى ابن قيم الجوزية ص ٩ ما دونك شر)
(٤) ابن سعد ج ٨ ص ١٢١ — البلاذرى — الأنساب ج ١ ٦٥٧
(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ١٢٢ (نفس المصدر ج ١ ص ٦٥٧)

فأذن له[1]، فانتقل إلى بيت عائشة متوكئا على عمه العباس ، وعلى الفضل بن عباس ، ثم خرجت ابنته فاطمة تعتذر لنسائه ، فى أنه لا يمكنه أن يدور عليهن ، فقلن لها : « هو فى حل فكان يكون فى بيت عائشة »[2]. و بقى فى بيتها حتى اشتد عليه المرض وقد لازمته عائشة خلاله تسهر عليه وتمرضه وتدعو له حتى قال كلمته الأخيرة « اللهم الرفيق الأعلى »[3] وقالت عائشة « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه بين سحرى ونحرى ، قالت فلما خرجت نفسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها »[4].

وعائشة تلك الشخصية القوية كغيرها من النساء تضعف أمام رهبة الموت ، وجلاله فبعد أن قبض صلى الله عليه وسلم وضعت رأسه على وسادة وقالت « وقمت التدم مع النساء وأضرب وجهى »[5].

كان هذا الحب العظيم خير شفيع لعائشة فيما بعد ، وكان الكثيرون يفضلونها على غيرها من نساء الرسول ، لعلمهم بحبه الكبير لها ، وشفع لها هذا عند مسيرها إلى البصرة — يوم موقعة الجمل — فرد عنها كثيراً مما كانت تتعرض له من النقد والتشنيع من خصومها . وكما دفع حب الرسول لها الأذى عنها ، فإنه سبب لها فى نفس الوقت كثيراً من الدسائس التى أحاط بها ضرائرها ، وخصومها ، ومثال ذلك « حديث الإفك » .

رأينا حب الرسول لعائشة ومعاملته لها . أما هى فكانت شاعرة بهذا الحب و بما اختصت به من التقدير ، وكانت سعيدة به ، وطالما فاخرت به زوجات الرسول وغيرهن من النساء ، فكانت تقول « أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى »[6]

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٢ — الذهبي ص ٢٦
(٢) ابن سعد ج ٨ ص ١٢١ — البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٥٧
(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٥ — المسند ج ٦ ص ١٢٥ — الطبرى ، ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٤٤١
(٤) المسند ج ٦ ص ١٢١ ، ١٢٢
(٥) ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٥ — الطبرى ابن جرير التاريخ ج ٢ ص ٤١١
(٦) البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٤٩

كما قالت أيضاً ، « فضلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعشر : قيل ما هن يا أم المؤمنين ؟ قالت لم ينكح بكراً قط غيرى ولم ينكح إمرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله عز وجل براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وقال تزوجها فإنها إمرأتك فكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد ، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه ، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيرى ، وقبض الله نفسه وهو بين سحرى ونحرى ، ومات فى الليلة التى كان يدور على فيها ودفن فى بيتى »[1] وجاء فى البلاذرى[2] عن حب الرسول لعائشة وحبها له « فإنها أحب نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت أشدهن حباً له » من ذلك نرى أن حبها كان متبادلا ، ومما يؤيد هذا القول غيرتها على الرسول من سائر زوجاته ، كما سنرى ، وحرصها على كسب القسم الأوفى من قلبه وأوقاته .

وهذا الحب من عائشة مع الإعجاب والاحترام الشديد للرسول ، كان يجعلها مطيعة له ، ومنقادة لأقواله وأعماله ، ورغباته دون تساؤل .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٤ ، ٤٥ (ووردت فى الطبرى ، ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ١١٨ والذهبي ص ٢٦ وابن حجر جـ ٨ ص ١٤٠ ، ١٤١ مع بعض التغيير فى لفظ النص)

(٢) الأنساب جـ ١ ص ٦٦١

الفصل الثاني

حديث الإفك

مرت سحابة فى حياة السيدة عائشة لم تلبث أن انقشعت بوحى من الله بإنزال آيات بينات، تظهر حقيقة ناصعة لصفات أم المؤمنين، وهى «حديث الإفك» الذى كثر فيه القول ووجد فيه المنافقون، وخصوم الإسلام وسيلة للطعن فى الدين ونبيه الكريم، فأذاه أشد الأذى، وأدمى من ورائه قلوب المسلمين، ذلك الحديث الذى لفقه منافق موتور حاقد، وأشاعه فى زمرته لعله يشفى بذلك غليله، وقد تلاقفه أناس آخرون حرقت الغيرة قلوبهم لما رأوا حب الرسول لعائشة، وتفضيلها وإعزازها. وقد شاع حديث الإفك فى السنة الخامسة للهجرة فى عمرة القضاء، وفى السنة نفسها، التى تزوج فيها الرسول من زينب بنت جحش[1].

كان الرسول يعامل زوجاته معاملة الشريكات له، فكان يصحبهن معه فى أسفاره، ولكى لا يميز واحدة على الأخرى، ولئلا تكون الرغبة الشخصية هى الحكم فى الموضوع، فينتج عن ذلك تحاسد وخصومة بين الزوجات كان يقرع بينهن فأيتهن خرج سهمها خرج بها[2]، وكانت العادة أن تحمل الزوجة التى تصحبه فى سفره فى هودج على بعير.

وفى غزوة بنى المصطلق، أقرع الرسول بين نسائه فخرج سهم عائشة فصحبته

(١) الطبرى، ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٧٠ — المسعودى ج ٤ ص ١٥٧ الذهبي ص ٣٢ — الإفك هو الكذب ويقال أفك أى كذب وإفك الناس أى كذبهم — وفى حديث عائشة الإفك فى الأصل الكذب ويوجد معنى آخر للافك الإثم — أنظر مادة أفك فى لسان العرب

(٢) المسند ج ٦ ص ١٩٥ — البخارى ج ٣ ص ١٠٤ — ابن هشام ج ٣ ص ٣١٠ — الطبرى، ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٠٤ الذهبى ص ٣٣

وكانت كسائر نساء قومها نحيلة الجسم ، خفيفة الوزن ، وتعزو هى ذلك لقلة الغذاء ، لأنهن كن يأكلن العلقة من الطعام ، وكانت هى حينئذ « جارية حديثة السن »[1] مما زاد وزنها خفة . انطلق القوم يخضعون بنى المصطلق ، وعادوا إلى مدينتهم منتصرين ، وقبل وصولهم بمرحلة نزل الرسول بمنزل ، وبات بعض الليل فيه ، وقبل الفجر أمر الرسول بالرحيل ، ولكن السيدة عائشة ابتعدت عن القوم فى قضاء بعض حاجاتها ، فلما عادت فقدت عقدها فلم تجده فرجعت إلى حيث كانت تبحث عنه حتى وجدته ولم يكن ضوء الفجر قد طلع بعد فتأخرت بعض الوقت، وحمل القوم معهم هودجها ظناً منهم أنها فيه ، وهى تقول فى ذلك ولم « يشكوا أنى فيه »[2] ولم يدر أحد منهم أن هذه الساعة ستسفر عن حادثة كبرى ، كان لها أعمق الصدى فى المدينة ، وفى قلوب المسلمين ، وفى نفسها على ما لاقت خلال فترة الشك ، من عناء وعذاب ، خاصة وقد هجرها أحب الناس إلى قلبها . عادت عائشة بعقدها ولكنها لم تلق داعياً ولا مجيباً[3]،وسار القوم وعائشة فى وسط الصحراء ، دون رفيق أو دليل ، يعاونها على قطع البيداء واللحاق بالأهل والعشيرة . ففكرت فى وسيلة تنقذه فلم تجد خيراً من الصبر الجميل ، لعل الله يوفد من يرافقها فى عودتها إلى قومها الذين خلفوها وراءهم دون علم ، والتفت بجلبابها ، ثم اضطجعت منتظرة أن يفتقدها القوم فيعودوا ليحملوها . و بينما هى تتخبط فى حيرة من أمرها إذا بصفوان بن المعطل السلمى الذى كان متأخراً عن القوم لبعض حاجته يمر بها . فلما رأى سواداً أقبل ونظر ، وقد كان رآها قبل أن يضرب عليها الحجاب ، فعرفها ، وقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وأنا متلففة فى ثيابى ؛ قال : ! ما خلفك، يرحمك الله ؟

(١) المسند ج ٦ ص ٩٥ البخارى ج ٣ ص ١٠٤ — الطبرى ابن جرير — ج ١٨ ص ٧٢ الذهبى ص ٣٥

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣١٠

(٣) المسند ج ٦ ص ١٩٥ — ابن هشام ج ٣ ص ٣١٠ — الطبرى ابن جرير — التاريخ ٢ ص ٢٦٥

قالت : فما كلمته ، ثم قرب البعير، فقال : اركبي ، واستأخر عني قالت فركبت »[1].

وتقول إنها لم تكلمه كلمة . قاد صفوان البعير ، حتى وصلت المدينة فى وضح النهار على مرأى من الناس فى زمن قريب من مجيء العسكر[2] مما يبعد عن النفس الشك أو الريبة .

علم الناس أن الهودج كان خالياً من صاحبته ، فوجد المنافقون وسيلة ينالون بها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أحب الناس إليه ، فروجوا كذبهم متهمين ظالمين والسيدة عائشة لا تدرى شيئاً من ذلك ، كما يتبين لنا من كلامها «فارتعج العسكر والله ما أعلم بشيء من ذلك »[3] . والذين غالوا فى الفاحشة حسان بن ثابت، ومسطح ابن أثاثة، وحمنة بنت جحش[4] ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى سلول زعيم الخزرج فى المدينة ، الذى كان يجمعهم فى بيته ويحدثهم « بالإفك »[5] .

بلغ حديث الإفك مسامع الرسول وعلم به أبواها ، ولكنهم لم يذكروا لها شيئاً لأنها كانت قد مرضت عند قدومها المدينة مرضاً شديداً ، وكان الرسول من عادته أن يكثر عنايته بها أثناء مرضها ولكنها هذه المرة لم تلق منه ما اعتادت أن تلقاه من رعاية وحنان ، ومع ذلك لم يذكر لها من الأمر شيئا ، مبالغة منه فى الحرص على راحتها وكان عند ما يدخل للاستفسار عن صحتها يقول : « كيف تيكم »[6] فكان ذلك يريبها ولكنها لم تعلم ما يلغط به القوم إلا بعد مضى ثلاثة أسابيع بعد ما تماثلت عائشة إلى الشفاء رافقتها أم مسطح[7] فى خروجها من دارها ، و بينما هى فى فسح المدينة

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٣١١ (ووردت فى الطبرى ابن جرير — جـ ٢ ص ٢٦٥ مع تغيير فى لفظ النص)

(٢) المسند جـ ٦ ص ١٩٥ البخارى جـ ٣ ص ١٠٥

(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ٣١١ — الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٥

(٤) حمنة هذه أخت زينب بنت جحش زوج الرسول

(٥) المسند جـ ٦ ص ١٩٧ ، ١٩٨ — البخارى جـ ٣ ص ١٠٥ — الطبرى . ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٨ — اليعقوبى جـ ٢ ص ٥٤

(٦) المسند جـ ٦ ص ١٩٥ — البخارى جـ ٣ ص ١٠٥ — ابن هشام جـ ٣ ص ٣١١ الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٦

(٧) وهى بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق . المسند جـ ٦ ص ١٩٥ — البخارى جـ ٣ ص ١٠٥ .

قالت لها أم مسطح : « تعس مسطح »[1] فتعجبت من ذلك عائشة ، وسألتها كيف تسب رجلا شهد بدراً فجاوبتها أم مسطح إنهـا تسبه من أجلهـا وأخبرتها ما يتناقله الناس عنها ، عندئذ فكرت عائشة بين تغير الرسول عليها ، و بين هـذا الذى سمعته من أم مسطح وقالت : « فازددت مرضاً على مرض »[2]. ولمـا دخل عليها الرسول وقال كيف تيكم طلبت منـه أن يأذن لها بالخروج إلى بيت أمها بحجة تمريضها ، على أن السبب الحقيق فى هـذا الطلب كان رغبتها فى التيقن من الخبر ، فأذن لها ، فخرجت إلى بيت أبيها باكية ، شاكية ، معاتبة ، باكية من اتهام الناس لها ، وشاكية إلى الله ليظهر الحق و ينصفها ، ومعاتبة أمها لتكتم الخبر عنها ، فما كان من أمها إلا أن قالت لها : « أى بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عنـد رجل يحبها ولهـا ضرائر إلا كثرن عليها »[3] . ولعـل أم رومان قصدت بذلك أن تلطف الأمر ، لتخفف من ألم عائشة ، ولكن عائشة تقول : « فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم »[4] .

دخل الرسول بيت أبى بكر ، وهو لا يزال متكتماً لأنه أراد أن يتحقق من الأمر فدعا على بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، ليستشيرهما فيما يصنع ، فكان جواب أسامة « يارسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً »[4] بينما كان جواب على « والنساء سواها كثير »[5] وأشار عليه أن يسأل جاريته بريرة ، فهى تنبئه الصدق ، فدعا الرسول

(١) ومسطح بن أم مسطح اسمه عوف ولكنه لقب بمسطح .

(٢) المسند ج ٦ ص ١٩٥ — البخارى ج ٣ ص ١٠٦ . تختلف روايات المؤرخين منهم (ابن هشام ج ٣ ص ٣١١ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٦٦) عما مر مما روته كتب الحديث . فالمؤرخون يقولون أن عائشة حين طلبت أن يأذن الرسول لها فى الانتقال إلى بيت أبيها لم تكن تعلم مايقوله الناس عنها وقد أثبتنا ماذكرته كتب الحديث لأنها أقوى فى السند وأكثر عناية فى النقل مما رواه المؤرخون ولا يخفى أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن كتب الحديث تبحث فى أمور تتعلق بالدين ومن ثم كان التحقيق فى حوادثها وأقوالها أكثر مما هو فى كتب التاريخ .

(٣) المسند ج ٦ ص ١٩٥ ، ١٩٦ (ووردت فى البخارى ج ٣ ص ١٠٦ مع تغيير فى لفظ النص)

(٤) المسند ج ٦ ص ١٩٦ ، البخارى ج ٣ ص ١٠٦

(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٦ نفس المصدر ح

بريرة يستفهم منها وتولى على ضربها ضرباً شديداً ، لكى تقول الحق فيما تعلم عن عائشة وطلب منها أن تصدق رسول الله فأقسمت للرسول أنها لم تر عليها أمراً قط سوى أنها تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله ، ثم خرج الرسول إلى المسلمين ، ولم يستطع احتمال تلك الأكاذيب والأقاويل ، فخطب فى الناس ولم يكن قد حدث عائشة بعد وقال : « يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، ما كان يدخل على أهلى إلا معى[1] » .

ولما انتهى الرسول من كلمته هذه ثارت النفوس العربية الأبية ، وتطوعت للانتقام لشرف زوجة الرسول وأم المؤمنين ، وقال أسيد بن حضير — وهو من الأوس — إنهم إن كانوا من الأوس يؤدبهم و إن كانوا من إخوانهم الخزرج فليأذن الرسول بالانتقام .

وعندئذ قام سعد بن عبادة كبير الخزرج محتجاً وقال : إنه يعلم أن الذين قالوا ذلك ليسوا من الأوس بل من الخزرج ولذلك تحمس أسيد، مقترحاً ضرب أعناق أهل الإفك، ولو كانوا من الأوس، لما قال ذلك . كثر الكلام وارتفعت الأصوات حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر، فتداخل الرسول، ووفق بينهم خوفاً من أن تقوم الفتنة بين الفريقين.

عاد الرسول إلى عائشة ، فوجدها تبكى ، وتشاركها فى بكائها امرأة من الأنصار و يواسيها أبواها ، فجلس عندها — ولم يجلس منذ ما قيل ، وتقول عائشة : إنه لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنها شىء — فتشهد وقال لها : « أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل ، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ، ثم تو بى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ، ثم تاب تاب الله عليه »[2] وتمنت عائشة أن يبرئها الله إما برؤيا أو بإيحاء ، ولم تكن

(١) المسند جـ ٦ ص ١٩٦ جـ ٣ ص (١٠٦ مع البخارى تغيير فى لفظ النص)

(٢) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٩٦ (ووردت فى البخارى جـ ٣ ص ١٠٧ وفى ابن هشام جـ ٣ ص ٣١١ والطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٧ مع تغيير فى لفظ النص)

لتعلم أن الله ناصرها ، ومنزل آياته ليدفع عنها التهمة ، ويشرفها بحمايتـه . وانتظرت أن يرد على ذلك أبواها ، فيدفعا عنها ذلك الاتهام ، ولـكنهما لم يقولا شـيئا لأنهما لا يعلمان شيئا . وطالت فترة الانتظار ، ويئست عائشة من أن تجد المدافع والنصير ، بعد أن سمع الزوج أقوال الـكاذبين ، وسكت الأبوان لا يدفعان الاتهام ، عنـدئذ تولت الدفاع عن نفسها بحزم وقوة وقالت قولهـا المشهور « إني والله قد عرفت أنـكم قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به ، ولئن قلت لـكم : إنى بريئة والله عز وجل يعلم أنى بريئـة لا تصـدقوننى بذلك ، ولئن اعترفت لـكم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقوننى وإنى والله ما أجد لى ولـكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف صـبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »[1] ثم تحولت فاضطجعت على فراش وهى واثقة أن الله عز وجل مبرئها .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر الحق ، ويزهق الباطل ، ولـكى تكون براءتها ثابتة واضحة أقدس من أن نتناولها مناقشة العباد أنزلهـا الله فى كتابه الكـريم ، وجعل منها آيات بينات نتلى إلى يوم القيامة . وقبل أن يترك الرسول مكانه شـعر بنزول الوحى ، فوضعت عائشة وسادة تحت رأسه . جلس الرسول والعرق يتصبب منه بغزارة ، ثم ضحك وقال :

« أبشرى يا عائشـة ، أما الله عز وجل فقد برأك »[2] . وكان نزول الآيات فى براءة عائشة برداً وسلاماً ، على أهلها وزوجها ، مما دعا أمها أن تطلب إليها أن تسترضى الرسول ، فرفضت عائشـة وقالت بلسان البرىء تقوى فى مركزه الشامت بخصومه « والله لا أقوم إليه فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل . هو الذى أنزل براءتى »[3]

(١) المسند جـ ٦ ص ١٩٦ ، ١٩٧ . ووردت فى البخارى جـ ٣ ص ١٠٧ ، ١٠٨ وفى ابن هشام جـ ٣ ص ٣١٤ والطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٨ مع تغيير فى لفظ النص .

(٢) المسند جـ ٦ ص ١٩٧ (ووردت فى البخارى جـ ٣ ص ١٠٨ وابن هشام جـ ٣ ص ٣١٥ والطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٨ مع تغيير فى لفظ النص)

(٣) المسند جـ ٦ ص ١٩٧ (وفى البخارى جـ ٣ ص ١٠٨ مع تغيير فى لفظ النص)

أما أبو بكر فقام وقبل رأسها ، فقالت « بحمد الله ، لا بحمدك . ولا حمد صاحبك يا أبتاه إلا عذرتنى وكيف أعذرك بما لا أعلم »[1] .

أنزل الله براءة عائشة من السماء واطمأن قلب النبى فخرج ليعلن ذلك للملأ فتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من براءتها ، ثم أمر بضرب مسطح بن أثاثة ، وحسان ابن ثابت ، وحمنة بنت جحش[2] . وأما عبد الله بن أبى سلول فأكثر الروايات لا تذكر جلده ، ولا تنفيه ، وإن عدم ذكر هذه الحقيقة ليس معناه نفيها ، أو إثباتها ، إذ لا يبعد أن يكون قد ضرب عبد الله ، كما ضرب غيره ممن اشتركوا فى ترويج هذه الأكاذيب ، بينما يقول أبو الفدا[3] : إن عبد الله بن أبى سلول قد نجا من عقوبة الجلد رغم اشتراكه فى المؤامرة ، لأنه من أشراف الخزرج . وقد كان غريباً حقاً من أبى الفدا أن يعزو عدم جلد عبد الله أنه من أشراف الخزرج ، ووجه الغرابة فى ذلك أن الإسلام لا يفرق فى توقيع الحدود المنصوص عليها نصاً فى القرآن بين شريف ووضيع ، ولا بين كبير وصغير ، ولم يكن الإسلام حينذاك ضعيفاً إلى درجة يخشى معها بأس شخص مهما كبر ، إذا تذكرنا أن الخزرج دخلوا فى الإسلام وتغلغل الدين فى أعماقهم ، ومن ثم لا يعقل أن يتجاوزوا عن العقيدة لينصروا شخصاً أمعن فى الضلال ورأس المنافقين . وانفراد أبى الفداء بهذا القول إنما يدل على شطح فى القلم ، وضعف فى محاكمة الروايات .

أما ما أنزل فى براءة عائشة من الآيات فبلغ عددها عشراً (فى سورة النور الآيات ١١ — ٢٠ قال الله تعالى :

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم

---

(١) البلاذرى ، الأنساب جـ ١ ص ٦٦٤

(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٣١٥ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٦٨ وهامش السهيلى جـ ٢ ص ٢٢١ وتضيف بعض كتب التاريخ اسم عبد الله بن أبى سلول إلى هذه القائمة ومنها اليعقوبى جـ ٢ ص ٥٤

(٣) جـ ١ ص ١٠٥

لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هـذا إفك مبين . لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ، إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم) .

وفسر ابن جرير الطبرى[1] الآية (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) بقوله : إن الذين جاؤا بالكذب جماعة منهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثه وحمنة بنت جحش وليس هذا البهتان شراً على عائشة بل هو خير عليها عند الله وعند المؤمنين وأن الله جعل ذلك كفارة لها وأظهر براءتها أما الذى تولى كبر الكذب — عبد الله بن أبى سلول خاصة — ومسطح وحسان وحمنة فسيخصه الله بعذاب عظيم وسينال كل امرىء قسطاً من العذاب على قدر ما جاء به من الكذب .

و (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) وتدل هذه الآية على تخصيص الذكر للذين سمعوا الحديث فأنكروه وظنوا خيراً بعائشة ولم يسمحوا للشك والريبة أن تنفذ إلى نفوسهم كأبى أيوب وامرأته[2] .

(لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون)

---

(١) ج ١٨ ص ٦٨ — ٦٩ (٢) نفس المصدر ج ١٨ ص ٧٧

فى اتهام كهذا لا بد من وجود أربعة شهود وإلا كان المتقولون كاذبين قاذفين[1] .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) إن الله غفور رحيم ولولا رحمته لهم ونعمته عليهم لمسهم بعذاب عظيم فى الدنيا والآخرة[2]

(إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) وقد أراد القرآن الكريم فى ذلك أن يبكت الذين يسارعون إلى تصديق ما يتقول به الناس ، ولا يكتفون بذلك بل يذيعونه ويشيعونه ، وهم لا يعلمون حقيقته يظنونه هيناً سهلا ، لا خطر فيه ، وهو فى حقيقته عظيم خطير ، لأنهم يؤذون به رسول الله وحليلته[3] .

(ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) يجب على من يسمعه من المؤمنين ألا يتكلموا أو يتفوهوا بأى كلمة ، تخص الإفك بل يجب أن يقولوا : إن ذلك بهتان وكذب[4] .

(يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ، إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) ينهى الله المؤمنين عن العودة إلى الكذب ، إذا كانوا مؤمنين بالله يتعظون بعظاته ، ويأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه . تلك هى نصائحه تعالى للمؤمنين والمؤمنات يرشدهم سواء السبيل فيما يجب ألا يخوضوا فيه من الحديث إذ يجب على المؤمن ألا يقول غير ما يتحقق لديه ، تلك حدود الله ومن يتعداها فهو عاص ، يجزى بما يجزى به المسىء ، ومن يتبع ما أمر الله به فله حسن الثواب[5] .

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ثم يحذر الذين يحبون أن تفشى الفاحشة

---

(١) الطبرى . ابن جرير — التفسير جـ ١٨ ص ٧٨

(٢) نفس المصدر جـ ١٨ ص ٧٨

(٣) نفس المصدر جـ ١٨ ص ٧٨ (٤) نفس المصدر جـ ١٨ ص ٧٩

(٥) نفس المصدر جـ ١٨ ص ٧٩

فى المؤمنين بعـذاب عظيم فى الدنيـا والآخرة ، إذا ما ماتوا ، وهم على ضلالهم مصرون غير تائبين ، وتخص هـذه الآية بالذات عبد الله بن أبى سلول والله يعلم كذب أولئك الذين جاءوا بالإفك من صدقهم ، لأن الله علام الغيوب ، بينما الناس لا يعلمون [1] .

(ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله رءوف رحيم) الله رءوف رحيم ولو لا رحمته لعاقبهم أشد معاقبة بمـا أفضوا به [2] .

هذه هى الآيات البينات التى جاءت بها براءة عائشة ، فاطمأن قلب الرسول إلى زوجته المحبوبة ، وهدأ بال الزوج ، واستراح إلى طهر زوجته وخلاصها ممـا أثاره حولهـا المغرضون ، ورجعت السيدة عائشة إلى بيت زوجها ، معززة مكرمة مرفوعة الرأس .

ومهما يكن من أمر فالرسول زوج عربى ومع ثقته بزوجته فقد أوجد كثرة لغط الناس فى نفسه شيئا من الشك كان مصدر عذاب . وألم نفسانى شديد له .

أما عائشة فقد حز فى نفسها الألم الممض من هذه التهمة الباطلة : حيث أشيع عنها الفحش ، فجرحت عواطفها الرقيقة ، وتحركت نفسها الأبية ، واعتصر قلبها هم شديد ، نتج عما طعنها به الأفاكون فى طهارتها وعفافها ، وزاد من حزنها أن أحداً لم يقف إلى جانبها فى محنتها تلك ، يدفع عنهـا التهم الباطلة الـكاذبة ، التى كان من أغراضها قطع الصلة بينها وبين زوجها ، بالإضافة إلى دوافع خاصـة أخرى كانت تدفعهم لأن يزيدوا من التشهير بها ، ويخيل إلينا أن طبيعة التشفى والأخذ بالثأر ، التى شاعت عند العرب منذ أيام الجاهلية قد وجدت سبيلا إلى الظهور فى ذلك الوقت الذى كان الإسلام فيه — ولا يزال — محكاً للفضيلة التى ذكرت فى غير آية من آيات الله .

(١) الطبرى ابن جرير — تفسير ج ١٨ ص ٨٠

(٢) نفس المصدر ج ١٨ ص ٨٠

أما أبو بكر ، تلك الشخصية الفــذة الذى كان أول من شد أزر الرسول ، ودافع عن الإســلام ، دفاع المستميت فى عزم و إيمان وقوة ، مسجلا فى ذلك حدثاً عظيماً لا فى تاريخ الإسلام فحسب ، بل فى تاريخ العالم قاطبة . تلك الشخصية التى سيطرت فى المواقف العصيبة ووحدت الأحزاب والشعور فوقفت بعد وفاة الرسول عند ما هال المسلمين موت محمد ، ذلك الموقف الخالد بين أناس تسرب الضعف والشك إلى قلوبهم التى لم يكن قد تغلغل الإسلام إلى أعماقها بعد فألقى خطابه المشهور معلناً موت محمد ، ومجاهراً بخلود الله قائلا : « أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت»[1] . ثم تلا الآية ١٤٤ من سورة آل عمران (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) . تلك الشخصية الفذة اعتراها الضعف عند سماعها بكاء عائشة ، فاستسلم للبكاء مع ابنته الحبيبة ، لأنه لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئاً ، إلا أن يشاركها فى آلامها ودموعها ، فأكب يبكى، ويقول ابن جنبل : « فاضت عيناه »[2] .

وقف أبو بكر موقف الصمت منتظراً جلاء الحقيقة ، و بعــد نزول براءة عائشة حلف أن يقطع النفقة عن مسطح — وكان ينفق عليه لفقره وقرابته — ولـكن الله أراد من أبى بكر أن يعفو عنه فأنزلت آية ٢٢ من سورة النور (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لـكم والله غفور رحيم) . يأمر الله سبحانه وتعالى أهل السعة والتفضل ألا يقطعوا صلة الرحم بأقربائهم والمساكين والمهـاجرين ، إشارة لعلاقة أبى بكر بمسطح ، الذى كان قريباً لأبى بكر وفقيراً ومهاجراً ، وقد شهد بدراً فحث الله أبا بكر على العفو عنــه ، وإعادة النفقة عليــه ، ليغفر الله ذنوبه ويرحمه ،

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٦
(٢) المسند ج ٦

وهو الغفور الرحيم[١] . وعلى أثر ذلك أعاد أبو بكر النفقة إلى مسطح ، رغبة فى غفران الله ورحمته ، وقال إنه لا يحرمها إياه أبداً[٢] .

انتشر حديث الإفك فأيده البعض ، وكذبه البعض الآخر . ولكى نرى تأثيره فى الناس واختلافهم فى تصديقه وتكذيبه ، نروى حديث أبى أيوب خالد بن زيد من بنى النجار ، وقد سألته زوجته عن ذلك فأجابها أنه قد سمعه وكذبه وسألها : « أكنت يا أم أيوب فاعلة ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك »[٣] . وفى هذه المناسبة نزلت آية ١٢ من سورة النور (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين) .

ونعيد ذكر المرأة الأنصارية ، التى أحزنها حديث الإفك ، فراحت تشاطر عائشة فى بكائها ، مستنكرة ما سمعت وكذلك أسامة بن زيد عندما أراد الرسول أن يستفسر عن الأمر ، فسأل أقرب الناس إليه ، وهو أسامة بن زيد — فقال : إنه لا يعلم على عائشة إلا خيراً ، وقد نفى أسامة بذلك حديث الإفك وكان مؤمناً ببراءتها .

أما على فقد أشار على الرسول بطلاق عائشة ، ثم سؤال الجارية وضربها ضرباً شديداً ، لتعترف بكل ما تعلم ، وفى ظنى أن هناك أغراضاً خاصة ، دعت علياً[٤] أن يقف من حديث الإفك هذا الموقف ، الذى خلف فى نفس عائشة أثراً عميقاً ، وكان من أكبر العوامل التى دعتها لمناوأته بعد ذلك ، وخروجها مع طلحة والزبير فى موقعة الجمل ، بعد أن أثارت الرأى العام على علىّ باتهامه بعدم مناصرة الخليفة عثمان ضد الثائرين عليه الذين قتلوه .

أما جاريتها بريرة فانطلقت تقول بصفاء نيتها . وطيبة قلبها : إنها لم تر عليها أمراً

(١) الطبرى ابن جرير . تفسير ج ١٨ ص ٨١ — ٨٢

(٢) المسند ج ٦ ص ١٩٧ ، البخارى ج ٣ ص ١٠٨ ، ابن هشام ج ٣ ص ٣١٦ الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٦٨ ، الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٦٨

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣١٥ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٦٨

(٤) ولا يخفى غيرة عائشة من خديجة وبالتالى من ابنتها فاطمة ثم كره فاطمة لعائشة خليفة أمها خديجة وشريكتها فى حب الرسول لها ومن الطبيعى أن يميل على إلى زوجته فى هذا الشعور .

قط ، أو « ما أعلم إلا خيراً »[1] . ولا شك أن بريرة صدقت الرسول ، فعمق إيمانها وسذاجتها وإخلاصها أكبر دليل على ذلك .

وكفى شهادة عمر بن الخطاب وهو الذى اشتهر بالعدل المطلق ، والنزاهة المجردة ، والصراحة المتناهية ، وتضييقه على النساء ، إذ كان أول من اقترح على النبي عليه الصلاة والسلام تحجيب نسائه ، وقد قال للرسول عندما استشاره فى الأمر ، « من زوجها لك يا رسول الله[2] قال : الله تعالى ، قال : أفتظن أن الله دلس عليك فيها سبحانك هذا بهتان عظيم » .

ومناقشة حمنة بنت جحش مهلة . ذلك أنها حملت غريزة المرأة فى الغيرة ، ولم تستطع النبوة أن تزيل عنها حقدها على ضرائر أختها ، مع أن زينب بنت جحش زوج النبي نفسها لم تقل فى عائشة إلا خيراً ، وكان أحرى أن تساهم فى اتهامها ، ولكن نبل أخلاقها ، وضميرها الحى ، وعمق إيمانها أنطقتها بما براءت به عائشة — قالت : « أحمى سمعى و بصرى ، والله ما علمت إلا خيراً »[3] . وقالت عائشة عنها بهذه المناسبة « وهى التى كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله عز وجل »[4] ونرى من ذلك أن لا قيمة لكلام حمنة بنت جحش .

ويحاول بعض المستشرقين — لاسيما المبشرون منهم وخصوم الإسلام — لأغراض لا تخفى ولتحقيق أهداف معروفة ، أن يلصقوا التهمة بعائشة ، وليس لهم دليل مادى يدفعهم إلى ذلك ولكن شكوك ، واستنتاجات لا تلتئم مع المنطق العربى ، ولا مع التمسك بالفضيلة والمحافظة على الشرف ومراعاة حرمة الزوجية المقدسة ، ولكن تطبيق لحياة انغمس فيها الغرب ، فظنوا أنها قياس تصلح للحياة العربية ، حتى فى عصور قوة

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨

(٣) المسند ج ٦ ص ١٩٧ ، البخارى ج ٣ ص ١٠٨ (ابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ . الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٢ ص ٢٦٧)

(٤) المسند ج ٦ ص ١٩٧ (البخارى ج ٣ ص ١٠٨ وهى التى تسامى دون "كانت")

العقيدة الدينية فى صدور المسلمين . ومثال ذلك ما يقوله (Sprenger)[1] أن تكون عائشة قد اجتازت حرمة الزوجية ، ليس على هذا دليل ، ولكن بما أنها زوجة رجل شيخ ، وجدت نفسها وحيدة فى خلوة مع شاب ، فلا يستبعد أن تصح التهمة . غير أن الرسول وجد فى الوحى ملجأ يأوى إليه إبان هذه الكارثة ، و يؤيد ذلك نفر آخر من المؤرخين منهم (Scholl)[2] و (Abbot)[3] وهى أقوال لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ثبوتها ، كما أنهم لم يعنوا بمناقشتها مناقشة علمية نزيهة ، يحاولون فيها إثبات « حادثة الإفك » أو نفيها بأدلة تاريخيــة قاطعة ، وإنما حكموا المنطق الذى لا يتفق مع الطريقة العلمية الحديثة ، القائمة على سرد الحقائق مجردة ، ثم نقدها وتحليلها للخروج من ذلك كله برأى سليم ، قائم على أساس البحث والتمحيص . غير أن بعض المستشرقين ممن اطّرحوا الهوى ترفعوا عن التحيز وسلكوا مسلك الدليل المـــادى ، والاستنتاج الصحيح — استبعدوا حديث الإفك . منهم : (Muir)[4] حيث قال بعد الإشارة إليه « إن سيرة عائشة قبل و بعد الحادث لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة » .

ولنتساءل الآن : هل كان من المعقول أن يكون لعائشة علاقة أى شكل كان بصفوان بن المعطل ؟ ونحن نجزم بإنكار ذلك كل الجزم ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الذى أشاعه عبد الله بن أبى سلول ، زعيم الخزرج فى المدينة ، وقد اشتمل قلبه على بغض الرسول ، والحسد منه ، معتقداً أن الرسول سلبه ملكه ، ورغبة عبد الله فى تهديم الإسلام ، ليفسح له المجال إلى الانتصار على رجال الأوس ، والتزعم على أهل المدينة ، فكان تارة ينافس زعماء الأوس ، بالتزلف إلى النبي ، وأخرى يلجأ إلى أعداء الإسلام، و يؤلبهم على الرسول والمسلمين، فلقد وجد فى « حديث الإفك » فرصة سانحة يطعن فيها الرسول و يشهر بحليلته ، و يروى أنه قبيل « حديث الإفك » بأيام قليلة

(١) Das Leben Und Die Lehre Des Mohammad V. 3, p. 72-73

(٢) L'Islam et son Fondateur p. 146

(٣) Ayesha the Beloved of Mohammad p. 31

(٤) The Life of Mohammad p. 304

تنازع رجلان من الأنصار والمهاجرين على بئر ماء ، واقتتلا ، فغضب عبد الله ابن أبي سلول فقال : « أو قد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم « هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم »[1] وصل الحديث مسامع الرسول ، وأسرع عبد الله ، «فحلف بالله : ماقلت ماقال ولا تكلمت به »[2] . وأحر برجل هذه أخلاقه وتلك سمعته أن تسقط روايته .

أما من جهة المتهم صفوان بن المعطل فسيرته لا تستدعى الشك ، ولم يذكر بسوء قط بل إنه كان مؤمناً بالرسول ودعوته ، غيوراً على الإسلام فجاهد وحضر كثيراً من الغزوات ومات شهيداً فاحترامه ومهابته لزوج النبي وبنت الصديق ، التى كان أبوها يحمل راية المهاجرين فى الغزوة نفسها كانت أعظم من أن تسمح بالتفكير بسوء .

أما عائشة من جهتها وهى التى تقول إنها لم تعقل أبواها إلا وهما يدينان بدين الإسلام ، والتى نشأت وترعرعت على فضائل الدين الحنيف ، فى بيت قائده الأكبر، والتى تزوجت نبيّه العظيم ، فكانت تؤمن به ، وتعمل بدينه فأقول إنه من الظلم الشك فى طهرها ، ولا سيا أن هذه العلاقة المزعومة كانت نتيجة صدفة واحدة ، و إلا لم تكن لتخفى عن قالة السوء والحساد والمنافقين والضرائر .

ثم إن عائشة كانت مع صغر سنها تحب الرسول حباً جما ، ومن مظاهر هذا الحب غيرتها الشديدة ، ولم تتورع فى تدبير المؤامرات ضد سائر ضرائرها ، وخاصة الجميلات والمحبوبات لدى الرسول ، و إلى جانب ذلك الحب الصاخب وجد الإعجاب والفخر بزوج كان أعظم رجل تطمع فيه المرأة ، فحصولها عليه إذن كان النعمة التى لا يضاهيها شيء ، وهى التى تقول « لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة لقد نزل

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣٠٣ (٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٠٣ — ٣٠٤

جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر النبى أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكراً ، وما تزوج بكراً غيرى ، ولقد توفى وإن رأسه لفى حجرى ، ولقد قبر فى بيتى ، ولقد حفته الملائكة فى بيتى ، وإن الوحى لينزل عليه فى أهله فيتفرقون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ولقد خلقت طيبة عند طيب ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً »[1].

وهل من المنطقى أن من تحب رجلها وتعجب به ذلك الإعجاب الشديد تبدله بمن هو أقل منه منزلة خاصة بعد ما نالت من زوجها حباً وتقديراً ليس فى إمكان أحد أن يعطيهما لها ؟

وهل من المعقول أن تكون محض صدفة الاجتماع الأول سبباً فى علاقة كالتى اتهمت بها دون سابق معرفة أو اتصال ؟

قد يقول البعض إنها افتتنت بشبابه فهل لهذا السبب من القوة بحيث يجعلها تتجاوز عقيدتها الدينية وطبائعها العربية ، وتنساق مع رغائب طارئة — كما يريد البعض أن يصور — تهدم كل ذلك الكيان الضخم ، الذى امتلأت به نفسها من الإيمان والإسلام وللرسول من الشباب والحياة والنضارة ما يوازى شباب الدنيا كلها فما أكثر الشباب فى سنهم ، وهم شيوخ فى قلوبهم وعواطفهم وحيويتهم ، وقد كان للرسول قدرة فائقة فى محادثة نسائه ، وملاطفتهن وإرضائهن بحسن التعبير عن عواطفه الزاخرة ، ونشاطه الجم . فما أكثر ما صنع ! وما أقل ما تقاعس وهدأ ! فقد قضى حياته كلها محارباً مجاهداً فى سبيل نشر راية الحق والفضيلة فى الأرجاء الواسعة ، وهدم الباطل ، وثار على الظلم والفساد ، بتلك الحيوية ، ورحابة الصدر التى تحملت تحمل الجهاد ، ومرارة الحياة ولكن ذلك لم يشغله عن العائلة والبيت ، فكان أحسن أب ، وأرحم زوج وأرقه ، عادلا أعظم العدل ، رغم صعوبة الموقف فى الجمع بين عدد كبير من النساء ، فرجل هذا شأنه وتلك صفاته لا تستطيع أى زوجة إلا أن ترتبط به

---

(١) الطبرى ابن جرير ، التفسير — ج ٨ ص ٧٠ (هامش)

أشد الارتباط ، وأن تخلص له كل الإخلاص . وأضف إلى ذلك ما قاله الطبرى[1] عن صفوان بالذات من أنه كان رجلا « حصوراً مايأتى النساء » .

فلذلك كله لايبقى أدنى شك فى براءة عائشة ، وقد أجمع على ذلك المنطق المعقول والذكر الحكيم .

ويكشف حديث الإفك عن ميزات عظيمة فى شخصية السيدة عائشة ، كما يكشف عما كان عليه نفر من المسلمين من إخفاء ما لا يظهرون .

أما ما كشف عنه من صفات عائشة فكان متانتها وصلابتها ، حين رفضت أن تستغفر الله عما قذفها به بعض الناس وصمودها أمام الرسول ، لا بطبيعة المرأة التى تجد سلاحها فى البكاء ، وإنما بطبيعة المجالد الصبور الذى لا تتخاذل قواه ، حين يقف وحيداً فى غمرة المهاجين ، ويؤيد ذلك سكوتها وعدم دفاعها عن نفسها ، حتى سألها الرسول حيث أنها فى موقف لا يقنع فيه النفى ، ولا يفيد فيه الإثبات . وموقفها هذا موقف المعتد الواثق بالنفس ، المعتقد أنه لا بد مبرأ مما نسب إليه . وشعورها هذا شعور البرىء المتهم ، شعور الصادق المكذب .

كما يكشف حديث الإفك عن صفة جليلة أخرى فى السيدة عائشة ذلك أنها وقد برأها الله مما نسب إليها لم تحقد على بعض الطاعنين[2] ولم تنزل بهم الأذى بل غمرتهم بسعة حلمها ، ووافر مغفرتها ، فأظهرت العفو عند المقدرة ، وكانت للمؤمنين أماً تحنو عليهم ، وتصفح عنهم .

(١) ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٧٠ (والسهيلى جـ ٢ ص ٢٢٤ هامش)

(٢) بعد أن ندم حسان بن ثابت عن خوضه فى الإفك غفرت له عائشة وكانت تكره أن يسب عندها . ويقال أنه دخل عليها وكان كف بصره سألها الحاضرون كيف تأذن له وهو من الذين نشروا الإفك وله عذاب عظيم فقالت « وأى عذاب أشد من العمى » — البخارى جـ ٣ ص ١١٠ (البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٦٣ مع تغيير فى لفظ النص)

الفصل الثالث

علاقة السيدة عائشة بضرائرها

ضرائر السيدة عائشة

تزوج الرسول من خمس عشرة امرأة [1] ، ولكن لم يدخل بهن جميعاً ، فدخل بثلاث عشرة ، وجمع بين إحدى عشرة ، وتوفى عن تسع ، غير مارية القبطية .

واللواتى دخل أو بنى بهن الرسول ثلاث عشرة امرأة [2] ، وهن: خديجة بنت خويلد سودة بنت زمعة، عائشة بنت أبى بكر الصديق، حفصة بنت عمر بن الخطاب، أم سلمه بنت أبى أمية ، جويرية بنت الحارث ، زينب بنت جحش ، زينب بنت خزيمة ، ريحانة بنت زيد ، أم حبيبة بنت أبى سفيان، صفية بنت حيي ، ميمونة بنت الحارث، فاطمة بنت الضحاك .

هؤلاء هن اللواتى بنى بهن الرسـول ، فمات ثلاث منهن قبـل وفاته ، وهن خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة ، وريحانة بنت زيد، وفارق واحدة منهن وهى فاطمـة بنت الضحاك . واللواتى توفى عنهن تسع ، لاخلاف فى ذلك ، هن أمهات المؤمنين: عائشة بنت أبى بكر الصديق، سودة بنت زمعة ، حفصة بنت عمر بن الخطاب، أم سلمه بنت أبى أمية ، أم حبيبة بنت أبى سفيان ، زينب بنت جحش ، ميمونة بنت الحارث ، جويرية بنت الحارث ، صفية بنت حيي [3] . وكان له سريتان مارية بنت

---

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٩ ، الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٤١١ المسعودى جـ ٤ ص ١٤٧ ، ابن عساكر جـ ١ ص ٢٩٩ ، ابن الأثير أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٨٤ ، أبو الفدا جـ ١ ص ١٦٢

(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٦ — ١٥٨ — أبو الفدا جـ ١ ص ١٦٢

(٣) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٧ ، ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٩ أبو الفدا جـ ١ ص ١٦٢

شمعون ، ريحانة بنت زيد القرظية [1] ، وتقول السيدة عائشة « وما مست يده يد امرأة قط إلا امرأة يملكها » [2] .

يخيل للناظر بعد سرد هذه الحقائق أن هذا العدد كبير جداً ، خاصة إذا قرناه بعصرنا هذا ، واقتصار الزوج على زوجة واحدة لتكون الحياة الزوجية أكثر هدوءا وسعادة ولكننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن زوجات الرسول المتعددات ، لم يكن الدافع له على الزواج بهن عاطفياً ، وإنما كان ذلك لحكمة سياسية اقتضتها رغبته فى استجلاب قلوب زعماء العرب ، وتقربهم إليه من ناحية [3] ، وتأليف قلوب غير المسلمين من ناحية أخرى . يؤيد ذلك أنه لم تكن جميع زوجاته جميلات صغيرات السن ، لأنه كان من أهدافه فى زيجاته جمع عدد أكبر من المحاربين ، وأصحاب النفوذ حوله ، فلم تكن حفصة مثلا جميلة وقد رفض الزواج بها أبو بكر وعثمان ، ومع ذلك فقد تزوجها الرسول ، ليحقق الغرض المذكور [4] .

لم تكن زوجات الرسول من جنس واحد ، ولا من دين واحد ، ففيهن العربيات ، وغير العربيات ، وفيهن القرشيات ، وغير القرشيات ، وفيهن المسلمات وغير المسلمات . أما القرشيات فست ، هن : خديجة بنت خويلد ، سودة بنت زمعة ، عائشة بنت أبى بكر الصديق ، حفصة بنت عمر بن الخطاب ، أم سلمة بنت أبى أمية ، أم حبيبة بنت أبى سفيان . وغير القرشيات ست كذلك ، وهن : زينب بنت خزيمة ، زينب بنت جحش ، ميمونة بنت الحارث الهلالية ، جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار ، أسماء بنت النعمان ، فاطمة بنت الضحاك . أما غير العربيات وغير المسلمات فهن : ريحانة بنت زيد وهى يهودية من بنى النضير ، وصفية بنت حيى ،

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٤١٨

(٢) المسند جـ ٦ ص ١٥٣

(٣) Margoliouth : Mohammed and the Rise of Islam p. 176-177

(٤) Scholl : L'Islam et son Fondateur p. 149-150

وهى أيضاً يهودية ، من بنى النضير ، أما مارية فكانت ملك يمينه وهى قبطية [1] .

هؤلاء هن زوجات الرسول ، على اختلاف أجناسهن وأديانهن ، فقد جمع فى كنفه من قومه ، ومن غير قومه ، كما جمع بين المسلمة ، والقبطية ، واليهودية ، والجميلة ، وغيرها ، وابنة رئيس القوم ، وكبير العشيرة ، والفقيرة التى لا يعيلها أحد .

وإذا أردنا تقسيم حياة الرسول الزوجية اتخذنا طريقة (محمد على) [2] بذلك وهى أنه قسمها إلى أربع حلقات .

١ — حياة الرسول إلى أن كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان لا يزال أعزب يحيا حياة هادئة ، تمتاز بالطهر والعفاف .

٢ — حياة الرسول من الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين ، كان فى هذه الفترة سعيداً مع زوجته خديجة ، وكان تعدد الزوجات أمراً طبيعياً فى الجزيرة العربية فى ذلك الحين ، لا يحرم منها كبير ، ولا صغير ، ولا فقير ، ولا غنى . ولكن الرسول بالرغم من استطاعته الحصول على عدد وافر من النساء لشبابه ، وحسن سمعته ، وعلو منزلة قريش بين العرب ، لكنه قضى هذه المدة مع السيدة خديجة ، ولم يفكر فى غيرها قط إلا بعد وفاتها .

٣ — حياة الرسول من الرابعة والخمسين إلى الستين ، حين تزوج عدة نساء ، لأسباب اجتماعية وسياسية ، ولدتها الغزوات والحروب مع قريش والقبائل العربية الأخرى المعادية للإسلام .

٤ — حياة الرسول من الستين من عمره إلى وفاته ولم يتزوج خلالها ، وذلك بانتهاء الغزوات الداخلية .

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٨ ، الطبرى ابن جرير التاريخ جـ ٢ ص ٤١٦ — ٤١٨

Muhammad the Prophet p. 267-268 (٢)

علاقة السيدة عائشة بضرائرها

المركز الذى احتلته عائشة والبيئة التى وجدت بها كان من شأنهما أن يؤثرا فى طريقة معاملتها لضرائرها ، فهى من ناحية شابة صغيرة جميلة ، لم تعرك الحياة لتستفيد من تجاربها فى أعمالها ، وهى من ناحية أخرى قد طبعت نفسها بالطابع الدينى ، وكان من شأنه أن يؤثر فى حياتها تأثيراً آخر .

فاشتراك عدد من النساء معها فى حياتها الزوجية يثير فيها غرائز المرأة ، ورغبتها فى أن تمتلك وحدها زوجها . أما وقد شاركها أخريات فكان لا بد أن ينجم عن ذلك سوء تفاهم ، مصدره الغيرة والخصومة ، تبعتهما رغبة الكيد والحرص على أن تنتصر من جهة ، وأن تضعف مكانة ضرائرها عند الرسول من جهة أخرى . ويخفف من حدة هذا الشعور بيئة النبوة التى عاشت فيها ، وأمر الدين الحنيف ، والأخلاق السمحة الرضية ، التى يحرص عليها النبى ويجيزها الدين .

من هذين الشعورين المتغايرين نستطيع أن نستنتج طبيعة العلاقات التى قامت بين عائشة وضرائرها ، وكان الرسول نفسه يعمل دائماً فى أن تكون العلاقات فيما بينهن حسنة فيعاملهن — فى غير ما يتصل بميله — بالعدل ولا يفرق فى تهيئة حاجات كل واحدة منهن على السواء ، فيقسم أيامه بينهن بالعدل ، وكان إذا أراد سفراً أقرع بينهن فأيهن خرج سهمها خرج بها ، وكان كل يوم يطوف عليهن جميعاً حتى يبلغ التى هى يومها فيبيت عندها .

وكان صلى الله عليه وسلم يرغب فى إرضائهن جميعاً ، فكان يمزح معهن ، ليشعرهن بقربهن منه ، ويدل ذلك على فهم لنفسية المرأة ، وما تنطوى عليه من شك وحقد وغيرة ، ولا سيما فى مثل هذه الأمور ، ويروى أنه دخل مرة عليهن ، وأعطى كل واحدة منهن درهماً ، وقال لها : « لا تخبرى به أخواتك فإن ما أعطيتك لم أعطهن ، يعنى الدرهم الذى أعطاها ما أعطاه لغيرها ، طلباً لمرضاتهن »[1] . ويظهر

(١) الطبرى ، محب الدين — السمط الثمين ص ٨

حرصه الشديد على سعادتهن ، وقد قيل له أن يتزوج من نساء الأنصار ، فإن فيهن جمالا ، فقال رسول الله : « هن نساء فيهن غيرة شديدة ، لا يصبرن على الضرائر وأنا صاحب ضرائر »[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يساعدهن فى خدمة البيت ، وكان يعطيهن دروساً فى أمور الدين والصلاة ، ولا يفتأ يظهر اهتمامه بحاضرهن ، ومستقبلهن ، ويحث على الصبر عليهن .

ولقد انقسم نساء الرسول إلى حزبين : حزب يجمع بين عائشة ، وحفصة ، وصفية ، وسودة ، وحزب آخر يضم سائر زوجات النبي برياسة أم سلمة[2].

ولعل هذا الانقسام بين الزوجات يرجع إلى أسباب خارجة عن بيوتهن ، فقد جمعت عائشة وحفصة صداقة وثيقة ، لعل سببها صداقة بين أبويهما . ولما كانت عائشة تحظى بمركز كبير عند الرسول تقربت سودة منها — وكانت كبيرة السن — لأن فيه إرضاء لعاطفة زوجها ، وانضمت إليهن صفية ، وكن جميعاً يخضعن لعائشة .

وجمع الحزب الثانى زوجات أرستقراطيات أيضاً ، فهذه أم سلمة — إحدى المفضلات الثلاث — مخزومية ، أم حبيبة — رملة بنت أبي سفيان — أموية ، ولعل خلافهما مع عائشة مرجعه — ومن ناصرهما — أنفتهن من الخضوع لعائشة وجمعا حولهما ميمونة بنت الحارث . وكانت أم سلمة فى حزب على حين اختلفت عائشة معه فى حادث مقتل عثمان .

أما سائر ضرائر عائشة فلم يكن فى إحدى الناحيتين دائماً ، فهن مرة مع هذا الحزب ومرة مع الحزب الآخر .

ولم تستطع بيئة عائشة ونشأتها الصالحة أن يقضيا على الغرائز المتأصلة فى الإنسان ، فكانت الغيرة تصل بها فى بعض الأوقات إلى حد التطرف ، فلا تكتفى بضرائرها

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١٤٨

(٢) الطبرى ، محب الدين — السمط الثمين ص ٣٩ ، الذهبي ص ٢٢

الأحياء ، وإنما تتجاوزهن إلى الأموات ، فبالرغم من أن الرسول لم يجمع بين خديجة وعائشة ، فقد كانت الفتاة الصغيرة تغلبها عاطفة الغيرة من الزوجة الكبيرة المتوفاة ، فلا تخفى ذلك فى نفسها ، وإنما تظهره ، فقالت : « ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة ، وذلك بما كنت أسمع من ذكره إياها»[1].

وكانت تشتد غيرتها خاصة ، عندما كان الرسول يذكر خديجة ، وقالت مرة عندما ذكرها ، وأحسن الثناء عليها : « لقد أبدلك الله عز وجل خيراً منها ، قال ما أبدلنى الله عز وجل خيراً منها ، قد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى ، إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل ولدها إذ حرمنى أولاد النساء »[2] . ولما وجدت عائشة حرص الرسول على ذكر خديجة قالت : إنها لا تذكرها بعد ذلك بسيئة أبداً ، وعدلت عائشة عن إثارة غضب الرسول على السيدة خديجة .

وكانت عائشة تغار من احترام الرسول لخديجة ، ووضعها فى مرتبة خير نساء العالمين ، وكانت تقول : « إنى لأغار من خديجة ، وإن كنت بعدها لما كنت أسمع من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، وقد سمعته يقول : كانت خديجة خير نساء العالمين ، وإن لخديجة بيتاً فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب ، وإنى لأعرف فضلها »[3]

وحاولت عائشة أكثر من مرة أن توقع بخديجة ، وهى تقول : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، خديجة ، فأطنب فى الثناء عليها ، فأدركت مايدرك النساء من الغيرة فقلت . لقد اعقبك الله يارسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين

(١) المسند جـ ٦ ص ٢٧٩ (ووردت فى البلاذرى الأنساب جـ ١ ص ٦٥٣ مع تغيير فى لفظ النص)

(٢) المسند جـ ٦ ص ١١٧ — ١١٨ (ووردت فى الطبرى، ابن جرير — التاريخ جـ ٨ ص ٦٢ مع تغيير في لفظ النص)

(٣) البلاذرى ، الأنساب جـ ١ ص ٦٥٣

قالت . فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحى ، وعند المخيلة حتى يعلم رحمة أو عذاب »[1] .

وقد اندفعت عائشة فى غيرتها من خديجة إلى درجة الضيق بمن كانت تكرمهم فقد اعترضت عائشة الرسول مرة ، وهو يحسن استقبال جارية كلما دخلت عليه قائلة « يارسول الله أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال ، فقال إنها كانت تدخل على خديجة كثيراً و إن حسن العهد من الإيمان »[2] . وتعارضته يوما عندما ذبح شاة ، وأرسل إلى أصدقاء خديجة ، فقال لها « إنى لأحب حبيبها »[3] .

وحوادث غيرة عائشة من ضرائرها كثيرة ، ولعل غيرتها من أم سلمة[4] ، وزينب بنت جحش، كانت تفوق غيرتها من الباقيات، لأنهما تقول « كانتا أحب نسائه إليه

(١) المسند جـ ٦ ص ١٥٤

(٢) البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ١٤٧

(٣) ابن حجر جـ ٨ ص ٦٢

(٤) هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة القرسية المخزومية ، واسم أبيها حذيفة ، وقيل سهل وأمها عاتكة بنت عامر الكنانية ، تزوجت هند عبدالله المخزومى ، وهاجرت معه فى الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة ، فكانت أول امرأة خرجت معه مهاجرة ، فولدت هناك سلمة ومكثوا فى أرض الحبشة إلى أن أرسل الرسول عمر بن أمية ، وحملهم إليه ، وهاجر عبد الله إلى المدينة ، وصحبته هند فكانت أول ظعينة دخلت المدينة . توفى عبد الله مجاهداً فى أحد فى السنة الرابعة هجرية ، وبعد وفاته دخلت أم سلمة على الرسول وقالت له « يارسول الله إن أبا سلمة قد مات فكيف أقول قال قولى اللهم اغفر لى وله واعقبنى منه — قلت فاعقبنى الله خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم » (ابن سعد جـ ٨ ص ٦٢) وقيل أيضا إنه لما توفى زوجها دخل الرسول عليها فقال « اللهم عز حزنها ، واجبر مصيبتها ، وابدلها بها خيراً منها » (ابن سعد جـ ٨ ص ٦٢) .

فبعد ذلك خطبها الرسول فترددت ، واعتذرت بأنها امرأة غيرى مسنة لها أولاد ، وليس لها من ولى يزوجها فكان جوابه صلى الله عليه وسلم إن الله يذهب غيرتها ، وأما أنها مسنة فهو أكبر منها . أما أولادها فعلى الله ورسوله وإن أحداً من أوليائها لن يمانع فى ذلك ، سواء كان حاضراً أو غائباً ، عندئذ زوجها ابنها رسول الله فى شوال السنة الرابعة هجرية .

توفيت أم سلمة سنة تسع وخمسين وصلى عليها أبو هريرة بالبقيع ، و لبعض يقول : إنها توفيت بعد نعى الحسين سنة إحدى وستين أو فى خلافة يزيد بن معاوية وهى من آخر أمهات المؤمنين موتاً (ابن هشام جـ ١ ، ٢٦٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ — ٣٧٥ جـ ٢ ص٥ . ابن سعد جـ ٨ ص ٦٠ — ٦٧ . ابن الأثير أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٨٨ . ابن حجر جـ ٨ ص ٢٤٠ — ٢٤٢)

فيما أحسب بعدى »[1] ولأن كن ثلاثتهن من المفضلات[2] ، وقالت عن زينب « لم تكن واحدة من نساء النبى صلى الله عليه وسلم تناصبنى غير زينب »[3] .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٨١ (٢) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٤٣

(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ٢١٢ .

وزينب بنت جحش ابنة عمة الرسول ، وقد أثار زواجه بها كثيراً من الأقوال . وهى بنت جحش بن دياب ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى . هاجرت زينب مع أهلها إلى المدينة وكانت جميلة فخطبها الرسول لزيد مولاه ، رضيت أولا ظانة أن الرسول يريدها لنفسه ، فلما علمت أنه يريدها لمولاه زيد رفضت فأنزل الله قوله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) سورة الأحزاب آية ٣٦

وبعد ذلك أخبرت زينب الرسول أنها رضيت بزيد ، لأنها لاتريد أن تعص الله ورسوله « الطبرى ابن جرير — كتاب التفسير جـ ٢٢ ص ٩ » ولقد أبت زينب الهاشمية القرشية الزواج من زيد — رق خديجة التى أعتقه الرسول — لأن العرب عامة والقرشيين خاصة يفاخرون بأنسابهم ، ولكن الرسول أراد أن يطبق عملياً قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (سورة الحجرات آية ١٣) . وقد كان هذا الزواج ثورة اجتماعية أعلنها الإسلام على النظم التى كانت سائدة إذ ذاك ، والتى كان من شأنها أن تقسم الناس إلى طبقات ، وأن تجعل الحدود بين هذه الطبقات فاصلة لايمكن تخطيها ، فطبقة الموالى كانت دون السادة الأشراف بمراحل كثيرة ، والعرب أنفسهم على طبقات ، تمثل قريش المرتبة الأولى فكان زواج المولى بقرشية حدثاً ، ذا خطورة كبيرة أراد فيه الرسول أن يبين أن الإسلام يرفع من شأن المولى ليضعه فى طبقة الأشراف ، بل ليبين عملياً أن ليس فى الإسلام شريف أو وضيع ، وأنهم سواسية أمام الدين فيثبت بذلك حديثه المشهور — لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى — تم الزواج بين زيد وزينب ، ولكنه لم يكن زواجاً توفرت فيه الكفاءة والرغبة المتبادلة ، ولا شك أن زينب كانت ترجو أن تتزوج ممن يناسبها شرفا ومقاما . وزار الرسول بيت زيد مرة ولم يكن زيد موجوداً فخرجت زينب تدعو الرسول فأبى أن يدخل وذلك عملا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) سورة النور آية ٢٧ . ولما كان صاحب البيت غائباً عاد النبى دون أن يدخل. جاء زيد إلى بيته وأخبرته زينب بزيارة الرسول له فظن زيد أن لزينب أثراً فى نفس الرسول ، فذهب إليه ، قائلا : إنه يريد أن يفارق زوجته فسأله الرسول إذا كان قد رأى منها شيئا يريبه ، قال لم ير منها إلا خيراً ، فكرر ذلك على الرسول ، وصرفه عنه ، وعن فكرة الطلاق ، إذ لم يجد لذلك سببا أو مبرراً . ومضت مدة على ذلك ، فنزل قوله تعالى (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) سورة الأحزاب آية ٣٧ . يعاتب الله =

وكانت إذا اقتضى الأمر تتفق مع زوجة أخرى ، لتكون أقدر فى تحقيق مطلبها . وجاء فى ابن سعد ج ٨ ص ٧٦ والبخارى ج ٣ ص ٣٥٨ أن عائشة اتفقت مع حفصة على أن يخففا من تعلق الرسول بزينب ، وكان يطيل فى المكث لديها ، وتواعدا

= سبحانه وتعالى الرسول بهذه الآية لأنه قال لزيد الذى أهداه الله أن يمسك عليه زوجه ، وقد خفى محمد فى نفسه رغبته فى الزواج من زينب ، وما أبداه الله فى كتابه ، وذلك خشية الناس وما يقولونه ، والله أحق أن يخشاه رسوله . (الطبرى ابن جرير — كتاب التفسير ج ٢٢ ص ١٠) وقد أراد الله أن يضع فى حادثة زيد هذه مبدأ جديداً ، غير الذى كان معروفا قبل ذلك لدى العرب أجمعين ، فقد كان المعروف أن الأدعياء حقوقاً كالأبناء فى النسب والميراث ، فلا يجوز التزوج بنسائهم ، وإنما أراد الله أن يجعل حدود المتبنى والصيق حقوقا كحق المولى والأخ فى الدين ، فأنزل (وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) سورة الاحزاب آية ٤ . وتبيح هذه الآية للمتبنى أن يتزوج زوج متبناه بعد طلاقه لها ، فهذه الآيات إذن الذى أمر الله بها رسوله بزواج زينب بنت جحش ليست إلا بداية عملية لقاعدة جديدة فى الاسلام تنسخ العرف القديم . وبعد ذلك طلق زينب وتزوجها الرسول فى السنة الخامسة من الهجرة ، وعمرها يومئذاك خمس وثلاثون سنة . ابن سعد ج ٨ ص ٨١ وكانت تفاخر بقية نساء الرسول قائلة « زوجكن أهلكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات » ، (ابن سعد ج ٨ ص ٧٣) وزينب أول نساء النبي لحوقا به فاتت سنة عشرين وكان عمرها عند وفاتها ثلاثا وخمسين سنة . ابن سعد ج ٨ ص ٧١ — ٨٢ الطبرى . ابن جرير . التاريخ ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ابن الأثير — أسد الغابة ج ٥ ص ٤٦٣ — ٤٦٥ ابن حجر ج ٨ ص ٩٢ — ٩٣ ولقد اتخذ كثير من المستشرقين هذا الزواج سلاحاً اجتماعياً متهمين الرسول بالشهوة والاغتصاب ناظرين إلى هذا الزواج نظرة الناقد المتغرض منهم :

Grimme : Mohammed Das Leben Vol. I, p. 140
Huart : Histoires des Arabes p. 143 - 144.
Lane-poole : Studies in a Mosque p. 79.

وبعد سرد حادثة زواج الرسول بزينب بنت جحش يمكننا القول أنه لم يكن الدافع لذلك الزواج الغرض البشرى إذا تذكرنا أن زينب بنت جحش هى ابنة عمة الرسول ، وليس يخاف عليه جمالها منذ صغرها ، ذلك الجمال الذى اتخذه المستشرقون سبباً افتتن به الرسول واستهواه ، فتخطى من أجله حرمة عادات متأصلة عند العرب ، ولو صح هذا لتزوجها بكرا ، ونحن نعلم شدة رغبتها بذلك ، وقد ورد معنا أن الرسول زوج زينب لزيد ليرفع من شأن الموالى وليساوى بين المسلمين وهو القائل : « إنما المؤمنون إخوة » ومما يثير دهشتنا أن نرى علماء نافذى البصيرة يتهمون رسولا عانى فى سبيل دعوته وبث رسالته ، وهو الذى أوصى بالزهد ، وكبح جماح النفس ، لذ نراه فيما بعد يقدم على هجر نسائه لرغبتهن فى التمتع بما تتمتع به سائر النساء . ولكن يظهر لى أن المستشرقين قد اكتفوا بذكر ما أرادوا عن هذا تاركين ما قبله ، ومتجاهلين ما بعده ، فالحقيقة وحدة تامة لا تتجزأ ، فإغفال الشيء ليس دليلا على نفيه ، ومع ذلك فإن الرسول راعه =

أن يقولا له عند ما يزورها أن ريحته كريهة ، ففعلا ذلك ، فقال الرسول : إنه شرب عسلا عنـد زينب ، ولن يفعل ذلك بعد ، فنزل قوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه ، وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به ، قالت : من أنبأك هذا ، قال : نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) الآيات الأربع الأولى من سورة التحريم .

وطالما تفاخرت عائشة وزينب ، فكانت تقول لها زينب : « أنا الذى نزل تزويجي »[1] وكانت تفخر على عائشة ، وسائر ضرائرها ، قائلة : « زوجكن أهلكن وزوجني الله من فوق سبع سموا » .[2]

وصفية بنت حيي[3] المرأة الجميلة كانت تثير الغيرة فى قلب عائشة ، فأرادت

= جمال زينب وما ذلك بغريب على أولى الألباب ، إنما خلق الجمال بهجة للناظرين ، إن الله جميل يحب الجمال أو ليس هو القائل « اللهم إنى بشر » المسند جـ ٦ ص ٥٢ .

وقد أوضح القرآن الكريم هذا الزواج الذى ألقى نوراً جديداً على نظم الحياة الاجتماعية ونشر الروح الديمقراطية .

(١) الطبرى . ابن جرير . كتاب التفسير جـ ٢٢ ص ١١

(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٧٣

(٣) يرجع نسب صفية إلى موسى ، وهى بنت حيي بن أخطب اليهودى وأمها برة بنت سموأل من بنى قريظة . كانت صفية قبل أن يتزوجها الرسول عند سلام بن مشكم القرظى اليهودى ، ثم خلف عليها بعد كنانة بن الربيع الذى قتل يوم خيبر — ناحية على بعد مائة ميل من المدينة — ويطلق هذا الاسم على الولاية كلها التى تشتمل على حصون ومزارع ونخل كثير ، وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن « ياقوت . معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٩٦ » .

وكانت صفية بين السبايا ، فأمر الرسول أن تمشى خلفه فمشت وألقى عليها رداءه فعلم المسلمون أنه اختارها لنفسه ، فأعتقها وتزوجها ، وكان عمرها يوم تزوجها سبع عشرة سنة . توفيت صفية بنت حيي فى خلافة معاوية بن أبى سفيان سنة ست وخمسين . ويروى سنة اثنين وخمسين ودفنت فى البقيع .

(ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ — ٣٥٠ — ٣٥١ — ٣٥٤ — ٣٦١ =

حين تزوجها الرسول أن تستطلع أمرها لما سمعت من جمالها ، فصحبت جويرية ، وزينب ، وحفصة ، وذهبت إلى بيتها فلما رأينها قالت زينب لجويرية . إن هذه الجارية ستتفوق عليهن عند الرسول فجاوبتها جويرية قائلة : « كلا إنها من نساء قل مايحظين عند الأزواج »(١) وعندما خرجت عائشة عرفها الرسول ، فسألها كيف رأتها ، فقالت : « رأيت يهودية ، قال : لا تقولى هذا يا عائشة ، فإنها قد أسلمت فحسن إسلامها »(٢). وطالما فاخرت عائشة صفية ، وعيرتها بيهوديتها ، مما دعاها إلى أن ترفع أمرها إلى الرسول فقال لها : إنهن لسن خيراً منها ، محمد زوجها ، وموسى عمها ، وهارون أبوها (٣).

وكانت عائشة تغار من جويرية (٤)، لما خصها الله من الحسن والجمال ، وابتدأ

= ابن سعد جـ ٨ ص ٨٥ — ٩٣
الطبرى ، ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٢٩٨ — ٣٠٢ — ٤١٥
ابن الأثير . أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٩٠ — ٤٩١
ابن حجر جـ ٨ ص ١٢٦ — ١٢٧) .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٩٠

(٢) نفس المصدر جـ ٨ ص ٩٠ (ووردت فى ابن حجر جـ ٨ ص ١٢٧ مع تغيير فى لفظ النص)

(٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ٩١ . ابن الأثير ، أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٩١ .

(٤) هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق ، وقد تزوجت ابن عم لها فقتل عنها يوم المريسيع (أى غزوة بنى المصطلق) وبعد أن هزم بنى المصطلق أمام المسلمين وقعت جويرية فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسها ، وندمت جويرية على ما فعلت ، وودت التخلص من ثابت فاستنجدت بالرسول ، فعرض عليها خيراً من ذلك ، أى زواجه بها ، فقبلت فاشتراها الرسول من ثابت بن قيس وتزوجها « ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٢ ابن حجر جـ ٨ ص ٤٣ »
وهنالك روايات أخرى عن زواج الرسول بها وهى أن أباها ، زوجها للرسول (ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٨ . ابن سعد جـ ٨ ص ٨٤ . ابن عساكر . تاريخ دمشق جـ ١ ص ٣٠٦) ولكن هذه الروايات كلها تجمع على أن الرسول تزوجها فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة للهجرة ثم أعتق سبي بنى المصطلق ، وبلغ عددهم مائة وتقول المصادر لا يعلم « امرأة أعظم بركة على قومها » (ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٧ . ابن سعد جـ ٨ ص ٨٣ الطبرى . ابن جرير . تاريخ جـ ٢ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ابن حجر الاصابة جـ ٨ ص ٤٤) وكان عمرها عند ما تزوجها الرسول عشرين سنة ، وتوفيت ولها من العمر خمس وستون سنة ، فى خلافة معاوية سنة ست وخمسين وقيل سنة خمسين من الهجرة وصلى عليها مروان بن الحكم وكان يومئذ والى المدينة ابن سعد جـ ٨ ص ٨٣ — ٨٥ . الطبرى ، =

كرهها منها حين رؤيتها إياها عندما أتت جويرية إلى الرسول تستعين به بعد غزوة بنى المصطلق ، فقالت عائشة : إنها عند ما رأتها كرهتها ، أما غيرتها من مارية (١) فكانت ظاهرة السبب ، لما اختصها الله من أمومة ابراهيم ، لأن عائشة كانت تواقة إلى الأبناء ، حتى إنها تبنت ابن اختها عبد الله . ولقد أنزلها الرسول قرب سائر نسائه ، ولكنه ما لبث أن نقلها خوفا من أن يتعرض لها .

= ابن جرير — تاريخ جـ٢ ص ٤٠٤ ابن حجر . الاصابة جـ٨ ص ٤٣ و ٤٤ .
ويظهر لنا من ذلك أن الرسول تزوج جويرية لغرض قصده فتحقق بأن أسلم بنو المصطلق بعد ذلك فزال عدو للمسلمين وكسبوا صديقاً جديداً .

(١) وقد رأينا كيف تآلف اليهود والمسلمون بزواج الرسول منهم ، وكيف جمع حوله العرب لزواج وكرم الأخلاق ، وبقى على الرسول أن يتصل بالدين الآخر ، الذى يضم عرب الشام ومصر ، بوهذا ما فعله فى اتصاله بالمقوقس وإرسال الهدايا له ، فرد المقوقس هدايا مثلها من بينها مارية القبطية وأختها سيرين وخصى يدعى مابور وألفا مثقال ذهباً وعشرين ثوباً ليناً وبغلة وحماراً وذلك فى السنة السابعة للهجرة . عرض حويطب الاسلام عليهم أثناء مجيئهم فأسلمت مارية وأختها وبقى الخصى مابور على دينه إلى أن أسلم فى المدينة وهو شيخ كبير فى عهد الرسول . وصلت هذه الهدايا إلى الرسول سنة ثمان ، وكانت مارية جميلة بيضاء ، جعدة الشعر ، فأعجب بها ، واصطفاها لنفسه ، ووهب أختها صيرين لحسان بن ثابت ، فولدت له عبد الرحمن بن حسان . أنزل الرسول مارية فى بيت الحارثة ابن النعمان قريباً من مساكن نسائه ، وكان يتردد عليها ، ثم خاف تعرض زوجاته لها ، فنقلها إلى العالية ، المكان الذى يعرف الآن بمشربة أم ابراهيم ، فضرب الرسول عليها الحجاب ، وكان يطاها بملك اليمين . أحب الرسول مارية وقربها إليه ، فأثار ذلك حقداً فى قلوب البعض ، فحاولوا أن يوغروا صدر الرسول عليها ، فطعنوها فى طهرها وعفافها ، واتهموها مع أحد خدمها ، فوكل الرسول الأمر إلى على بن أبى طالب . وبعد أن حقق بذلك برأها ، وأخبر الرسول أن ذلك الخادم خصى .

ولدت مارية للرسول ابنه ابراهيم ، فزاده ذلك حباً لها ، وتعلقاً بها ، فأعتقها ، وقال : « اعتقها ولدها » . ابن سعد جـ٨ ص ١٥٥ ابن عبد البر جـ٢ ص ٧٨٣ ابن عساكر جـ١ ص ٣١١ فتجاوز هذا الحب وحسن المعاملة إلى قومها كلهم ، فقال الرسول : لو عاش ابراهيم لاعتقت أخواله ، ولوضعت الجزية عن كل قبطى » : (ابن عبد البر جـ١ ص ٢٤) ووضع بعد ذلك القاعدة الشرعية الآتية : « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات الا أن يعتقها قبل موته » (ابن سعد جـ٨ ص ١٥٥) فلا عجب أن احتلت مارية تلك المكانة فى قلب الرسول ، فقد رزق منها الخلف وحرمه من غيرها إذ وجد مخرجا لعاطفته الأبوية وتدفقاً لعطفه ورفقه وحنانه على الاطفال ولكن لله فى خلقه شؤوناً إذ مرض ابراهيم واشتدت عليه العلة فدخل الرسول وكان فى حجر أمه يلفظ أنفاسه الاخيرة فأخذه ووضعه فى حجره وبكى دون أن يرفع صوته وقال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك ياإبراهيم لمحزونون » (ابن عبد البر جـ١ ص ٢٣) كانت الفاجعة مؤلمة تصدع لها قلب =

وغارت عائشة عندما وهبت أم شريك نفسها للنبي ، فقالت لها : إن ما من امرأة تهب نفسها لرجل خير وسماها الله مؤمنة . ونزلت فيها الآية ٥٠ من سورة الأحزاب: (وامرأة مؤمنـــة إن وهبت نفسها للنبي) فجاوبته عائشــة : « إن الله ليسرع لك في هواك »[1] .

وعندما تزوج الرسول بأسماء بنت النعمان[2] ، وكانت جميلة الصورة، غارت عائشة منها ، وقالت لحفصة : « قد وضع يده في الغرائب ، يوشكن أن يصرفن وجهه عنا »[3]

= الأب الشيخ، وهزت كيانه ،فجزع أشد الجزع، وحزن معه المسلمون وانتابهم من المصيبة هم عظيم . أما الأم الثكلى فقد فاتها الصبر ، وعجزت عن الكظم ، ارتفع صوتها بالبكاء والنحيب ولكن محمداً تذرع بالصبر والحكمة والخضوع لمشيئة الله ، ونهى عن الصياح والعويل . انكسفت الشمس يوم وفاة ابراهيم ، فقال الناس ذلك لموت ابراهيم ، فخطبهم الرسول قائلا « الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، لا يخسفان لموت أحــد ، ولا لحياته ، فاذا فعلوا ذلك ، فافزعوا إلى الصلاة » (المسند جـ ٦ ص ٧٦ ووردت في ابن عبد البر جـ ١ ص ٢٤ مع تغيير في اللفظ) وآسى المسلمون الرسول فى مصيبته ، فغسل ابراهيم الفضل بن عباس وكفنه وخرج به الناس معه ، ودفن في البقيع، وكان عمره ستة عشر أو ثمانية عشر شهراً .

كان زواج الرسول من مارية حدثا في الحياة السياسية ، إذ ربط المسلمين والأقباط في عروة وثقى احكمتها ولادة ابراهيم ، ولكن وفاته لم تخفف من رحمة الرسول لهم فقد أوصى المسلمين بهم خيراً ، وقال « استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » (ابن سعد جـ ٨ص ١٥٤ — ابن عبد البر جـ ١ص ٢٤) «ورحمهم ان أم اسماعيل بن ابراهيم منهم وأم ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم منهم» (ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٤) « الله في أهل الذمة . أهل المدرة السوداء السم الجعاد فان لهم نسباً وصهراً » (ابن هشام جـ ١ ص ٦) ويظهر لنا أن لتلك الصلة وجهة اجتماعية تتشفع بها القربى وصلة الرحم .

توفى الرسول ومارية لا تزال ملك يمينه وكان أبو بكر ثم عمر ينفقان عليها إلى أن توفيت في خلافة عمر في المحرم سنة ستة عشر للهجرة ودفنت في البقيع (ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٢ و ٣٢٩ ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٣ — ١٥٦ ابن عبدالبر جـ ١ ص ٢٢ — ٢٤ ابن حجر جـ ٨ ص١٨٥ — ١٨٦

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١١٢ . أم شريك إحدى النساء اللواتي وهبن أنفسهن للرسول، ولكنه لم يتزوجهن فقد كان عرضا من ناحيتهن ولم يصادفه قبول من ناحية النبي .

(٢) هي أميمة أو عمرة ولكن أشهر بأسماء بنت النعمان الكندية ، أهداها أبوها للرسول بعد أن ترملت وكانت جميلة الصورة تزوجها سنة سبع من الهجرة ولكنه فارقها لبياض فيها وتوفيت في خلافة عثمان بن عفان بنجد . ابن سعد جـ ٨ ص ١٠٢ — ١٠٥ ابن الأثير جـ ٥ ص ٣٩٦ — ٣٩٨ ابن حجر جـ ٨ ص ١٤٨ .

(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ١٠٤

أقبلت على أسماء متظاهرة بالنصح والإرشاد ، أن تستعيذ بالله عندما يدخل عليها الرسول ، إذا أرادت اجتلاب قلبه ، وعائشة ترجو من وراء هذه النصيحة أن ينصرف الرسول عن أسماء ، فلما فعلت فارقها ، وأمر أن تلحق بأهلها ، وقد حاول البعض التوسط لردها إلى النبي ، وأخبروه ما فعل نساؤه ، فقال : « إنهن صواحب يوسف و كيدهن عظيم »[1]

ووصلت غيرة عائشة إلى حد أنها كانت تحاول أن تعرف كيف كان يمضى الرسول كل أوقاته، وروت أن قام النبي من الليل ، فظننت أنه يأتى بعض نسائه ، فاتبعته ، فأتى المقابر ، ثم التفت فرآها ، فقال : « ويحها لو استطاعت ما فعلت »[2] ، وكان صلى الله عليه وسلم يلاحظ غيرتها هذه ، ويحاول التخفيف منها ، فقد خرج مرة من عندها ليلا ، ولما رجع لاحظ غيرتها ، فسألها : « أغرت ؟ قالت : فقلت ومالى أن لا يغار مثلى على مثلك ؟ »[3] .

وإذا كانت هذه غيرة عائشة من ضرائراها ، فما أحرى أن تستحوذ الغيرة منها على قلوبهن فقد كانت أصغرهن سناً ، ومن أكثرهن جمالا ، وأعلاهن منزلة عند الرسول ، وعند المسلمين جميعاً ، ويكفى أن نذكر مثلا لذلك ، حين عجزن عن كتمان ما فى أنفسهن من حسد ، فانتدبن إحداهن لتطلب إلى الرسول العدل بين نسائه ، بعد أن عجزت فاطمة ابنته عن تحقيق نفس الطلب . على أنه غالباً ما كانت تصفو العلاقات بينهن ، بحكم العوامل المختلفة التى تربط بينهن ، وتوجب عليهن التفاهم والانسجام .

وكانت عائشة إلى جانب مخاصمتها لضرائرها بوجه عام تجمع حولها بعض هؤلاء الضرائر ، وتستخدمهن فى تحقيق أغراضها . وكانت حفصة بنت عمر[4] أقربهن إليها ،

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١٠٣ (٢) المسند جـ ٦ ص ٧٦

(٣) نفس المصدر جـ ٦ ص ١١٥

(٤) هى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أخت عثمان بن مظعون . ولدت حفصة عندما كانت قريش تبنى البيت، وذلك قبل النبوة بخمس سنين . ولم تكن حفصة أقل من عائشة =

لمـا كان يجمع بين أبويهما من صداقة وإخلاص ووفاء وتقـدير ، ولعل تودد حفصه لعائشة مرجعه وصاية أبيهـا بذلك ، وتشديده عليها بالإخلاص لها ، وقد رأينـا كيف تآمرتا على زينب بنت جحش ، ليصرفا عنها الرسول ، ثم على صفيـة بنت حيي ، وكذلك على أسماء بنت النعمان ، كما أنهما اتفقتا على الرسول وهما معه فى إحدى أسفاره ، فطلبت حفصة من عائشة أن يتبادلا بعيريهما ، وذلك لمجرد الفكاهة ، ففعلا ذلك . فجاء الرسول إلى جمل عائشة وعليه حفصة ، ظاناً أن عائشـة عليه فسلم ثم سار معها ، فلم تتمكن عائشة من كظم شعورها ، فقالت : « يا رب سلط علىّ عقرباً أو حية تلدغنى رسولك ولا أستطيع أن أقول شيئاً »[1] .

= مكانة فهى بنت عمر الذى أعلن الاسلام وكان سرا فى مكة، والذى ألقى الرعب فى قلوب المشركين، وحمى المسلمين من الأذى والظلم ، وكان مع ذلك صادقا فى إسلامه، عظيما فى تفكيره وتنظيمه، اتخذه الرسول إلى جانب أبى بكر مرافقاً ووزيراً. وكانت حفصة من المهاجرات تزوجها أولا خنيس بن حذافة السهمى ، وكان من المهاجرين الأولين إلى أرض الحبشة ، وممن شهدوا بدراً واحداً، ومات فى المدينة وهو يجاهد فى سبيل الإسلام فى موقعة أحد سنة ثلاث للهجرة . مات عنها خنيس وهى ماتزال فى ريعان الشباب فرأى عمر من الحكمة أن يزوجها ليؤمن حياتها ومستقبلها ، فذكرها لأبى بكر ولكنه لم يجاوبه فآلم ذلك عمر فى كرامته فقصد عثمان بن عفان الذى كان حزينا على زوجته رقية بنت رسول الله، فهو أيضا رفض الزواج فى ذلك الحين لجزعه وحزنه على رقية ورغبته فى الزواج من أختها أم كلثوم . وعندئذ لجأ عمر إلى رسول الله يقص عليه ما حدث ، فما كان من الرسول إلا أن قال « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة » (ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٢٥) .

كان زواج الرسول بحفصة سنة ثلاث من الهجرة ويقال سنة اثنتين . ولقد طلق الرسول حفصة، فدخل عليها عمر ووجدها تبكى فوبخها وقال لها إن الرسول سيرجعها من أجله فردها النبي بأمر من الله سبحانه وتعالى . كانت حفصة متدينة ، حفظت الكثير عن الرسول وروت عنه ، وروى عنها أخوها عبد الله وبعض الصحابة. ومما هو جدير بالذكر أن الصحف كانت عند أبى بكر حتى توفى ثم عند عمر ثم عند حفصة . وقد توفيت حفصة فى المدينة وصلى عليها عاملها مروان بن الحكم واشترك فى تشييع جنازتها. وقد اختلف فى سنة وفاة حفصة، فالبعض يرى أنها توفيت فى سنة إحدى وأربعين لما بايع الحسن معاوية، وأخرى فى خلافة معاوية سنة خمس وأربعين ، وهى فى الستين من عمرها .

(ابن هشام حـ ١ ص ٢٧٤ و جـ ٢ ص ٦ ، ١٢٠ و جـ ٤ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ . ابن سعد جـ ٨ ص ٥٦ ، ٦٠ . ابن الأثير أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ . ابن حجر جـ ٨ ص ٥١)

(١) صحيح مسلم جـ ٧ ص ١٣٨ (ووردت فى ابن الجوزى ص ١٥٣ مع تغيير فى لفظ النص)

وإلى جانب هذه النزوة النسائيــة التي تحركها الغريزة ، في بعض الأحيـان ، كان يغمر عائشة جو من الصفاء أوجدته هذه البيئة ، التي عاشت فيها ابنة أبي بكر ، وزوجة الرسول عليه أفضل الصلاة والســـلاة . فحينما كانت تعود هي وضرائرها إلى أنفسهن ، ويذكرن المركز الذي حللنه وأنهن أرفع النساء درجة ، تكون علاقتهن علاقات صفاء ووئام ليكن المثل الصالح لنساء المؤمنين أجمعين . ولا شك في أن هذه الحالة هي الحالة الطبيعية ، التي يتخللها ما سبق أن ذكرنا من خصومات واختلافات ، تظهر ، ثم لا تلبث أن تزول بتأثير عاملي التربية والبيئة . وليس أدل على ذلك مما كان يعقب تلك الاختلافات من محاولة نسيانها ، والاعتذار عنها ، حتى لقـد قالت عائشة وهي على فراش الموت لأم سلمة — التي ناوأتها في موقعة الجمل — « رحمك الله وغفر لك كل ذنب وعرفنيك في الجنة »[1] . وعن عائشة ، أن أم حبيبة قبل أن تموت دعتها وقالت لها : « قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فتحللينني من ذلك ، فحللتها واستغفرت لها ، فقالت لي : سررتني سرك الله وأرسلت إلى أم سلمة بمثل ذلك »[2] .

على أن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى الأعماق ، بل كانت تقف عند الحـدود التي تقضي بها قواعد الدين والشهامة ، فمع أنه كان في استطاعة زينب بنت جحش المنافسة الكبرى لعائشة أن تستغل « حديث الإفك » فتطعن في ضرتها لتزيلها من الميدان ، إلا أنها لم تفعل ، ولم تقل إلا خيراً ، لأن قواعد المروءة والشريعة كانت أقوى تأثيراً من انطباعات الغـيرة ، وقد حفظت عائشة لزينب موقفها هذا ، فحزنت عليهـا حزناً شديداً عند وفاتها ، وبكتها بكاء مراً ، وقالت عنها : « كانت امرأة صالحة »[3] .

وكانت أحياناً تواسي ضرائرها ، وتتوسط لهن عنـد النبي ، كما فعلت مع صفية عندما وجد عليها النبي ، فاسترضته ، وأزالت ما كان بنفسه عليها[4] . ولم تكن الغيرة

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١٢٣ (٢) ابن حجر جـ ٨ ص ٨٥
(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ٨١ (٤) المسند جـ ٦ ص ٩٥

لتمحو من نفس عائشة الاعتراف بما فى ضرائرها من مميزات فقالت عن ميمونة[1] . « كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم »[2] .

يعلق المؤرخون أهميــة كبرى على حادثة هجر الرسول لنسائه ، وذلك للأســباب التى أوجدتها ، وللنتائج التى خلفتها ، وهى حادثة الخيار ، التى خير بها الرسول نساءه ، بين الدار والدنيا والآخرة ، ولم تعد هذه الحادثة طلاقاً فتقول بذلك عائشة : « قد خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعد ذلك طلاقاً »[3] .

ومع أهمية هذه الحادثة لم يبحثها المؤرخون بشكل منظم دقيق .

وروى عن عمر بن الخطــاب أن حادثة الخيــار حدثت حين كانت غسان تغزو المسلمين فى المدينة ، وكان ذلك فى السنة التاسعة للهجرة زمن غزوة تبوك[4] .

ولهذه الحادثة أسباب كثيرة ، تجمعت وأدت إلى ثورة فى نفس الرسول ، وتصميمه على إعطاء أزواجه درساً حازماً ليؤمن الهدوء البيتى .

وليس أمراً منكوراً ، أو مجهولا فقر النبى ، فقد توفى ودرعه مرهونة بثلاثين صاعاً من شعير[5] ، ثم إنه « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ، ولا درهما ،

(١) تزوج الرسول صفية فى غزوة خيبر سنة سبع ، وبعد انتهائه من غزوته خرج من المدينة إلى مكة لقضاء فروض العمرة كما كان الاتفاق بينه وبين أهل مكة فى العام السابق ، وتزوج ميمونة فى ذلك الوقت قبل خروجه إلى العمرة فى السنة العاشرة للهجرة ، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب ويقال إنها هى وهبت نفسها للرسول . كان يود الرسول أن يبنى بها بمكة ، ولكن قريشاً أوعزت له بالخروج ، بعد أن مكث فيها ثلاثة أيام ، فخرج إلى أن انتهى بسرف ، فأتاه بها مولاه أبو رافع وهى آخر امرأة تزوجها الرسول . وكانت قبل أن يتزوجها الرسول تحت أبى رهم بن عبد العزى القرشى ، وكانت قبلا عند غيره : يوجد اختلاف فى سنة وفاة ميمونة فالبعض يقول : إنها توفيت سنة إحدى وخمسين ، والبعض الآخر يقول فى سنة إحدى وستين فى خلافة يزيد بن معاوية فى سرف وهو موضع على ستة أميال من مكة وقيل سبعة وتسع واثنتى عشرة (ياقوت جـ ٥ ص ٧٠ ، ٧١) (ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٥ و جـ ٣ ص ٨٩ وجـ ٤ ص ١٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٩٩ — ابن حجر جـ ٨ ص ١٩٢

(٣) المسند جـ ٦ ص ١٦٣

(٤) ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٩ (٥) المسند جـ ٦ ص ٢٣٧

ولا عبداً ، ولا أمة ، إلا بغلته البيضاء ، التى كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة »[1] وكان ينفق كل ما يصله فى سبيل الله ، وقد سببت حالته المادية هذه إلى معيشة ضنك بالنسبة له ولزوجاته جميعاً . وقد مر بنا فى مواضع متفرقة أمثلة لفقره نذكر منها ولمية زواجه بعائشة ، وزواجه بصفية عندما تعسر إيجاد الطعام فى ليلة العرس .

وقد ضاقت نساؤه ذرعاً بهذه الحياة فأجمعن على أن يطلبن منه زيادة نفقتهن ، ليظهرن بالمظهر المناسب ، تدفعهن طبيعتهن النسوية ليتزين ، وبينا هن يطلبن زيادة النفقة استأذن أبو بكر وعمر فدخلا ، فلما علما بالأمر قام أبو بكر إلى عائشة ، وعمر إلى حفصة ، كل يقول لابنته . تسألين رسول الله ما ليس عنده ، فنهياهما ، وقال عمر لحفصة : « لا يغرنك إن كانت جارتك هى أوضأ منك وأحب إلى النبى صلى الله عليه وسلم »[2] يعنى بذلك عائشة .

وقد كان ذلك الطلب مستحيلا بالنسبة إلى الرسول ، لا لفقره فقط ، و إنما لسبب آخر هو رأيه فى وجوب الانصراف عن البذخ والترف ، والاكتفاء بما يسد الحاجة ، فذلك أقوم سبيلا إلى الله ، وأدعى لما تفعله أمهات المؤمنين ، ليكن القدوة الصالحة لسائر نساء المسلمين .

ولم يلق هذا الطلب حسن القبول من الرسول فغضب منهن ، وأقسم أن يقاطعهن شهراً وفعل .

والسبب الثانى لهذه الحادثة غيرة عائشة وحفصة من مارية القبطية . فعائشة وحفصة صديقتان ، ولئن أخمدت حفصة نار الغيرة فى نفسها من عائشة فإنما فعلت ذلك بعد توصية أبيها لها ، و بعد أن ذاقت ذل طلاق الرسول لها ، حتى أمر الله أن يردها إليه .

(١) البخارى ج ٣ ص ١٩١
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٥ (راجع ابن سعد ج ٨ ص ١٣٧)

إلا أنه لم يكن هنالك سبب يحملها على عدم الكيد لمارية ، فقد حلت من نفس الرسول منزلة كريمة أثارت نفس ضرائرها . فلا عجب إذن أن تغار أمهات المؤمنين وأن يتجسسن عليها ، وقد أقدمت مرة حفصة على ذلك ، فرأت النبي يزورها فى غير يومها ، بل إنه يزورها فى يوم عائشة ، فما أعظم الخبر ! لابد أن تسر الأمر إلى صديقتها عائشة ولكن الرسول طلب منها ألا تفعل . وقال : « فاكتمى عنى وهى حرام »[1] وذلك لتخفيف وطأة الغيرة على عائشة . ولكن الطبيعة الإنسانية غلبت فى نفس حفصة فأخبرت عائشة بالأمر .

فماذا يكون موقف عائشة ؟ تلك الفتاة التى غلبتها الغيرة حتى تعدت الأحياء إلى خديجة وهى بين الأموات ! لابد أن تثور نفسها ، وأن ترى فى هذا التصرف اعتداء عليها فتغضب . ولابد أنها أثارت جدلا يبعثه العناد والألم ، ولما أصمت المرأة أذنها من سماع نصح النبوة — فتجاهلته حفصة أولا وعائشة ثانية — أراد الرسول أن يفهمهما من طريق آخر فيلقى عليهما درساً يفيدهما فى مقبلات أيامهما ، فقرر مقاطعتهما شهراً ، على هذا العصيان ، وعلى ذاك اللجاج ونفذ أمره .

وأما السبب الثالث فهو غيرة عائشة من زينب ، عندما كان الرسول فى بيت عائشة ، وأهدى إليه هدية ، فأرسل إلى كل امرأة من زوجاته نصيبها ، فردت زينب بنت جحش حصتها ، ثم زادها مرة أخرى ، فردتها ، وقالت له عائشة : « لقد

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١٣٤ . وبهذه المناسبة نزلت الآيات من ١ — ٥ من سورة التحريم: (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) .

ويروى أن هذه الآيات الأربع الأولى من سورة الأحزاب نزلت عند ما تآمرت عائشة وحفصة على زينب بنت جحش . أنظر الكتاب ص ١١٠

أقمأت[1] وجهك حين ترد عليك الهدية فقال : أنتن أهون على الله من أن تقمئنى ، والله لا أدخل عليكن شهراً[2] » .

ومن هذه الأسباب أيضاً ، تآمر عائشة وحفصة على الرسول ، لتخفيف زيارته لزينب[3] ، وذلك عند ما كان يحتبس عندها أكثر من غيرها ، واتفقا أن يقولا له إن ريحته مغافير — وهى طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة — ففعلا وقال الرسول إنه شرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن يفعل ذلك بعد .

هذه الأسباب كلها مجتمعة ، ومحورها الغيرة والمنافسة والخصومة — كعائشة وزينب ، وعائشة وصفية مثلا — أخذت كثيراً من وقت الرسول وكانت أمور الدين أحرى أن يصرف فيها هذا الوقت ، ومن ثم أراد أن يوجههن التوجيه الصحيح ليرد الأمور بين زوجاته إلى نصابها ، وليستبدل بهذه العاصفة الهوجاء جوا هادئاً ، فيسهل له بذلك الانصراف إلى التفكير والعمل .

هدد الرسول نساءه متخذاً موقفاً حازماً . إما فراق بحسن تسريح ، وإما بقاء بحسن التصرف ، فانقطع عنهن شهراً كاملا ، انصرف به إلى التفكير فى أمور المسلمين عامة ، وأموره خاصة ، وكان أبو بكر وعمر فى قلق لما حدث ، ولا سيما حين شاع الخبر بين المسلمين بأن الرسول طلق نساءه ، فاستأذن عمر الرسول فسأله عن ذلك فنفى النبى الخبر ، فخرج عمر ، وأعلم المسلمين . وهذا يبين لنا أن عمر وأبا بكر لم يرغبا فى نشر مثل هذه الأقاويل ، عن الرسول وزوجاته ، خوفاً من انتشار الإشاعات ، وتبلبلها ، وظهورها فى صورة لا تتفق مع الحقيقة ، وامتداد أثرها إلى القبائل والبيوت التى كانت تربط الرسول بها روابط المصاهرة والتزاوج .

مضى تسع وعشرون ليلة ، والرسول منقطع عن زوجاته ، ونزلت الآية الكريمة بخيارهن وقد علمت عائشة قبل غيرها بها ، إذ استدعاها الرسول ، وقال لها : « إننى

(١) أذلت وجهك، مادة قمأ فى لسان العرب .
(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ١٣٧
(٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٧٦ — بخارى جـ ٣ ص ٣٥٨ — ٣٥٩

سأعرض عليك أمراً ، فلا عليك ألا تعجلى فيه حتى تشاورى أبويك ، قالت عائشة : — فقلت وما هـذا الأمر — فتلا عليها (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما) . سورة الأحزاب آيتا ٢٨ و ٢٩ — فقالت — وفى أى ذلك تأمرنى أشاور أبوى بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة »[١] .

فسر بذلك الرسول وأعجبه قولهـا وقال انه سيعرض على صواحبها ما عرض عليها فرجته أن لا يخبر سائر زوجاته بمـا اختارت فخيرهن فاخترن جميعاً الله ورسوله[٢] .

ويدلنـا ابتداء النبي بعائشة على مقدار منزلتها عنده ، وفى رفضها مراجعة أبويها واختيار الله ورسوله دليل على شدة ارتباطها به وتفضيلها حياة الكفاف على نعيم الحياة وعلى بعدها من مواطن الضعف النسائى فرضيت بالقليل المـادى لتنعم بالكثير المعنوى .

فما كان موقف هؤلاء الزوجات عامة ؟ كن نادمات تائبات ، وخاصة لم يجدن أذناً مصغية من أبى بكر أو عمر وغيرهما من المسلمين ، بل على العكس فقد وجدن لوماً وتوبيخاً . ولعل صوت الدين والضمير ردهن إلى الصواب ، وذلك من قول عائشـة عند ما دخل عليها الرسول بعد أن انقض التسعة والعشرون يوماً ، « بأبى أنت وأمى يانبى الله قلت كلمة لم ألق لهـا بالا فغضبت على »[٣] . ولقد كانت الزوجة الشابة أشد ما تكون إلى لقاء زوجها ، وذلك من قولهـا له عند ما دخل عليها بعـد أن مضى تسع وعشرون يوماً ، أنه أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً وقد دخل من تسع وعشرين وهى تعدها عداً[٤] .

وكذلك نرى من هذه الحادثة تضامن نساء الرسول فيما يتفق ومصلحتهن جميعاً

(١) المسند جـ ٦ ص ١٨٥ (راجع أيضا البخارى جـ ٢ ص ١٠٦)
(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ١٢٩ — ١٣٠ — المسند جـ ٦ ص ٢١٢ ، البخارى جـ ٢ ص ١٠٦
(٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٣٧
(٤) المسند جـ ٦ ص ١٦٣ ، البخارى جـ ٢ ص ١٠٦

ثم جرأتهن ومناقشته مما يدلنا على احترامه لهن، فكن يطلبن ما يشتهين، ويرفضن ما لا يرغبن، ولكن الرسول لم يكن ضعيف الإرادة والشخصية ليذعن لمشيئة نسائه أو ينفذ رغبتهن التي تبتعد عن روح رسالته، ثم أراد أن يضع حداً لمنازعاتهن ليتهيأ له الجو المساعد على نشر العقيدة الدينية.

كما كانت هذه الحادثة سبباً في نزول كثير من الآيات الكريمة التي وضعت نظماً خاصة لنساء الرسول وقواعداً ميزتهن عن غيرهن من النساء وحددت مواقفهن، منها، سورة الأحزاب آيات ٤٩—٥١ (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما[1] ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما[2]. لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك

(١) آية ٤٩ — قد أحل الله للرسول كل امرأة أتاها مهرها وإماءه اللواتي سباهن فلكهن بالسباء، وبنات عمه، وبنات خالاته، اللاتي هاجرن معه دون من لم يهاجر منهن معه، كما أنه أحل له المرأة التي وهبت نفسها للنبي. قال بعضهم إنها كانت ميمونة بنت الحرث وقال بعضهم هي أم شريك وقال بعضهم زينب بنت خزيمة. وقد فرض الله على المسلمين ألا تتزوج امرأة إلا بولي وصداق عند شاهدي عدل، ولا يحل لهم من النساء إلا أربع، وما ملكت أيمانهم اذا كن مؤمنات أو كتابيات. ولقد أباح الله هؤلاء النساء المسميات في هذه الآية حتى لا يكون على الرسول إثم وضيق والله غفور للنبي ولأهل الإيمان ورحيم به وبهم (الطبري التفسير جـ ٢٢ ص ١٥ — ١٨).

(٢) آية ٥٠ — اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية، قال بعضهم ترجي من تشاء منهن أي تعزل بغير طلاق من أزواجك من تشاء. وتؤوي إليك من تشاء، قال تردها إليك. وقال آخرون أن يدع من يشاء منهن ويأتي من يشاء منهن بغير قسم، وكان نبي الله يقسم ويقول بعضهم أيضا، أنه لما أراد الرسول أن يفارق نساءه، فقلن له: يانبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت فكان ممن أرجأ منهن سودة بنت زمعة، وجويرية، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة وكان من آوى اليه=

حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً[1] » .

يتضح مما مر أن كل ما كان بين عائشة وضرائرها من اتفاق أو اختلاف ومن خصومة بينهن ، إلى مغاضبة الرسول، هو الذى يحدث عادة بين الضرة وضرتها، و بين الزوجة وزوج فى عصمته عدة نساء ، و إن الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية التى يحلو لبعض كتاب التاريخ الإسلامى من الإفرنج الخوض فيه ، و إنما كان محصوراً فى النوازع النفسية الشخصية التى كانت تمازج زوجات الرسول . ولعل مما يرد على هؤلاء أيضاً ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر وتفانيهن فى إرضاء زوجهن .

= عائشة ، وأم سلمة ، وحفصة ، وزينب . وجاء أيضا أنه بعد أن خير الرسول نساءه اخترن الله ورسوله ، فقيل لهن أن يرضين بالله ورسوله سواء سوى بينهن الرسول فى القسم أو النفقة أو فضل بعضهن على بعض. وكان الرسول يسوى بينهن فى القسم إلا امرأة منهن أراد طلاقها . ولقد جاء عن عائشة أن هــذه الآية نزلت لأنها كانت تعير النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله الطبرى التفسير ج ٢٢ ص ١٨ — ١٩

(١) آية ٥١ — لا يحل للرسول النساء بعد نسائه اللاتى خيرهن فاخترن الله ورسوله وهن تسع ولا أن يبدل بهن من أزواج (الطبرى — التفسير ج ٢٢ ص ٢١)

الباب الرابع

الفصل الأول

أثر السيدة عائشة فى الحياة العلمية

لم يكن للعرب فى الجاهلية علم بالمعنى المفهوم [1]، بل معارف متفرقة فى النواحى اللغوية والنحوية، ومجموعات من الأمثال، والقصص، وغير ذلك من معلومات أولية بالأنساب، وملاحظات سطحية بالفلك والطب، أخذها السلف عن الخلف، وبنيت على الاختبار والتجربة. غير أن العلم والفلسفة لا أثر لهما فيه، وذلك لأن للميدان العقلى مراحل وأطوار معينة، لا بد من اجتيازها خطوة خطوة [2]. فقد قطع العرب فى جاهليتهم مرحلة ملاحظة الانسان للحوادث الطبيعية، والاستفادة منها [3]، وبدءوا فى تعليل ملاحظاتهم، فكان تفسيرهم لها غالباً خرافياً وميثولوجياً، ويبدو لنا ذلك من أخبارهم المنقولة إلينا، فى الكهانة، والعرافة، والقيافة، وزجر الطير، ومن كثرة آلهتهم، ومركز هذه الآلهة فى حياتهم، غير أنه كان لهم بعض التعليلات السببية. ونستدل على ذلك من بعض ما وصلنا من طبهم وحكمهم وأمثالهم.

جاء الإسلام، واقتضى وجود هذا الدين الجديد بعض العلوم — وهى العلوم

(١) يراد بالعلم: معارف محققة منظمة

(٢) وأول مرحلة للحياة العقلية هى ملاحظة الانسان القديم، لحوادث الطبيعة، ثم استفادة الانسان، من هذه الملاحظات، فى سبيل حياته العملية، واستغلال الطبيعة والسيطرة عليها، وثالثا تعليل هذه الملاحظات وتنظيمها، أى جمع هذه التعليلات الجزئية فى نظريات عامة :

(٣) ومثلا على ذلك ملاحظة أن بعض الحيوانات مكسوة بالجلد فيحاول الانسان الحصول على جلد الحيوان واستعماله لدفع خطر البرد.

الإسلامية — القرآن والحديث والفقه ، كما أن العلوم التى كانت فى الجاهلية ارتقت ، وقطعت شوطاً فى حقل التطور العلمى ، ثم ظهر نوع جديد من العلوم — تسمى بالعلوم الدخيلة أو الأجنبية — ، التى نقلت إلى العربيـة من اللغات الأخرى ، كالطب والفلسفة والفلك والهندسة ، وسائر العلوم الطبيعية والرياضية [1].

وجملة القول ، كان الجهل متفشياً لا سيما فى الأقطار البـدوية ، وكان من يقرأ ويكتب عند دخول الإسلام من قريش سبعة عشر رجلا [2] ، ومن النساء قليلات [3] . أما فى غير الحجاز فـكان الـكاتبون أقل وأندر .

وقد حض الإسلام على العلم ، والقرآن الـكريم ملىء بالإشادة بأهل الذكر أى أهل العلم . والرســـول كثير الحماس لذلك ، وقد قال : « العلم فريضـــة على كل مسلم » [4] ، ويضيف بعضهم « على كل مسلمة » والأول يغنى عن هذه الإضافة ، وكلمة كل مسلم تشمل الجنسين .

ولعل كلمة فريضة التى استعملها الرسول فيها الدلالة على مبلغ اهتمامه ، وعنايته بهذا الموضوع ، ففيها معنى الواجب الحتمى العام ، لا يستطيع أحد أن يتعلل إزاءه . ولدينا فى تاريخ الرسول مثل رائع ، يدل على مبلغ حرصه على نشر العلم بين المسلمين ، فقد جعل فداء الأســير من قريش أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والـكتابة ، رغم حاجة المسلمين ، إذ ذاك ، المادية إلى فداء يسـاعدهم على تحســين أحوالهم .

(١) جرجى زيدان — التمدن الإسلامى ج ٣ ص ٣٧

(٢) وهم عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحه ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأبو حذيفه بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وابان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى ، وحويطب بن عبد العزى العامرى ، وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وجهيم بن الصلت ، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمى .

(٣) حفصة ، وأم كلثوم من زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، والشفاء بنت عبد الله العدوية.

(٤) السيوطى ج ١ ص ٣٨

كما أنه جعل نشره أفضل الصدقات، بقوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم»[١].

وأى مغزى عظيم يعطينا قوله عليه السلام اطلب العلم ولو بالصين[٢]، إنه حث على الاغتراب فى طلبه، يجمع بذلك المسلم مختلف ما أنتجته قرائح البشر، فلا يجب أن تقف فى وجه المسلم فى سبيل أداء هذه الفريضة صعوبة ولا عقبة، وقد ذكر الصين لا لذاتها، وإنما لبعدها ومقدار المشاق التى يتحملها المرء فى سبيل الوصول إليها، كأنما أراد بذلك أن يقول للمسلم، لا تقعدن بك المشاق والصعاب عن تحصيل العلم. وكان تقديره للعلماء فى الدنيا والآخرة كبيراً، وطلب من المسلمين اتباعهم واحترامهم، والاستفادة منهم، إذ قال: «اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة»[٣].

وقوله أيضاً: «العلماء هم ورثة الأنبياء»[٤]، فهل بعد ذلك تحريض وتشجيع على العلم وتعزيز له أكثر من ذلك. إن الإسلام اندفع فى سبيل ذلك إلى أقصى الدرجات، بل إلى درجة لم تبلغها مدنية سابقة ولا حاضرة، إذ لم يزل العلم حتى يومنا هذا يلقى تشجيعاً من الحكومات، لا واجباً فرضاً على الأفراد، وهنالك فرق ما بين الأمرين.

لقد صدع المسلمون الأولون بأوامر الدين، فبعد أن استقروا بعض الاستقرار، واتصلوا بالمدنيات القديمة نقلوا عنها ما لديها من علوم وفنون، وأضافوا إليها ما أبدته قرائحهم، فكانت تلك المدنية الأسلامية الزاهرة. ولا يعنى ذلك أنهم كانوا قبل استقرارهم ونقلهم العلوم فى جمود، بل انصرفوا إلى دراسة الدين والتفقه فيه، وإلى دراسة ما كان يحيط بهم من علوم ومعارف. وليست أخبار حلقات الوعاظ والمحدثين بقليلة.

إن العلم بالدين، أول الواجبات ليعرف المرء نفسه وربه، ويعرف حقوقه وواجباته،

(١) السيوطى جـ ١ ص ٤٣ (٢) نفس المصدر جـ ١ ص ٣٨
(٣) نفس المصدر جـ ١ ص ٦ (٤) البخارى جـ ١ ص ٢٨

وما أروع ما خلفه لنا المسلمون الأولون من آثار فى هذا الباب ، ولعل من نافلة القول أن نذكر الآثار الضخمة التى خلفها العصر العباسى من علم وأدب وفن وفلسفة وطب ، لقد طرقوا كل باب ، وتوصلوا فيه إلى نتيجة ، وكان لدعوة دينهم وحثه على العلم أثره فى ذلك . ألا ما أعظم قول الرسول : العلم فريضة على كل مسلم .

ولم تتخلف المرأة المسلمة كثيراً عن الرجل فى هذا الشأن ، فما أكثر ما تحدث التاريخ عن نساء عالمات ومتعلمات ، وقد تكون نسبة الرجال أكثر لما تمتعوا به من ميزات خاصة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، إلا أنه كان للمرأة أيضاً نصيب كبير . فما أعظم أثر السيدة عائشة فى حفظ تراث الإسلام ! وكثير غيرها كسكينة بنت الحسين ، ورابعة العدوية .

وكان الحجاز بمدينتيه مكة والمدينة مركز الحياة العلمية فى عهد السيدة عائشة ، ذلك إيجاباً للأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية . فتاريخ مكة قبل الإسلام ، ووجود قريش والكعبة ، ثم ظهور الإسلام فيها صبغ مكة بصبغة علمية ، غير أن المدينة أصبحت فيما بعد أكثر علماً وأوفر شهرة ، فهجرة النبى وأصحابه إليها ، جعلها منبع التشريع الإسلامى ، وكانت نقطة التركز للحياة الإسلامية عامة ، زمن الرسول ، فجذبت إليها رجالات العرب وعقلائها ، ووردت إليها الأسرى فى عهد الفتوح من الفرس والروم ، فكان بعضهم من الطبقة الارستقراطية المتعلمة ، فأسلموا وامتزجوا بالمسلمين ، وصبغوا الحياة الإسلامية بلون جديد ، من الثقافة والتنظيم والتدوين [1] .

ونعود الآن فنتساءل عن أثر السيدة عائشة فى الحياة العلمية ، ولقد مر معنا الكلام عن بيئة السيدة عائشة ، ونشأتها ، وأثر ذلك فى تكوين خلقها وشخصيتها ، والصفات التى أكسبتها إياها حياة البادية ، منها فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، وفضلا عن ذلك، فقد ربيت فى بيت أبى بكر ، أعلم الناس بأنساب العرب، وأخبارها ،

(١) راجع كتاب فجر الإسلام للأستاذ احمد امين ج ١ ص ٢٠٩ — ٢١٦

الذى أخذ عنه الكثيرون منهم جبير بن مطعم، الذى يقال عنه إنه كان أنسب قريش لقريش ، وللعرب قاطبة ، وكان جبير يفخر أنه أخذ هذا العلم ، عن أبى بكر الصديق فقال : « إنما أخذت النسب عن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر الصديق أنسب العرب »[1]. كما كان أبو بكر بعد إسلامه أقرب الصحابة إلى الرسول وأعلمهم فى أمور الإسلام ، وأحرصهم على تعاليم النبى وامتثالها . فلا شك أن عائشة أخذت عن أبى بكر كثيراً ، ثم انتقلت إلى حجر الرسول ، وكانت أكثر نسائه اتصالا به ، وأقربهم إلى معين العلم ومنهله . أضف إلى ذلك، مؤهلات عائشة واستعدادها الطبيعى ، فقد كانت متوقدة الذكاء ، سريعة الخاطر ، حاضرة الذهن ، كثيرة السؤال ، محبة الاستطلاع بكل ما يحيط بها ، ولقد أوردت على الرسول من الأسئلة فى كل ما تعذر فهمه عليها فى مواضيع شتى فى القرآن، والفقه، والأخبار ، والحوادث، وجميع مايتعلق بشئون الإسلام ، ورجالاته ، من دين ودنيا . وكانت تسر لسماع حديثه وكلامه ، وكانت تقول عنه عليه الصلاة والسلام إنه لم يكن يسرد سرداً ، بل يحدث حديثاً . وقد اعتمد الرسول عليها ، لما امتازت به من الذكاء والنباهة ، ولثقته بقوة ذاكرتها ورجاحة عقلها . كل ذلك جعله يشرح لها كثيراً من مسائل الدين ، ويطلعها على كثير من الأفعال لتكون هى أحد المراجع التى يرجع إليها ، فيما يستعصى من أمور الدين، ولا شك أنه كان يتبسط معها فى حياته أكثر من غيرها ، بدليل أنها هى التى نقلت إلينا صورة هذه الحياة ، دون زوجاته الباقيات .

ولعل شدة إعجاب الرسول بها ، وتوجيهه إياها من جهته ، وإعجابها هى به ، وحبها الشديد له ، من جهة أخرى تقابلا مع استعدادها الطبيعى ، فجعلا منها أرفع من سائر زوجاته، بل أرفع وأعلم من كثيرين من رجال عصرها فى المسائل المتعلقة بحياة الرسول وأحاديثه ، ومسائل الصلاة والصيام والعبادات .

وبعد وفاة الرسول كانت عائشة قد تقدمت فى نضجها فأصبحت المرجع الأول

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٢

فى كل ما يتعلق بالعلوم الإسلامية ، لا فى المدينة فحسب بل فى الأمصار الإسلامية كلها ، إذ كان حين يشكل على المسلمين أمر من الأمور كانوا يكتبون إلى أصحاب الرسول فى الحجاز ، يسألونهم عن حكم الله ، وكان هؤلاء إذا تعذر عليهم علم شىء رجعوا إلى العلماء والفقهاء والمتحدثين فى المدينة ، منهم أبو هريرة ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس وجابر ، وأنس بن مالك ، وعروة بن الزبير ، وغيرهم ، وعلى رأسهم عائشة أم المؤمنين ، التى كانت عند سماعها خطأ فى الروايات أو الأحكام صححته ، وروت ما خفى عن الصحابة خصوصاً فيما يتعلق بشئون الرسول البيتية ، التى لم يتيسر لهم الاطلاع عليها ، وهكذا أصبح من شك فى رواية أو حكم جاء عائشة مستفسراً وإن كان بعيداً كتب إليها سائلا[1] . ولقد استدركت عائشة على كثير من أعلام الصحابة ، منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو هريرة ، ومروان بن الحكم ، وابن مسعود ، وعبد الله ابن الزبير ، وغيرهم[2] . وكان الخلفاء أنفسهم يستشيرون عائشة فى كثير من أمور الدولة ، وظلت كذلك إلى أن توفيت ، فى صدر الدولة الأموية ، زمن الخليفة معاوية — أحد دهاة العرب الأربعة — الذى كان لا يطمئن إلى حكم أو حديث إلا إذا أثبتته عائشة أم المؤمنين

ونعود الآن وبحث علم عائشة بالتفصيل وأثرها فى كل من تلك النواحى . فنتساءل أولا هل كانت رضى الله عنها تقرأ وتكتب ؟ ويبدو لنا أنها كانت تقرأ ولا تكتب وذلك مما جاء فى البلاذرى[3] « أن عائشة كانت تقرأ المصحف ولا تكتب » وأن قراءتها كانت ضعيفة .

وذلك من قولها فى « حديث الإفك » إنها كانت جارية حديثة السن ، لا تقرأ من القرآن كثيراً[4] وأعتقد أنها ازدادت معرفة بالقرآن بعد ذلك ، ولربما يتساءل

(١) المسند جـ ٦ ص ٨٧
(٢) الزركشى ص ٧٩، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٤، ١٥٥
(٣) البلاذرى الفتوح ص ٤٧٢
(٤) المسند جـ ٦ ص ١٩٦ بخارى جـ ٣ ص ١٠٧

البعض كيف كان لعائشة أثر كبير فى الحياة العلمية الإسلامية ، وهى لا تكتب ، لا بل تقرأ قراءة ضعيفة ، وأرجو ألا يغيب عن ذهننا أن العلوم الإسلامية كانت تروى شفاها ، وتحفظ حفظاً وسماعاً ، وأنها لم تدون إلا فى القرن الثانى للهجرة ، ومن كان يدون فإنما كان يفعل ذلك لنفسه . وعائشة بحكم مركزها من الرسول ، ولذكائها وحرصها على اتباع رسالة محمد كانت تمتاز بكثرة الحفظ ودقة الرواية .

وأبرز ما برزت فيه عائشة رواية الحديث ، وقد اعتمد علماء الحديث على كثير مما نقل عنها لأنها كانت صادقة فيما تنقل ، عالمة بأحكام الدين ، وكان ابن الزبير إذا حدث عنها ، يقول : « والله لا تكذب عائشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً »[1] كما أن مسروقاً كان يقول فى نقل الأحاديث عنها « حدثتنى الصادقة — أو الصديقة — ابنة الصديق البرية المبرأة — وقال أيضاً فى رواية أخرى — فلم أكذبها »[2] .

وتعد عائشة من أئمة الرواة ، ومن جملة الستة الذين هم أكثر الصحابة علماً[3] ، إذ يبلغ ما روى عنها ألفين ومائتين وعشرة أحاديث[4] ، وإن كان قد اختلف فى حقيقة هذا العدد[5] .

---

(١) ابن سعد ج ٨ ص ٤٧

(٢) ابن عبدالبر ج ٣ ص ٧٦٦ ابن الأثير أسد الغابة ج ٥ ص ٥٠٤ الذهبي ص ٦٥

(٣) اشتهر من الصحابة ستة، عدوا الطبقة الأولى فى العلم، يختلف العادون فى بعضهم فيضعون واحداً مكان آخر وهم ، عمر وعلى ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وعائشة ، وهؤلاء كلهم من قريش ما عدا ابن مسعود ، فإنه هذلى ، وزيد بن ثابت ، فهو من الأنصار . أحمد أمين — فجر الإسلام ج ١ ص ١٧٩

(٤) العينى ج ١ ص ٤٥ . الذهبي ص ١٧ ، الزركشى ص ٤٠

(٥) وقد اختلف الصحابة فى الحديث عن رسول الله وأكثرهم حديثاً أبو هريرة ، وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وجابر ، وأنس بن مالك ، فحديث أبو هريرة يبلغ ٥٣٧٤ حديثاً ، ولعائشة ٢٢١٠ ، ولعبدالله بن عمر وأنس بن مالك ما يقرب مسند عائشة، ولكل من جابر بن عبدالله وعبد الله بن عباس أكثر من ١٥٠٠ حديثاً . ابن حزم ج ٤ ص ١٣٨ (كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل) .

وروت عائشة بالإضافة إلى نقلها عن الرسول كثيراً عن أبيها، وعن عمر، وفاطمة وسعد بن أبى وقاص، وأسيد بن حضير، وجذامة بنت وهب، وحمزة بنت عمرو[1]، وروى عنها جماعات قريب من المائتين، من الصحابة والتابعين[2]. فمن الصحابة: أبوها أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن عباس، وربيعة بن عمرو الجرشى، والسائب بن يزيد، وعمرو بن العاص، وزيد بن خالد الجهنى، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وعبد الله بن الحارث، وابنا أخيها محمد بن أبى بكر، القاسم، وعبد الله وبنتا أخيها عبد الرحمن: حفصة وأسماء، وابنا أختها أسماء: عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام وحفيدا أسماء: عياد وحبيب ولدا عبد الله بن الزبير، وعياد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير، وبنت أختها أم كلثوم، وعائشة بنت طلحة، ومن مواليها: أبو عمرو، وذكوان وأبو يونس وابن فروخ. ومن كبار التابعين: سعيد بن المسيب، وعمرو بن ميمون، وعلقمة بن قيس، ومسروق، وعبد الله بن حكيم، والأسود بن يزيد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو وائل وآخرون كثيرون[3].

ولم يكن دور عائشة دور نقل للحديث فقط وإنما تجاوزت ذلك إلى الفقه فقد كانت معلوماتها فيه، وفى الأحكام الشرعية وافرة كثيرة، وكان يأخذ عنها كثير من الرجال والفقهاء وقيل إن ربع الأحكام الشرعية منقول عنها[4].

ولم تكن عائشة فقيهة فحسب، بل كانت من أفقه الناس، وكانت تفتى فى خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان، وكانو يسألونها عن أشياء كثيرة إلى أن ماتت[5]. وكان القضاة يجتمعون عندها لحل بعض المشاكل. وقال عمران بن حطان — وهو من

(١) ابن حجر جـ ٨ ص ١٤١
(٢) العينى جـ ١ ص ٤٥
(٣) ابن حجر جـ ١ ص ١٤١، الذهبى ص ١١ — ١٧، هامش الإجابة لما استدركته عائشة عن الصحابة، الناشر سعيد الأفغانى ص ٤١ — ٤٢
(٤) الزركشى ص ٦٣
(٥) البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٥٨، ٦٦٢

أهل السنة والعلم — : « كنت عند عائشة فتذاكروا القضاة »[1] .

أما فرائض الدين فكانت تعلمها كل العلم ، وكان مشيخة من أكابر الصحابة يسألونها عنها[2] ، قال مسروق أيضاً « رأينا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض »[3] .

واختلف فى أمر الإفطار والصلاة ، فدخل عليها مسروق ومعه رجل آخر يسألانها عما اختلف فيه رجلان من أصحاب الرسول فى إقامة الصلاة والإفطار أحدهما يعجل الإفطار ويعجل الصلاة والآخر يؤخر الإفطار ، ويؤخر الصلاة، فكان جواب عائشة أن الرسول كان يعجل الإفطار ويعجل الصلاة[4] .

واختلف مرة مروان بن الحكم ، وأبو هريرة فى مسألة الصيام فأرسلا واستشارا عائشة ، وكان كلامها فصل القول[5] وكذلك كانت الملجأ الأخير ، عندما تنشب الخلافات فى أمر الصلاة ، ويروى أن معاوية صلى بالناس العصر ، وصلى الناس بعد العصر ، فدخل ابن عباس على معاوية وقال : إنه لم ير رسول الله يفعل ذلك ، ولم يأمر بها ، فقال له معاوية : إن ابن الزبير أفتى بذلك ، ودخل ابن الزبير فسأله معاوية ، فقال : حدثتنى عائشة أم المؤمنين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاها فى بيتها ، فأرسل معاوية إلى عائشة يسألها عن ذلك ، فقالت : « لم يحفظ ابن الزبير إنما حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى هذه الركعتين بعد العصر عندى ، فسألته قلت : إنك صليت ركعتين لم تكن تصليهما ، قال : إنه كان أتانى شىء فشغلت فى قسمته عن الركعتين بعد الظهر ، وأتانى بلال فنادانى بالصلاة، فكرهت أن أحبس الناس ،

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٢
(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٥ ، ابن عبدالبر جـ ٢ ص ٧٦٦ ، ابن الأثير، أسد الغابة جـ ٥ ص ٤ بن حجر جـ ٨ ص ١٤٠
(٣) البلاذرى ، الأنساب جـ ١ ص ٦٦٢
(٤) المسند جـ ٦ ص ٤٨
(٥) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٨٤

فصليتهما، قال فرجعت فأخبرت معاوية، قال قال ابن الزبير أليس قدصلاهما فلا تدعهما فقال له معاوية : ولا تزال مخالفاً أبداً »[1] .

وكانت السيدة عائشة إلى جانب ناحيتها الدينية — كمحدثة وفقهية — فصيحة اللسان بليغة الكلام ، قوية الحجة ، تعبر عن أفكارها بأسلوب متين ، وصوت جهورى ، مما ساعدها على اكتساب الأتباع ، والسيطرة على المواقف العصيبة ، ومن ذلك خطبتها فى حادثة « الجمل » وتأليبها الناس على على بن أبى طالب منها . « أيها الناس إن لى عليكم حق الأمومة ، وحرمة الموعظة لا يتهمنى إلا من عصى ربه ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى ، فأنا إحدى نسائه فى الجنة . . ثم أبى ثانى اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمى صديقاً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه ، وطوقه أعباء الإمامة ، ثم اضطرب حبل الدين بعده فمسك أبى بطرفيه . . . . وأنا نصب المسألة عن مسيرى هذا لم ألتمس إثماً ولم أوت فتنة أوطؤكموها أقول قولى هذا صدقاً وعدلا واعذاراً وإنذاراً ، وأسأل الله أن يصلى على محمد ، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين»[2] .

ولقد قال موسى بن طلحة فى فصاحتها : « ما رأيت أفصح من عائشة »[3] ولقد شهد ببلاغتها كثير من الرجال ، منهم الأحنف بن قيس ، إذ قال : « سمعت خطبة أبى بكر ، وعمر وعثمان ، وعلى والخلفاء بعدهم . . . . . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من فى عائشة »[4] ، وكذلك معاوية بعد أن دخل عليها ، وكلمها قال إلى مولاها ذكوان عند خروجه من عندها ، وهو متوكىء على يده . « والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم»[5] ، ونذكر ما قاله ابن أخيها القاسم بن محمد ، بن أبى بكر . « فما رأيت متكلماً ، ولا متكلمة قبلها ،

(١) المسند جـ ٦ ص ١٨٣ — ١٨٤

(٢) ابن عبد ربه جـ ٢ ص ٣٨٦

(٣) الذهبي ص ٧٧ ، الزركشى ص ٦٠

(٤) الذهبي ص ٧٧ ، الزركشى ص ٦٠

(٥) نفس المصدر ص ٦٧

ولا بعدها أبلغ منها »[1] ومن كلامها المشهور ما قالت يوم توفى الصديق منه . « نضر الله وجهك يا أبت ، وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك . . . . . فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك »[2] .

والشعر والأدب ترهف لها حواس العربى ، يتلذذها ، ويجد فيهما لذة لروحه . ولم تكن عائشة إلا عربية صميمة ، نشأت فى جو من الأدب الرفيع ، سمعت الشعر ، وتذوقت أدب القرآن ، فلا عجب إذن أن تتأثر نفسها بالفن الأدبى ، فتتذوق الجيد منه ، وقد حفظت منه الشىء الكثير . وربما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً والمائة بيت[3] وروت للبيد نحواً من ألف بيت[4] وكانت تردد شعره .

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم تترحم عليه وتقول « فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم »[5] وقالت أيضاً « رحم الله لبيداً ، فكيف لو رأى هذا الزمان »[6] .

وكثيراً ما كانت تتمثل بالشعر ، فقد دخل عليها الرسول وهى تروى شعراً لورقة بن نوفل .

إرفع ضعيفك لا يحربك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزا[7]

وقد وجدت فى الشعر وسيلة تعبر بها عن شعورها ، إذا حزبها الأمر ، واشتد

(١) الأغانى جـ ١ ٢ص ١٥
(٢) الزركشى ص ٦١
(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٠ ، الذهبى ص ٧٣
(٤) البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٥٩ — الذهبى ص ٨٢
(٥) الأغانى جـ ١٥ ص ١٤١
(٦) البلاذرى . الأنساب جـ ١ ص ٦١
(٧) الأغانى جـ ٣ ص ١٣

فقد لجأت إليه ترفه عن نفسها ، حين توفى أخوها عبد الرحمن وأبوها . فلما توفى عبد الرحمن بن أبى بكر ، بالحبشى ، فى إحدى جبال مكة على أميال منها حمل ودفن فيها ، فوقفت عائشة على قبره وقالت :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة — من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا — لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

« أما والله لو حضرتك لدفنتك حيث مت ولو شهدتك ما زرتك [1] » .

وقد حمل تعلقها بالأدب ، وتقديره ، وفهمها له ، أن قال الشعبى معجباً بها : « ما ظنكم بأدب النبوة [2] » .

وعندما كان يثنى الناس شعر عروة كان يقول : « وما روايتى من رواية عائشة ، ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعراً [3] » .

ومن ثم زادت معلوماتها اتساعاً بأخبار العرب الماضية ، وأنسابهم ، ذلك الحديث الذى يستطيبه كل عربى ، ويعلمه كل راوية للشعر ، وقد كانت ميزة التحدث إذ ذاك بمقدار ما يعرفه من أخبار الأيام الخوالى للعرب ، ولغيرهم من الأمم ، أما معلوماتها فيما اتصل بأيام المسلمين ، وأنسابهم، فسببه واضح ، فقد عاصرت الإسلام ، ووجدت فى بيت قائده الأعظم ، ثم هى ابنة قائده الثانى ، الذى كان أنسب العرب وأعلمهم بأخبارها وهى بعد ذلك أم المؤمنين ، ومن أعلم من الأم بأنباء بنيها . .

وإلى جانب معلوماتها بالأخبار ، والأنساب ، كان لها إلمام واسع بعلم الفلك . ويروى أن عائشة بنت طلحة ، ابنة أخت عائشة أم المؤمنين ، وتلميذتها قدمت على هشام الذى بعث عند حضورها إلى مشايخ بنى أمية ، وقال : « إن عائشة عندى فاسمروا عندى الليلة، فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٦ — (المبرد ٧٢٤ — ٧٢٥)
(٢) البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٥٩
(٣) ابن عبد البر ج ٢ ص ٧٦٦ ، الذهبى ص ٨٢ ، ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠

إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته ، فقال لها هشـام ، إن الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتي عائشة ، فأمر لهـا بمـائة ألف درهم وردها إلى المدينة [1].

ولم تخل من معلومات واسعة فى الطب ، فسألها عروة مستغرباً « يا أمتاه لا أعجب من فهمك ، أقول زوجك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بنت أبى بكر ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس ، وأقول ابنة أبى بكـر ، وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس ، ولـكن أعجب من علمك بالطب ، كيف هو ، ومن أين هو ، قال « فضربت على منكبه وقالت : أى عريه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم عند آخر عمره أو فى آخر عمره ، فـكانت نقدم عليه وفود العرب من كل وجـه ، فتنعت له الانعات ، وكنت أعالجها له فمن ثم» [2] وفى روايات أخرى أن الوفود كانت تنعت العلاج للرسول ، ولها ، ولبعضهم بعضاً ، ففهمته وحفظته [3]. وسئلت مرة أخرى « يا أم المؤمنين هذا القرآن تلقيته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الحلال والحرام، وهذا الشعر والنسب وأحاديث النـاس ، سمعتيها من أبيك وغـيره ، فما بال الطب قالت . كان الوفود تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزال الرجل يشكو علة فيسأله عن دوائها فيخبره بذلك فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته وحفظته » [4].

شهد رجال الرأى والمعرفـة بعلم عائشة وذكائها ، قال عنها عطاء بن أبى رباح « كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً فى العامة [5] » وقال عروة « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة [6]» . وكان أكابر

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٦٠
(٢) المسند جـ ٦ ص ٦٧
(٣) الطبرى ، محب الدين — السمط الثمين ص ٧٥ ، الذهبى ص ٦٦ الزركشى ص ٥٩ — ٦٠
(٤) البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٥٩
(٥) ابن عبد البر جـ ٢ ص ٧٦٥ ، ابن الأثير — أسـد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٤ ابن حجر جـ ٨ ص ١٤٠
(٦) ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٤ ، ابن حجر جـ ٨ ص ١٤٠

الرجال يقرون لها بتفوقها عليهم ، وقال أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه « ما شكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً »[(١)] وجاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى [(٢)] أن الشعبي كان يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها . وقال أبو سلمة ابن عبد الرحمن « ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أفقه فى رأى إذا احتيج إلى رأيه ولا أعلم بآية فيمن أنزلت ولا بفريضة من عائشة »[(٣)] وروى عن هشام عن أبيه أنه قال : « لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية نزلت ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشعر ولا أروى له ولا بيوم من أيام العرب ولا بنسب ولا بكذا ولا بكذا . . ولا بقضاء ولا طب منها »[(٤)] كما أن الأعمش قال عنها « إنها رجلة الرأى » [(٥)] ويمكننا أن نقول بعد ذلك : « لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل »[(٦)].

ويمكننا أخيراً أن نتصور المركز الكبير الذى كانت تحتله تلك المرأة العظيمة ، فقد كانت ولا تزال ، مثاراً للعجب والإعجاب ، فقد جمعت من علم متعدد النواحى ، وذكاء وقاد ، ماجعل الرسول يوصى المسلمين قائلا «خذوا شطر دينكم عن الحميراء »[(٧)] فهى لا تزال فى مكانة لم يدركها بعدها أحد .

(١) ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠
(٢) ج ١ ص ٦٥٩
(٣) البلاذرى الأنساب — ج ١ ص ٦٥٩
(٤) الذهبي ص ٦٦ — ٦٧
(٥) البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٥٩
(٦) نفس المصدر ج ١ ص ٦٥٩ ، ابن عبد البر ج ٢ ص ٧٦٥ — ٧٦٦ ، ابن حجر ج ٨ ص ١٤٠
(٧) الزركشى ص ٦١ حدث موضوع من حيث اللفظ وإن كان عليه كثير من شواهد والروايات من حيث المعنى .

الفصل الثانى

أثر السيدة عائشة فى الحياة الاجتماعية

كانت الحياة الاجتماعية فى صدر الإسلام ساذجة تتناسب مع حضارتهم إذ ذاك ، وتنقصنا عنها المعلومات ، إذ أن المؤرخين الأقدمين لم يتعرضوا لهذه الناحية من حياة الأمة إلا تعرضاً بسيطاً ، ومن أجل ذلك كان البحث فى الحياة الاجتماعيــة صعباً ، لأنه قائم على استخلاص أمر مقوماتها من حوادث مبعثرة .

ومركز عائشة وأثرها فى الحياة الاجتماعية مستمد من المكانة التى احتلتها بوصفها أقرب نساء الرسول إليه ، وأكثرهن اتصالا به ، ثم هى بعد ذلك أم المؤمنين . لهذا كله كانت تعطى النصائح والإرشادات كلما وجدت موجباً لذلك لتظيم حياة المسلمين الاجتماعية على نسق واحد ، مستمد من أدب النبوة ، ومن بيت الرساله .

وقد شمل أثرها فى هــذا المجال نواح كثيرة ، فمن آداب العائلة ، وما يجب بينها من روابط ، وما لكل من أفرادها من حقوق ، وما عليهم من التزامات ، إلى ما هو أهم من ذلك ، العلاقات بين الناس ، فى اجتماعاتهم وأحاديثهم ومعاملاتهم والآداب والحدود والواجبات ، لتكون العلافات أقرب إلى التفاهم والرضا ، منها إلى التخاصم والفوضى . ولقد وضعت عائشة نظماً اجتماعيــة لحياة الأسرة ، كما يتبين من أحاديثها وروايايتها لأحاديث الرسول وأعمالها بشأن الزواج والطلاق ، وحسن معاملة الزوج ، وطاعة الزوجة ، ويظهر من حديث لها أن الزواج المبكر للنساء كان مرغوباً فيــه ، فوضعت هى حداً أدنى لذلك ، بقولها « لا تدخل المرأة على زوجها فى أقل من عشر سنين »[1] وكثيراً ما حثت عائشة الناس على حسن السير والسلوك فى البيت ، وإيجاد

(١) ابن قتيبة ج ٤ ص ١

التعاون بين الزوجين ، وضربت لهم مثــلا ما كان يفعله الرسول من تعهد شئون بيته بنفسه لهن ، وحسن معاملته لنسائه وخدمه[١] .

وكثيراً ما وجهت عائشة النصائح للنساء فى زينتهن ولباسهن ، من ذلك تمشيط الشعر بالخمر[٢] ، ونهيها عن وصل شعر النساء[٣] ، وتشديدها على المرأة فى وضع خمار كثيف على جيبها[٤] ، وطالما وجهت عائشة النصح للنساء للعناية بأنفسهن ووجوههن ، ليكن أحسن قبولا عنــد أزواجهن ، فقالت « يا معشر النساء : إيا كن وقشر الوجه. فسألتها امرأة عن الخضاب ، فقالت لا بأس للخضاب ، ولـكن أكرهه لأن حبيبى صلى الله عليه وسلم يكره ريحه »[٥] . ودخلت على عائشة بكرة بنت عقبــة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبــة وماء طهور — وسألتها عن الحفاف[٦] ، فقالت — إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن ممــا هما فافعلى »[٧] . ووضعت عائشة حداً لحداد النساء ، وذلك من قولها « لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج »[٨] . وقد اعترضت الخنساء يوماً ، وعليهــا صدار من شعر ، فاستنكرت عائشة ذلك ، وقد نهى عنــه الرسول ، فأوضحت لها الخنساء السبب[٩] .

(١) المسند جـ ٦ ص ١٦٧ ، ٢٢٩
(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٥٨
(٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ٣٥٢
(٤) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٩ ، ٥٠
(٥) المسند جـ ٦ ص ٢١٠
(٦) هكذا فى الأصل وهو خطــأ حفت المرأة وجهها من شعر قشرته واحتفت المرأة — أمرت من يحف شعر وجهها بخيطين . القاموس المحيط
(٧) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٨ ، الذهبي ص ٧٣
(٨) المسند جـ ٦ ص ١٨٤
(٩) المبرد ص ٧٢٧ ، ٧٢٨ كان زوج الخنساء مسرفاً ، أراد أن يسافر ولم يكن معه مال فذهبت إلى أخيها صخر ، فشاطرها ماله فتلفه زوجها ، وتكرر ذلك ثلاثاً أو أربع مرات ، ولمــا ذهبت إلى صخر للمرة الأخيرة قالت له امرأة : إن هذا المال متلف فامنحها قليلا منه فقال صخر

والله لا أمنحهــا شرارها ... ولو هلكت خرقت خمارها

واتخذت من شعر صدارها

فلما هلك صخر اتخذت الخنساء هذا الصدار

ولم تسكت عائشة عن إساءة الرجل للمرأة ، فعندما كان أخوها عبد الرحمن ابن أبي بكر بتجارة فى بيت المقدس هام بليلى بنت الجودى ، وامتلكها بعد فتح دمشق ، ثم ملّها بعد ذلك ، وكان يسيء إليها ، فعلمت بذلك عائشة ، وقالت : « ياعبد الرحمن لقد أحببت ليلى ، فأفرطت ، وأبغضت ليلى ، فأفرطت . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها، فجهزها إلى أهلها »[1]. كما أنها كانت تحرص على أن يشيع التفاهم بين الأزواج، ويسوءها أن يحل بينهما الكدر، فى ذلك ، إنها كانت تذكر لعائشة بنت طلحة خطأ وقعت فيه ، إلى جانب ذنوبها ، هو غضبها من زوجها ، وهجرها إياها أربعة أشهر ، حتى ردها إليه عبد الله ، بناء على نصيحة عائشة أم المؤمنين[2] .

كانت عائشة المرجع الأول والأخير فى المسائل الخاصة بنساء الرسول وأمورهن ، وقد أردن أن يرسلن عثمان إلى أبى بكر يسألنه ميراثهن من الرسول ، فقالت عائشة « أوليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يورث ما تركناه فهو صدقة »[3] وفى ذلك قاعدة أن الأنبياء لا يورثون ، وأن أموالهم ترجع إلى بيت المال . وعندما أوصت صفية بنت حيي بثلث وصيتها إلى ابن اختها ، قال البعض ببطلان هذه الوصية لأن ابن اختها كان يهودياً فأخبرت عائشة بذلك فأرسلت لهم بوجوب الاعتراف بوصيتها ففعلوا[4] ، وفى ذلك قاعدة أنه تجوز الوصايا بالمال لغير المسلم . وكانت تتفقد أحوال ضرائرها وتعطف عليهن ، وكثيراً ما كانت تشاطرهن ما يرسل إليها من مال وهدايا .

وكان الكثيرون من الرجال يلجئون إليها ويطلبون منها أن تتدخل فى شئونهم الخاصة ، من ذلك أن مرة بن أبى عثمان مولى عبد الرحمن بن أبى بكر سأل عائشة أن تتوسط له لدى زياد بن أبية ، فكتبت عائشة إليه « إلى زياد بن أبى سفيان من عائشة

(١) الآغانى جـ١٦ ص ٩٥ (٢) نفس المصدر جـ ١٠ ص ٥٦
(٣) المسند جـ ٦ ص ٢٦٢ (٤) ابن سعد جـ ٨ ص ٩٢

أم المؤمنين »[1] فسر زياد لذلك، وأكرم مرة كما أنه اتخذ كتاب عائشة كوثيقة رسمية لإثبات نسبه وعرضه على الناس، وأحسن إلى زياد بن أبي بكر، وأقطعه أرضاً فى البصرة، وكان سرور زياد بأن عائشة اعترفت بنسبه إلى أبي سفيان أكثر من سروره، حين اعترف بذلك معاوية. وكانت منزلتها الكبيرة تدفع الكثيرين لأن يسألوها الرضا والاستغفار، كما فعل هدبة بن خشرم[2]. ومن أمثلة حرصها على أن يسود حسن المعاملة والعدل أنها أقسمت ألا تكلم سعد بن أبي وقاص، حين علمت بضربه لمولاه قند ما لم يسترضه سعد، فاضطر إلى استرضائه فرضى عنه وكلمته عائشة[3].

وكانت عائشة تحمل مسئولية أم المؤمنين كاملة فكانت تتفقد شئون المسلمين فتعطف على فقيرهم، وتعطيه ما تيسر لها من العطاء، ولم يكن لديها إلا القليل الذى هى أحوج إليه، ومن ذلك أنها باعت داراً لها بمائة ألف، ووزعت المال على المحتاجين[4] كما أنها كانت تسأل عن المريض، وتواسى المصاب، لا بعد وفاة الرسول فحسب، بل أثناء حياته، فقد استأذنته مرة فى عيادة أبي بكر وعامر و بلال عندما مرضوا فأذن لها فزارتهم متفقدة أمورهم[5] وكانت أيضاً تشارك المسلمين أفراحهم، وتجبر قلوبهم، فلقد حضرت زواج ربيبة لها تدعى القارعة بنت أسعد، وسارت معها فى زفافها إلى بيت زوجها.

وهكذا تغلغل أثر عائشة فى جميع نواحى الحياة الاجتماعية، فشاركت المسلمين

(١) البلاذرى — الفتوح ص ٢٦٠

(٢) الأغانى ج ٢١ ص ٢٧٦

(٣) ابن عبد ربه ج ٤ ص ١١٠ (وكذلك عندما خاصمت ابن الزبير وحلفت أن لا تكلمه لاعتراضه عليها عندما باعت دارها ولما طالت مدة هجرها إياه استشفع ابن الزبير إليها فكلمته. المسند ج ٦ ص ٣٢٧، البخارى ج ٤ ص ١٢٩، الذهبى ص ٦٧ — ٦٨)

(٤) البلاذرى، الانساب ج ١ ص ٦٦٣، الذهبى ص ٨٤

(٥) ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٣٩، المسند ج ٦ ص ٦٥

سراءهم وضراءهم؛ ولعلها وقد فشلت فى تدخلها فى أمور السياسة — كما نرى فى الفصل المقبل — انصرفت إلى المجالين الآخرين، الاجتماع، والعلم، لأنها لم تكن بالمرأة، التى تستطيع أن تعيش هادئة، دون عمل، لذلك انغمرت فى النواحى التى لا يعترض عليها من أجل خوضها أحد، كما اعترضوا عليها فى الاشتغال بالسياسة.

الفصل الثالث

أثر السيدة عائشة فى الحياة السياسية

قبل الكلام عن أثر السيدة عائشة فى الحياة السياسية ، لا بد من الرجوع قليلا إلى تطورات شؤون الخلافة والخلافات التى بدأت والرسول حى ، لأنها تلقى ضوءاً على الحوادث التى حدثت بعد ذلك ، فنجد فى القديم أسباباً تجمعت ، فأنتجت الحدث الجديد .

فوقعة الجمل مثلا ليست إلا نتيجة حوادث سابقة ، بدأت فى زمن الرسول واستمرت تتجمع إلى أن انفجرت فى زمن على ، ذلك أن التاريخ سلسلة حوادث ، لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، فهى متعاقبة ، تفهم على حقيقتها ، لو رأى الدارس أن يجمعها ، أما إن فصلها فقد فقد العناصر التى يعتمد عليها فى التعليل والتسبيب .

لم يمح الإسلام ما كان بين قريش من خلافات بل لعل كون النبى من بنى هاشم كان سبباً فى أن تتسع الخلافات . فالقرشيون مختلفون : هذا هاشمى ، وهذا أموى ، والمهاجرون والأنصار متنافسون ، والأنصار مختلفون : هذا أوسى ، وهذا خزرجى . غير أن هذه الاختلافات غطت عليها شخصية الرسول ، فاختفت ، ولكن إلى حين . ثم لم تلبث أن ظهرت إلى الوجود بعد وفاة النبى خاصة فى ولاية الأمر وحكم المسلمين ، إذ لم يترك الرسول وصية واضحة صريحة ، ولذلك وجد المجال لظهور الاختلافات .

وكانت وفاة الرسول[1] صدمة شديدة ، لم يستطع تصديق الخبر أحد ، حتى عمر نفسه ، ولم يلبث أبو بكر أن حضر ، فسيطر على الموقف بخطابه الشهير ، « أيها الناس

(١) فى ربيع الأول سنة ١١ للهجرة

إنه من كان يعبد الله فالله حى لا يموت »[1] ثم تلا الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين)[2] .

ثم تواترت الأنباء عن اجتماع الأوس والخزرج فى سقيفة بنى ساعدة ، لينظروا فى أمر من يخلف الرسول ، فى ولاية أمر المسلمين ، وما كان من أبى بكر إلا أن اصطحب عمر وأبا عبيدة ، وأدركهم وهم مجتمعون ، فسيطر على الموقف مرة أخرى ، بأن ذكر لهم الحديث القائل أن الأئمة من قريش رداً على مقالتهم يخاطبون القرشيين منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش[3] .

ولما وجد عمر أن الفوضى قد تنشب أظفارها ، وقد ينتج ما لا تحمد عقباه ، بعد أن رفض الأنصار قولة عمر ، نحن الأمراء، وأنتم الوزراء ، قام وطلب من أبى بكر أن يبسط يده ليبايعه ، ففعل ، ثم تبعه المهاجرون ، ثم الأوس والخزرج . فلما تمت بيعة أبى بكر[4] التى خطبته الأولى ، فقال فى مطلعها « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم فإن أحسنت ، فأعينونى و إن أسأت فقومونى »[5] .
وقد تلكأ بعض الصحابة فى المبايعة بعض الوقت ، منهم على، و بنو هاشم ، والزبير .

وقد استتب لأبى بكر الإمر ، وانتهت —مؤقتاً— النزعات الثلاث التى كانت تحكم المجتمع الإسلامى ، فى شأن الخلافة .

النزعة الأولى كانت نزعة المهاجرين فى أحقيتهم بالخلافة ، فقد كثر عددهم آخر أيام الرسول ، حتى أوصاهم خيراً بالأنصار .

أما النزعة الثانية فهى نزعة بنى هاشم بزعامة على بن أبى طالب ، يؤيده طلحة

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٣٦٠
(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤
(٣) ابن هشام جـ ٤ ص ٣١
(٤) كانت خلافة أبى بكر الصديق من ١١ — ١٣ للهجره
(٥) ابن هشام جـ ٤ ص ٣١١

والزبير ، ويرون أن هذا الفرع من قريش صاحب الحق الأول فى تولى الخلافة .

أما النزعة الثالثة فهى نزعة الأنصار ، فى تولى الأمر بحجـة أنهم آووا الرسول والمسلمين ، يوم كانت قريش حرباً عليهم .

وقد خشى أبو بكر من اختلاف المسلمين من جديد بعد وفاته ، فلم يترك الأمر دون تعيين، فسمى عمر بن الخطاب مرشحاً للخلافة، فبايعه المسلمون[1]، وظاهر اختلاف هذه الطريقة عن الطريقة التى تولى بها أبو بكر ، فقد حدث التعيين أولا، والمبايعة ثانياً .

أما الطريقة التى اتبعها عمر فقد اختلفت عن الطريقتين السابقتين فى أنه عهـد إلى سـتة من أكابر المسلمين وزعمائهم ، ليختاروا أحدهم للخلافة وهم : عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، سعد بن أبى وقاص ، الزبير بن العوام طلحة بن عبد الله وأضاف إليهم عبد الله وجعل مهمته مقصورة على الترجيح إذا انقسموا إلى قسمين متساويين[2] .

ولم ينته مجلس الشورى هذا إلى اختيار أحدهم، فتقدم عبد الرحمن بن عوف ليظهر بمظهر أبى بكر وعمر ، فى اجتماع السقيفة فمد يده إلى عثمان بن عفان يبايعه ، بعد أن عاهد عثمان أن يسير على سنة الرسول ، وسنة الشيخين من بعـده ، وتبع ابن عوف بقية المسلمين فى مبايعة عثمان[3] . وسارت الأمور فى عهد عثمان الأول سيراً حسناً ، ثم لم تلبث أن اضطربت ، وبدأ المسلمون ينقسمون إزاء تصرفات عثمان وولاته ، حتى وصل الأمر إلى الانتقاض عليه ومحاصرته ثم قتله .

وكان على بن أبى طالب فى هـذه الفترة الشخص الذى تطلعت إليه الأنظار ، فالثائرون يريدونه ، وبنو هاشم يؤيدونه ، وكثيرون من الصحابة يفضلونه . وقيل أنه رفض حين عرض الأمر عليه ، ثم عاد وقبـل ، وتمت بيعته ، على أن نفراً من المسلمين لم يرضوا عن ذلك لأسباب مختلفة .

(١) كانت خلافة عمر بن الخطاب من سنة ١٣ — ٢٣ للهجرة
(٢) البخارى ج ٢ ص ٤٣٣ ، البلاذرى — الأنساب ج ٥ ص ١٧ و ١٨
(٣) كانت خلافة عثمان من سنة ٢٣ — ٣٥ للهجرة

هـذه هى التطورات التى حدثت حول الخلافة ، بعد وفاة الرسول ، عرضناها لنرى أثر عائشة فى كل من هذه الأدوار .

والواقع أن تدخل السيدة عائشة الحقيقى السافر فى الحياة السياسية حدث فى نهاية خلافة عثمان . وفى زمن خلافة على ، فاستعملت نفوذها ، ومكانتها فى استثارة الناس ضد عثمان ، ثم لما لم يرقها استخلاف على عادت تثير الناس على قتلة عثمان ، وتنحى باللوم الشديد على علىّ ، لأنه قبـل البيعة ممن سفك دم الخليفة ، فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام .

ولعلها كانت مدفوعة بدوافع أخرى ، سنعرض لها فى حينها ، جعلتها تظهر الخصومة لعلى ، بل اندفعت إلى أكثر من ذلك ، فدخلت معه فى خصومة مسلحة جرى فيها دم المسلمين .

أما قبل ذلك فلم يكن تداخلها فى الشئون السياسية واضحاً هـذا الوضوح الذى ظهر فى عهدى عثمان وعلى .

عائشة والحياة السياسية فى عهد النبى :

لم يكن لعائشة ولا لغير عائشة دخل فى السياسة العامة فقد كان المسلمون جميعاً يحيطون بالرسول يسمعون منه ، و يأخذون عنه . هو الذى يقرر كل شىء بحكم كونه رسول الله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) (١) وإلى جانب ذلك كله كان له من قوة شخصيته ، ونفوذ عقله وحدة ذكائه ما يجعـل سيطرته وسلطانه ، على الذين يحيطون به ضخماً كبيراً .

وعائشة التى نؤرخ لها لم يكن لها رأى فى سياسة المسلمين ، وتصور الوضع وحده يؤيد ذلك ، فهى أولا صغيرة السن ، ثم هى امرأة وقد روى عن الرسول حين بلغه أن الأعاجم أمرت عليهم امرأة قوله (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) (٢) . ثم هى قـد

(١) سورة النجم آيتا ٣ و٤

(٢) البخارى جـ ٤ ص ٣٧٧ (شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٨١)

صدت أكثر من مرة ، حين سألت الرسول عن الجهاد ولعلها كانت تريد بذلك أن تتفهم مايتعلق بأمور المسلمين العامة ، فقال لها : « لك أحسن الجهاد وأجمله الحج حج مبرور »[١]، وقالت له مرة أخرى: « هل على النساء من جهاد قال نعم عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة »[٢]. ومع ذلك فقد وجد من قال : إن عائشة بدأت نشاطها السياسي منذ زمن الرسول ، وأنها كانت تنصر ما سماه لامنس « الحكومة الثلاثية » بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة في أن يتولوا الخلافة بالترتيب السابق ، وأنها كانت تهيء الجو لنجاح ذلك الاتفاق ، في منزل الرسول . ويتهم لامنس[٣] — في كتابه الذي ذكرناه — أبا بكر وعمر وأبا عبيدة باتفاقهم ، والرسول حي ، على تولى الأمر بعده فيكون أبو بكر أولا ، وبعده عمر ثم أبو عبيدة وأنهم اتخذوا في سبيل الوصول إلى غاياتهم ، مختلف الطرق ، ومنها تزويج النبي من ابنتى أبي بكر وعمر — عائشة وحفصة — واتهم لامنس[٤] أبا بكر في فسخ خطبة عائشة عن جبير بن مطعم ليزوجها بالرسول ، لأنه وجد « في شخصية عائشة أكبر معين له في أعماله فصرفها عن خطيبها الأول ليدفع بها بين يدى محمد ، بالرغم من امتناعها واشمئزازها » . ويشير إلى أن عائشة وحفصة بعد ذلك بالرغم ممن كان بينهما من البغض إلا أنهما لم يتأخرا عن الاتفاق في سبيل تحقيق أغراض المؤامرة الثلاثية ، وهكذا انقسم نساء النبي إلى فريقين : عائشة وحفصة من جهة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة المخزومية — ممثلات الطبقة الأرستقراطية — من جهة أخرى[٥].

ويضيف لامنس في كتابه « فاطمة وبنات محمد»[٦] أن بقية زوجات النبي كن رغم اختلافهن يداً واحدة ضد عائشة .

(١) المسند جـ ٦ ص١٦٥
(٢) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٦٥
(٣) Le Triumvirat pp. 120-124, 128, 131, 132
(٤) Le Triumvirat pp. 119, 120
(٥) Lammens : Le Triumvirat p 121
(٦) Fatima et les Filles de Mahomet p. 46

ولم يكتف لامنس[1] بذلك ، بل وصف عائشة بأنها امرأة تميل إلى إثارة المؤامرات . ذكية كذكاء الهرة ، بليغة ، فصيحة ، ووصفها بأنها أبرز نساء التاريخ الإسلامي ذكاء ، ثم عاد لينتقص من قدر النبي فقال عنه : إنه رجل عاطفي ، ولا سيما بعد أن كبر ورق عوده وأنهكه المرض ، و إنه لذلك كان لعائشة سلطان كبير عليه .

والرد على لامنس لا يحتاج إلى جهد وعناء كبير ، فإنها أقوال تتهافت لا يؤيدها نص ، ولا يحميها استنتاج منطقي .

وليس يعنينا أن ننفي أو نثبت أمر الاتفاق الثلاثي ، فذلك خارج عن موضوعنا ولكننا يهمنا أن ننفي أو أن نثبت بأن عائشة كان لها ضلع فيه .

أما فسخ خطبتها عن جبير بن مطعم فالحقائق تنكر ما ذهب إليه لامنس . أنه عند ما ذكرت خولة بنت حكيم لأم رومان رغبة الرسول في الزواج من عائشة جاوبتها أن مطعماً كان ذكر عائشة لابنه ، وقالت : « فوالله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه »[2] ثم دخل أبو بكر على مطعم ، وكان مفضلا تزويج ابنته للرسول ، وراجياً أن يكون مطعم هو الذى يعدل عن فكرة الزواج ، فما كان من أم مطعم إلا أن تسأل أبا بكر إذا كان مدخل ابنها فى دينه ولما سمع أبو بكر ذلك خرج وزوج ابنته للرسول . فقد رأينا فيما سبق كيف أن أم جبير وأباه هما اللذان رغبا فى فسخ الخطبة ، وعليه فيكون زواج الرسول بها أمراً لم يرتب له أبو بكر ، و إنما جاء طبيعياً ، وليس معقولا أن يرفض أبو بكر طلب النبي فقد كان أحب الناس إليه ، وقد كان صديقه وخليله ، بل كان شرفاً لكل مسلم أن يصاهره رسول الله .

وقد مر بنا كذلك قصة زواج الرسول بحفصة[3] وكيف أنها كانت هى الأخرى طبيعية ليس فيها مؤامرة تحاك و إنما سارت الأمور سيرها الطبيعي دون تدخل حتى تم الزواج .

(١) Le Triumvirat pp. 116, 122, 123 (٢) المسند جـ ٦ ص ٢١١
(٣) راجع الكتاب ص ١١٤

وإذن فقد خرج لامنس بتأويلات لا تتفق مع ما ذكره المؤرخون ، وبالإضافة إلى ذلك فمنطق الأشـياء يؤيدنا فى ردنا عليـه ، فالذى لاشك فيه أن منزلة المرأة كانت أقل من الرجل ، بالرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أوصى كثيراً بحسن معاملتها ، ولم يكن للرجل مهما كبرت منزلته إلا أن يكون منفذاً دقيقاً لأوامر الرسول وتواصيه ؛ فلم يكن من باب أولى ، للمرأة أن تتداخل فيما لم يكن بامكان الرجل أن يتداخل به .

وليس ادعاء لامنس أن عائشة تزوجت من الرسول بالرغم من امتناعها واشمئزازها بأقل بعداً عن الحقائق من سابقه ، فالنصوص تجمع على أنها كانت تحبه حباً شديداً ، بل « كانت أشدهن حباً له »[1] وطالما فاخرت بحبه لها وتفضيلها فقالت : « أى امرأة كانت أحظى عنـد زوج منى »[2] . أضف إلى ذلك أن عائشة وفيها كل صفات المرأة لم تكن لتشذ عن الطبيعة النسوية فى تقديرها للبطولة فلا عجب أن تقبلها راغبة أشد الرغبة ، بل العجب كل العجب أن تنفر منها وتشمئز كما يريد أن يقول لامنس ، وفوق ذلك فقد عرف عن الرسول إعزازه وتكريمه لزوجته الأولى خديجة ، وأنه بقى يذكرها بالخير طول حياته وكانت عائشة أول زوجة بعدها ، فلا غرو أن تفرح بهذا الزواج ، لأنه يكفل لهـا الزوج العظيم الرحيم المخلص فى حبـه . ولو لاحظنا لرأينا فى مظهر غيرتها الشديدة عليه أعظم دليل على ما تحمله له من حب ، وأخبـار غيرتها كثيرة وقد مر بنا بعضها .

أما النتائج التى استخلصها من تلك المقدمة الخاطئة فقد كانت بطبيعة الحال خطأ . فالخلاف الذى كان بين زوجات الرسول لم يكن انقساماً أوحت به السياسة والتآمر ، وإنما كان انقساماً يقتضيه الجمع بين الضرائر ، وما اتفاقها مع حفصة إلا وليد أمرين : الأول : الانسجام والتوافق والصداقة القوية بين أبويهما ، والثانى : شدة عمر على ابنته

(١) البلاذرى — الأنساب ج ١ ص ٦٦١
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٦٦١

فى ألا تنفس على عائشة . وعلى كل لم تـكن علاقات عائشـة بضرائرها علاقات غيرة وتنافس وخصام فحسب ، بل كانت فى الغالب تربطهن بعضاً ببعض أواصر المودة والتفاهم والانسجام ، ولم يكن جميعاً يداً واحدة ضد عائشة ، كما زعم الأب لامنس .

والعجيب ما يدعيه لامنس من أن مهمة عائشة كانت تحبيب أبى بكر للرسول ، وأنها فى حبها لزوجها إنما أرادت به تحقيق غايات أبيها ، وآخر تلك المجهودات إمامة أبى بكر للمصلين .

أما أن الرسول كان يحب أبا بكر وكان قد اصطفاه صديقاً وحبيباً ، قبل أن تدخل عائشة بيت الرسول ، بل منذ أن بدأ محمد يبث دعوته فهذا أمر لا شك فيه ، وكتب التاريخ مليئة بمـا يؤيد ذلك ، ونعرض هنا فقط كمثال ، اختيار الرسول لأبى بكر ليهاجر امعاً من مكة إلى المدينة ، فكان (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا[1]) .

فقد ورد عن الرسول أنه قال : « لو كنت متخذاً من أمتى خليـلا لاتخذت أبا بكر ولـكن أخى وصاحبى »[2] .

ولو تذكر لامنس أن الرسول تزوج عائشة وهى طفلة أصغر من أن تقوم بحبك المؤامرات ونسجها ، وما يحتاجه ذلك من روية وتعقل تصقلهما السنون، لفكر قبل أن يندفع هذا الاندفاع فى إشراكها بالتآمر ، وكان يفيده أيضا لو أمعن النظر فى طاعتها لزوجها ، وسيطرته التامة عليها بالرغم من حبه ، وتدليله لها ، حتى إنها لم تكن تزور أباها فى أثناء مرضه إلا باذن من الرسول[3]، لو فعل ذلك ، لأفاده عـــدم الانزلاق فى هذا الخطأ الخطير .

أما ادعاؤه الآخر من أنها لعبت دوراً فى تولية أبى بكر الخلافة فهو بدوره ينقصه

---

(١) سـورة التوبة آية ٤٠

(٢) البخارى جـ ٢ ص ٤١٨ (ابن ماجة جـ ١ ص ١٠)

(٣) المسند جـ ٦ ص ٦٥

الدليل ، وقد وردت عن عائشة أقوال عن الرسول فى فضل أبى بكر وتفضيله إلا أننا نرجح بأنها نقلت عنها بعد وفاة الرسول ، و بعد مبايعة أبى بكر بالخلافة ، فقد نقل عنها قولها : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إليه عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقال ائتنى بكتف حتى أكتب لأبى بكر كتابا ، لا يختلف عليه ، فذهب عبدالرحمن ليقوم ، قال : اجلس أبى الله والمؤمنون أن يختلف على أبى بكر »[1] وقولها لو استخلف الرسول لكان استخلف أبا بكر وعمر[2] ، وقد سئلت مرة من كان رسول الله مستخلفا لو استخلف قالت : « أبا بكر . ثم قيل لها من بعد أبى بكر ، قالت : عمر . ثم قيل لها من بعد عمر ، قالت : أبا عبيدة بن الجراح »[3] وسئلت مرة أخرى : أى أصحاب الرسول أحب إليه ؟ قالت : « أبو بكر — ثم سئلت : أيهم ؟ — قالت : عمر — ثم أيهم ؟ قالت : أبو عبيدة »[4] .

فمن هذه الأقوال كلها نستطيع أن نقول إنها قد رويت عن الرسول بعد وفاته ، و إلا لسئل هو رأساً ، ولا يعقل أنها قيلت عقب وفاة الرسول مباشرة، فقد كانت عائشة فى شغل عن الدنيا كلها فى هذا الذى فقدته ، و إذن فتكون هذه الأقوال قد قيلت بعد أن بويع أبو بكر ، وذلك تقوية لمركزه فى الخلافة بعد أن وجدت نفسها أمام الأمر الواقع وتمهيداً لاستخلافه عمر . و بالتالى يكون ادعاء لامنس فى أنها لعبت دوراً مهماً فى استخلاف أبيها وحبكت المؤامرات من أجل ذلك غير صحيح .

وليس مجهولا أيضاً أن منزلة عمر عند الرسول كانت تلى منزلة أبى بكر . فعمر أول من دعا إلى الإسلام علانية ، وأول من صلى جهاراً ، وقال عنه ابن مسعود : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، و إن هجرته كانت نصراً ، و إن امارته كانت رحمة . ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً ، حتى صلى عند

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٢٨ (المسند ج ٦ ص ٤٧ مع تغيير فى لفظ النص)
(٢) المسند ج ٦ ص ٦٢
(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٢٨
(٤) ابن ماجة ج ١ ص ١١

الكعبة وصلينا معه »[1] . فقد روى عن على عن الرسول قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا على ما داما حيين »[2] . وعنه أيضاً : «خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، وخير الناس بعد أبى بكر عمر »[3] .

وروت عائشة عن الرسول أنه قال : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة »[4] . فهذه أقوال نقلت عن غير عائشة ، فماذا كانت عائشة تستطيع أن تصنع بعد ذلك ؟ وأى مجهود يطلب منها أن تبذله ، والحقائق كلها فى جانب تفضيل الرسول لهذين الشيخين .

وآخر ما زعمه لامنس[5] اتهام عائشة بالتجسس على النبى ، لمصلحة أبيها ، كى تخبره بما يجب معرفته ، والواقع أن اتهامه خطير ، ولكنه فى الوقت نفسه واهى الأساس ، فالحوادث التى ذكرت على أنها تجسس لم تكن لتبيح إصدار هذا الحكم القاسى العام ، وليست فى حد ذاتها لتتنافى مع طبيعة المرأة ، فى أنها فضولية تحب أن تعلم كل شىء خاصة فيما يتعلق بمحيطها الزوجى ، لمجرد العلم ويعطى لامنس[6] مثلا على تجسسها ، فى أنها استمعت والرسول يتحدث مع عثمان بن عفان، وقد ورد عن عائشة فى هذا الحادث قولها : « ما استمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة ، فإن عثمان جاء فى نحر الظهيرة ، فظننت أنه جاءه فى أمر النساء ، فحملتنى الغيرة على أن أصغيت إليه فسمعته يقول : إن الله عز وجل ملبسك قميصاً تريدك أمتى على خلعه ، فلا تخلعه ، فلما رأيت عثمان يبذل لهم ما سألوه إلا خلعه

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٧
(٢) ابن ماجة جـ ١ ص ١٠
(٣) نفس المصدر جـ ١ ص ١١
(٤) نفس المصدر جـ ١ ص ١١
(٥) Le Triumvirat pp. 122, 127, 131, 132
(٦) Ibid p. 122

علمت أنه من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى عهد إليه »[1] . وروت أنها نظرت من شق الباب ، بعد ما جاء نعى جعفر بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة ، قالت : « وأنا أطلع من شق الباب ، فأتاه رجل فقال يا رسول الله : إن نساء جعفر ، فذكر من بكائهن فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينهاهن ، فذهب الرجل ، ثم جاء فقال نهيتهن ، و إنهن لم يطعنه حتى كان فى الثالثة ، فزعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أحثوا فى وجوههن التراب ، فقالت عائشة قلت أرغم الله بأنفك ، والله ما أنت بفاعل ما قال لك ، ولا تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم »[2] . وفى مرة أخرى ، وقد فرغ الرسول من غزوة الأحزاب ، ودخل عليه جبريل ، وكلمه ، فقالت عائشة للرسول : إنها رأت جبريل من خلل الباب[3] ، وقالت : إنها سمعت مرة الرسول يكلم حسان بن ثابت[4] .

هذه هى المرات التى استمعت عائشة إلى حديث النبى من خارج الغرفة . ومع أن لامنس[5] لم يذكر إلا الأولى ، وحادثة أخرى وصفها بأنها ذروة التجسس ، وهى إفضاؤها لأبيها بما لم يكن الرسول قد قاله لأحد ، يوم عزم على فتح مكة ، إذ دخل عليها أبوها فوجدها تدبر جهاز الرسول ، فقال : « يا بنية آمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟ قالت : نعم . فتجهز . قال فأين ترينه يريد ؟ قلت : لا والله ما أدرى[6] » .

وهذه حوادث كلها لا تستدعى قط هذا القول الذى ابتدعه لامنس ، فأسبابها جميعاً معلومة ، فهى بين الغيرة فى حادثة عثمان ، و بين الألم فى حادثة غزوة مؤتة ، و بين الفرح والنصر بغزوة الأحزاب . أما الحادثة الأخيرة فليس فيها ما يفهم منه

(١) المسند ج ٦ ص ١١٤
(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٩ (ابن سعد ج ٤ ص ٢٧ مع تغيير فى لفظ النص)
(٣) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٦١
(٤) الأغانى ج ٤ ص ٦
(٥) Le Triumvirat p. 128
(٦) ابن هشام ج ٤ ص ٣٩

التجسس ، فكان لا بد للرسول أن يخبر عن تجهزه للسفر ، وقد أخبرهم فعلا بذلك لما حان الوقت ، أما جوابها بأنه مسافر ، فذلك ما لا يحتاج إلى كبير عناء لمعرفته ، طالما كانت كل الظروف التي رآها أبو بكر في منزل الرسول توحي بأنه يريد السفر ، ولو أنها أخبرت أباها بالجهة المقصودة لكان في ذلك ما يؤيد رأي لامنس ، أما وقد أنكرت معرفتها سواء علمت أو لم تعلم ، ففيه الدليل الكافي على دحض قول لامنس . وتقول الكاتبة (Nabia Abbot) [1] إن ما سماه لامنس بالتآمر والتجسس ، ليس إلا تصرفات طبيعية لامرأة شابة جميلة فرض عليها الحجاب مؤخراً .

ونقطة أخرى من ادعاءات لامنس هي قوله : إن عائشة كانت تحرض الرسول على أن يؤم أبوها المسلمين في حالة مرضه ، وإنها كانت تقترح تقديمه .

وقد جاء انه عند مرض الرسول ، قال : « وددت أن عندي بعض أصحابي ، قالت عائشة : فقلت يا رسول الله أدعو لك أبا بكر ؟ فأسكت ، فعرفت أنه لا يريده قلت : أدعو لك عمر ؟ فأسكت فعرفت أنه لا يريده . فقلت أدعو لك علياً ؟ فأسكت فعرفت أنه لا يريده فقلت : فأدعو لك ابن عفان ؟ قال : نعم » [2] فمجرد ذكر أبيها أولا ليس دليلا على أنها كانت تجتهد في أن تقدمه عليهم ، لأن علاقته بالرسول معروفة ، فقد كان يلازمه في أكثر أوقاته ، ولكن الحادثة التالية تنافي ما ادعاه لامنس ، فقد طلب الرسول من عائشة أن تأمر أبا بكر ليصلي بالناس ، فقالت للرسول : إن أبا بكر رجل رقيق الصوت ، لا يستطيع الصلاة ، فكرر الرسول أمره ثلاث مرات [3] . وفي رواية أخرى أنها اقترحت اسم عمر ، وطلبت من حفصة أن تقترح هي أيضاً عمر ، ففعلت حفصة فجاوبهن الرسول ، « لأنتن صواحب يوسف » [4]

(١) Aishah the Beloved of Mohamed p. 73

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٣٦ (وفي المسند ج ٦ ص ٥٢ والبلاذري — الانساب ج ٥ ص ١١ مع تغيير في لفظ النص)

(٣) المسند ج ٦ ص ٢٢٤ ، البخاري ج ١ ص ١٧٥

(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٢٤ نفس المصدر ج ١ ص ١٨٦

وتختلف رواية ابن حنبل بعض الشيء ، فيقول : إن الرسول طلب إلى عبد الله بن زمعة أن يصلى أبو بكر بالناس ، فلما لم يجـده دعا عمر إلى ذلك ، وكان جهير الصوت ، فسمعه الرسول وعرفه ، عنـدئذ طلب من عائشة أن تأمر أبا بكر ليصلى بالنـاس ، فأجابت : « يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق ، لا يملك دمعه ، وإنه إذا قرأ القرآن بكى »[١] وأخيراً صلى أبو بكر بالناس[٢] . أين أثر عائشة وسيطرتها على الرسول ؟

وهذه الروايات تتفق فى معناها ، ويتضح أنه لا صحة لادعاء لامنس ، فلو أنها كانت تعمل لإمامته الصلاة لما طلبت أن يصلى غيره بالناس ، ولو أنها كانت متفقة مع أبيها كما يقول أيضاً لـكانت هى البادئة فى ذكر اسم أبى بكر . وقد عزيت إمامة أبى بكر إلى أنها ترمز إلى استخلاص النبى له ، فكيف إذن توفق بين قوله : إن عائشة تعمل على تولية أبيها بأن يخلف الرسول فى إمامة المسلمين ، وبين الواقع أنها أرادت أن تحول دون ذلك . وقد قالت فى ذلك : « والله ما بى إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم فى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٣] . فأين إذن المؤامرة المدبرة بين الاتفاق الثلاثى وعائشة ؟ وأين إذن خضوع الرسول ، واستسلامه لرغبات عائشة ؟ وهو الذى كان على وشك طلاقها ، مع سائر زوجاته لطلبهن زيادة النفقـة ، وهو طلب عادل فى حقيقته . غير أن الرسول رأى أنه يتنافى مع رسالته . ويشارك بعض المستشرقين لامنس فى أن لعائشة يداً فى استخلاف أبى بكر ، فقد عد (Huart)[٤] أن انتقـال الرسول فى مرضه الأخير إلى بيت عائشـة فيه معنى التحول ، عن على إلى أبى بكر ، وقد علق أبو بكر على ذلك آمالا كبيرة .

ولم يطل مرض الرسول إلا خمسة عشر يوماً ، فى بيت عائشة ، والناس تتلهف

(١) المسند جـ ٦ ص ٣٤
(٢) ابن هشام جـ ٤ ص ٣٠٢ ، المسند جـ ٦ ص ٢٢٤ ، البخارى جـ ١ ص ١٧٩
(٣) المسند جـ ٦ ص ٢٢٩
(٤) Histoires des Arabes p. 181

لسماع أخباره بين زائر ، وسائل . ولا يعقل أن تستطيع عائشة بهـذا الزمن القصير أن تدبر المؤامرة — بالاتفـاق مع أبيها — لدعم مركزه كما قال (Huart) ، ولا سيما أن بيت عائشـة لم يكن إلا غرفة واحدة ، فيها المريض ، وفيهـا الزوار أو الزوجات ، فلم يكن الوقت أو المكان مناسباً للنشاط الذى زعمه المستشرقون .

و بعد أن انتهينا من مناقشة لامنس لا بدلنا من ملاحظة ما يأتى :

لقد جزم لامنس جزماً قاطعاً فيما وصل إليه من نتائج ، بالرغم من أن الأسـباب التى استند إليها لم تكن لتزيد عن حادثتين ، وليس من صفات العالم أن يعطى حكما قاطعاً من ملاحظتين ، والعالم الصحيح هو الذى لا يضع قاعدة إلا إذا تكررت أمثلتها وتأكد من صحتها .

أما لامنس فقد اكتفى بحادثتين ، ووضع قواعد دلت النصوص على خلافها .

فهل يبرر البحث العلمى وقد رأينا كيف كانت أسسه عند الأب المحترم بإصدار أحكام قاسية ، كالجاسوسية والتآمر والسيطرة على رجل عاطفى [١] .

العالم الحق هو الذى ينظر إلى الحقيقة كاملة ، لا الذى يأخذ نصفها ، و يترك النصف الآخر ، أو يتجاهلها ، لأن الحقيقة وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها ، فتصـبح نصف حقيقة مبتورة مشوهة .

ولنذكر بعـد كل ذلك أن لامنس ، وهو يكتب عن نبى الأسلام ، ورجال المسلمين إنمـا يرتدى الثوب الـكهنوتى اليســوعى ، وأن مهمته الأولى هى التبشير لغير الإسلام فى بلاد المسلمين .

عائشة فى عهد أبى بكر :

لا شك أن عائشة كانت ترغب فى أن يتولى أبوها الأمر بعد الرسول ، ولـكنها كانت رغبة كرغبة أى ولد فى أن يرى أباه كبيراً .

ولم تتدخل عائشة فى أثناء خلافة أبيها فى الشئون السياسية ، كما لم تفعل فى عهد

(١) Le Triumvirat pp. 117, 120, 122, 128

الرسول ، فقد كان لأبيها من الشخصية الفذة والاحترام ما يحول بينها و بين التدخل ، حتى لو رغبت فى ذلك خاصة ، وقد كانت مدة أبى بكر مليئة بالجهاد فى إعادة سلطان الإسلام على الجزيرة ، والقضاء على المرتدين ، ومدعى النبوة . وتبقى إذن العلاقة بينها و بينه علاقة أب شفيق و ابنة بارة .

عائشة فى عهد عمر :

شخصية عمر شخصية نفاذة قوية شديدة ، لا تعرف اللين والتهاون فى الحقوق والواجبات ، شخصية غطت على غيرها . بل نستطيع أن نقول : إنها انفردت ، وقد كان له من سعة الاطلاع ، و كثرة التجارب ، مايجعل تفرده فى الحكم ، واستئثاره برأيه قائماً على أساس سليم .

و يعتبر المسلمون عمر المثل المثالى للخليفة العادل القوى ، فقد جمع فى يديه شئون الدولة كلها ، لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة ، عادلا فى معاملته ، ماهراً فى سياسته ، حازماً فى إدارته ، ديناً ورعاً ، لايعرف فى الحق لومة لائم ، ولا يفرق بين كبير وصغير فيما يقتضيه العدل والإنصاف .

فشخصية بهذه القوة لم يكن من السهل على عائشة لو أرادت أن تشترك فى الشئون العامة أن تتعدى حدودها إلى المنطقة التى يعتبرها عمر فى دائرة اختصاصه .

يضاف إلى ذلك أن عمر كان يشدد على المرأة ، بصورة عامة ، وقد اقترح على النبى أن تتحجب زوجته ، ثم مراجعته ابنته حفصة وأم سلمة فى محاولتهما منافسة عائشة ، و إزعاج رسول الله .

ولكن ذلك لايعنى أنه كان لا يعطى عائشة حقها من الاحترام والتقدير ، فهى أم المؤمنين ولو كان هو أمير المؤمنين ، وهى أحب زوجات الرسول إليه ، وابنة أقرب المسلمين إلى قلب عمر .

وعائشة من ناحيتها كانت تعرف ما لعمر من فضل على الإسلام ، وما كان له فى نفس الرسول من مكانة واحترام ، وما له لدى أبى بكر من تفضيل — وقد آخى

بينهما الرسول — وكانت تعجب به كثيراً ، فقالت عنه : « إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا »[1]. كما أن من أسباب المودة والثقة بين عمر والسيدة عائشة موقفه فى الدفاع عنها من « حديث الأفك » فلا عجب إذن أن يكون بين عائشة وعمر تقدير واحترام متبادلان ، ولكنه لم يكن فى نفس الوقت يتجاوز حدود الاختصاص ، ذلك لأنه لم يكن ليشذ عما جاء به الدين ، من حدود وقيود ، بل كان أحرص ما يكون على تنفيذها بدقة وإخلاص ، الأمر الذى لم يفتح باباً للاعتراض عليه ، من الذين يملكون هذا الحق بحكم ما لديهم من تفقه فى الدين ، واطلاع على سنة الرسول .

ورغم الطريقه التى اتخذها عمر فى تضييقه على النساء عامة ، ونساء الرسول خاصة، بأن أمرهن أن يقرن فى بيوتهن كما جاء فى القرآن الكريم فلا يخرجن حتى إلى المسجد فإن عائشة لم تخالفه فى قراره ، بل أنها أيدت رأيه ، وقالت لو أن الرسول كان موجوداً ، ورأى ماوصلت إليه حال النساء ، لمنعهن هو من الخروج إلى المسجد[2].

ولعلها تشير فى ذلك إلى تعقد الحياة الاجتماعية فقد كثرت الجوارى وتنوعت الآداب الاجتماعية والمبادىء الخلقية ، تبعاً لما اقتضاه كثرة الأجناس فى الحجاز ، نتيجة الفتح والسبى وكثرة المال .

فكان عمر أول من فرض الأعطيات ، وذلك عند ما فتح العراق والشام ومصر، وجبى منها الخراج ، وكثر المال بين المسلمين ، وكان يفضل عائشة على غيرها ، كما كان يفضل بعض الناس على بعض، ففرض لأهل بدر ستة آلاف، ولأمهات المؤمنين عشرة آلاف ، واستثنى صفية وجويرية من الزوجات، فكان يعطيهما ستة آلاف[3]. وفضل عائشة بألفين لحب الرسول إياها[4].

(١) ابن سعد جـ ٣ ص ٢٠٨ (المبرد ص ٣٢٥)
(٢) نفس المصدر ـ ٨ ص ١٥٠ ، ابن حنبل جـ ٦ ص ٦٩ — ٧٠ ، ٩١
(٣) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢١٩ ، البلاذرى ، الفتوص ٤٥٤ ح
(٤) البلاذرى ، الفتوح ص ٤٥٤

وقد رأى عمر قبل وفاته أن يجتمع مجلس الشورى فى بيت عائشة ، ولعله فى ذلك يشير إلى أنه كان البيت المفضل ، لدى النبى ، ليذكروا وهم مجتمعون صاحب هـذا البيت ، ثم فيه معنى تبجيله لعائشة ، حين اختار بيتها ، وطلب إذنها فى ذلك[١] .

وحينما شعر بدنو الأجل ، وأراد أن يدفن بجانب صاحبيه لم يصدر أمراً بذلك ، وإنما طلب إذن عائشة ، فإن لم تأذن فليدفن فى مدافن المسلمين ، ولكن عائشة حققت رغبته ، فأذنت بدفنه فى حجرتها ، رغم ما أحدث ذلك من صعوبة بالنسبة لها لأنها كانت تتستر عندما تدخل[٢] ، وأنها وضعت ستراً ، بين قبرى الرسول وأبى بكر ، وبين غرفتها ، وحرمت من أن تدفن إلى جانب الرسول وأبيها . قالت عندما استأذنت لذلك : « والله كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى »[٣] .

عائشة فى عهد عثمان:

قلنا فى بداية هذا الباب : إن تدخل عائشة فى الحياة السياسية بدأ فى أواخر عهد عثمان ، حينما ظهر الاستياء من ولايته ، ومن أمراء الأقاليم الذين اختارهم .

أما قبل ذلك ، وفى السنين الأولى من خلافته فلم تتدخل عائشة ، بل كانت العلاقة بينهما رضية ، تحمل له احتراماً كبيراً ، لأن الرسول كان يحترمه ، وزوجه ابنتيه ولذلك كان يدعى ذا النورين . وكانت عائشة تفضل عثمان على على لأسباب ، منها : أنها حملت لعلى ضغينة وكرها منذ « حديث الإفك »، ثم إنها كانت تشعر أن الرسول كان يحترمه كثيراً ، فعثمان رابع من أسلم ، وقد وضع ثروته فى خدمة الإسلام[٤] .

ولما ساءت الأمور وتحيز عثمان للأمويين ، فقربهم وقدمهم ، وأهمل غيرهم من

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٢٩٣ وفى رواية ان عمر لم يعين مكان الاجتماع (البلاذرى — الأنساب جـ ٥ ص ١٦) وأخرى أنه قال ليكن فى بيت أحدهم (ابن سعد جـ ٣ ص ٢٦٥) ولعلى تفضيله حجرة عائشة هو المعقول .

(٢) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٧٩ — ٨٠

(٣) ابن سعد جـ ٣ ص ٢٤٥

(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٤٥

المسلمين حتى بلغ به الأمر أن خالف ما سنه عمر فأنقص عطاء عائشة ، وجعله مساوياً لعطاء بقية أمهات المؤمنين ، فأثار هذا استياء عائشة ، إذ رأت فيه امتهاناً لكرامتها ، وما كان ذلك حباً فى خزن المال وادخاره وهى التى أنفقت كل ما تملك فى سبيل التخفيف عن الفقراء والمحتاجين . وبدأ الاحتكاك الصريح بين عائشة وعثمان ، حينما اختلف على وعمار بن ياسر حول ما كان فى بيت المال من حلى وأدى هذا الاختلاف بعثمان إلى أن يضرب عماراً ويشتمه . أثار هذا التصرف عائشة وأغضبها فأخرجت شعراً من شعر رسول الله ، ونعلا من نعاله ، وثوباً من ثيابه ، وقالت : « ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم ، وهـذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد ، فغضب عثمان غضباً شديداً »[1]

وكذلك اختلفت عائشـة مرة أخرى ، حين عزل عثمان عبد الله بن مسعود عن بيت مال الكوفة ، وعين الوليد بن عقبة ، فلما دخل عبد الله المسجد فى المدينـة ورآه عثمان قال : « قدمت عليكم دويبة سوء — يعنى عبد الله — فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولكنى صاحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم يوم بدر ، ويوم بيعة الرضوان ، ونادت عائشة : أى عثمان ، أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ »[2] .

ومن هـذا الحين بدأ اسم عائشة يظهر ، وبدأ الناس يراجعونها فى شكاياتهم . من ذلك أن أهل الكوفة شكوا وخرجوا إلى عثمان لما أساء إليهم الوليـد بن عقبة — وكان سيء السيرة متهما بالخمر وقد سبب ذلك نقد النـاس — فهددهم الوليـد « فاستجاروا بعائشة ، وأصبح عثمان ، فسمع من حجرتها صوتها وكلاماً فيـه بعض الغلظة فقـال : أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ، فسمعت فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : تركت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب هـذا النعل »[3] ، وعرف النـاس الأمر فتقاطروا إلى المسجد ،

(١) البلاذرى — الانساب جـ ٥ ص ٤٩   (٢) نفس المصدر جـ ٥ ص ٣٦

(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٨٠ — ١٨١ ان اضطراب الأمور فى عهد عثمان وشكوى الناس والتجاءهم إلى عائشة هو الذى حولها إلى الاشتراك فى سياسة الأمور .

واختلفوا بينهم ، وتضاربوا ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان يلومونه .

واختصم أهل البصرة مع عاملهم ، وأهل مصر مع أميرهم — عبدالله بن أبي سرح — فلما كثرت الشكوى حاول الصحابة نصح عثمان ، ومنهم عائشة يسألونه أن ينصف الناس من عماله[1] .

وقبل أن نستطرد في الكلام على ما كان لعائشة من أثر في الحياة السياسية نذكر بإجمال أسباب امتعاض المسلمين من عثمان :

أولا — تقديم عثمان للأمويين ، وهم أسرته في مناصب الدولة وإهماله غيرهم من المسلمين ، رغم سابقتهم في الإسلام ومقدرتهم .

ثانياً — انحراف ولاة عثمان عن الصراط المستقيم ، في إدارة شئون الرعية وظلمهم وشدتهم وخروجهم على الدين ، كابن عقبة الذي كان مولعاً بالخمر .

ثالثاً — إلى جانب سيادة الأمويين السياسية كثرت أموالهم ، على حساب بيت المال ، وقد كان الأمر مساعداً لهم ، فقد وضع عمر قاعدة جلب نصيب بيت المال من الغنائم إلى المدينة ، وتوزيعه من ثم على المسلمين . ولكن الأمويين كانوا يستأثرون بحصة الأسد من ذلك المال .

رابعاً — كان عمر شديداً على المسلمين في أمر الدين ، ولكن عثمان أرخى لهم العنان ، فحصل رد فعل ، ساعد في ذلك وفرة المال في أيديهم ، فانطلقت حريتهم من عقالها مما أساء إلى بعض المسلمين ، خاصة الزهاد ، أمثال أبي ذر الغفاري ، الذين أظهروا استياءهم .

خامساً — الاختلافات التي حدثت بين عثمان ، إما من نفسه أو مدفوعاً من أقاربه ، وبين باقي الصحابة ، كعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن ياسر ، وعمرو ابن العاص ، الذي عزله عن ولاية مصر ، فابتدأ بالتحريض عليه ، ومحمد بن أبي بكر[2] .

(١) البلاذري — الأنساب جـ ٥ ص ٢٦

(٢) نفس المصدر — الأنساب جـ ٥ ص ٢٥ — ٣٥ ، ٨٨

ويقول الأستاذ ميور[1] : إن الاستياء من عثمان ، والنقمة عليه كانت جذورها أبعد غوراً مما نتصور ، ولهـا أسباب تجمعت فى القديم ، فوجدت منفذاً فى أثناء خلافته ، فأدت إلى ما أدت إليه ، وهى التنافس بين قريش ، والقبائل الأخرى ، وذلك لأن الإسلام جاء بالمساواة ، وثانياً المنافسة بين بنى هاشم و بنى أمية .

تراكمت هذه الأسباب فأنتجت الثورة ، وزحفت على المدينة طلائع الثائرين ، من البصرة بقيادة طلحة ، ومن الكوفة بقيادة الزبير، ومن مصر بينهم محمد بن أبى بكر.

وأخطأ مروان بن الحكم — الذى اتخـذه عثمان مستشاراً له يرجع إليه فى أمور الدولة الهـامة — مرة أخرى فى إثارته على عثمان ، بالكتاب الذى بعث به إلى أمير مصر لتأديب الثائرين ، مما أعاد الساخطين إلى المدينة مرة أخرى ، وكانوا قد عزموا على الرحيـل حين وعدهم خيراً ، فحاصروه وقتلوه فى داره ، وهو صائم ، والمصحف بين يديه فى ذى الحجة سنة ٣٥ هجرية .

أسباب الانتقاض على عثمان أثارت عائشـة ، كما أثارت غيرها من المسلمين وقد عرف عنها ذلك ، بدليل محاولة مروان بن الحكم صرفها عن السـفر إلى مكة بغرض الحج ، فقال لها : « لو أقمت ، فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل ، فقالت : قد قرنت ركابى وأوجبت الحج على نفسى ، ووالله لا أفعل — يا مروان وودت والله إنه فى غرارة من غرائرى هذه ، و إنى طوقت حمله حتى ألقيه فى البحر — وقالت : لابن عباس ، وكان أمير الحج : يا ابن عبـاس إن الله قد أتاك عقلا ، وفهماً ، و بياناً ، فإياك أن ترد الناس عن هذا الطاغية »[2] .

ذلك أنها لم تطق صبراً على الأحداث ، فألبت النـاس على عثمان فى الحج[3] . وقد روى أيضاً أنها « كانت من أشد النـاس على عثمان »[4] . وكانت تخرج قميص

(١) Caliphate p. 199-200

(٢) البلاذرى — الانساب جـ ٥ ص ٧٤ — ٧٥

(٣) نفس المصدر جـ ٥ ص ٩١

(٤) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٧٧

رسول الله وشعره ، وتقول : هذا قميصه وشعره ، لم يبل وقد بلى دينه[1] . وبلغ بها الأمر أن قالت : « اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا »[2] تقصد بذلك عثمان .

وكانت عائشة فى مكة حين اشتدت الثورة على عثمان ، فلما بلغها وهى فى طريقها إلى المدينة ، مقتله وتولية علىّ صاحت « واعثماناه . ورجعت إلى مكة فضربت لها قبتها فى المسجد الحرام وقالت : يا معشر قريش ، إن عثمان قد قتل ، قتله على بن أبى طالب والله لأنملة أو قالت لليلة من عثمان خير من علىّ الدهر كله »[3] .

وبقيت عائشة فى مكة تندب عثمان ، وتؤلب الناس على قتلته ، وتقول : قتل عثمان مظلوماً لأطلبن بدمه[4] . وكان انقلابها هذا بعد أن كانت تحرض على عثمان ، فأصبحت تطالب بدمه سبباً للتساؤل ، فقالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه »[5] فعاتبها عمار بن ياسر عندما بكت عثمان ، وترحمت عليه « أنت بالأمس تحرضين عليه ثم أنت اليوم تبكينه »[6] وكذلك روى عن عائشة أنها قالت : « تركتموه كالثوب النقى من الدنس ، ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش ، هلا كان هذا قبل هذا ؟ فقال مسروق : هذا عملك أنت ، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه ، فقالت : لا ، والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداء فى بيضاء

(١) ابو الفدا جـ ١ ص ١٨١

(٢) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٧٧ ، والنعثل الكثير شعر اللحية . نحن نشك فى صحة هذا النص لأنه يتهم السيدة عائشة صراحة فى مقتل عثمان . ومن المعلوم أن بنى أمية مثلوا فى مصر بمحمد ابن أبى بكر أخى السيدة عائشة وأعضبوا المسلمين بذلك فعمد بنو أمية إلى المبالغة فى تنويه نصيب عائشة من فتنة عثمان كما أن الشيعة أقبلوا على ترويج هذه الروايات ليبطلوا موقف السيدة عائشة من المطالبة بدم عثمان . والواقع أن نهج البلاغة مصدر متشيع وهنا يضعف روايته فى أتهام عائشة بقتل عثمان .

(٣) البلاذرى ، الانساب جـ ٥ ص ٩١

(٤) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٤٧٧ ، ابن الأثير . الكامل جـ ٣ ص ٨٠

(٥) نفس المصدر جـ ٣ص ٤٧٧ نفس المصدر جـ ٣ ص ٨٠ شرح نهج البلاغة جـ٢ص٧٧

(٦) البلاذرى ، الانساب جـ ٥ ص ٧٠

حتى جلست مجلسى هذا ، قال الأعمش : فكانوا يروون أنه كتب على لسانها »[1].

ولقد حق للذين أخذهم العجب من تغير موقف عائشة تجاه عثمان ، وهى أن أسندت أنهم قتلوه بعد أن استتابوه فتاب ، وأنهم قتلوه فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام « والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم »[2] بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى ، وهى أن مبايعة على كانت صدمة لها ، إذ تصورت أن الأمر سيوكل إلى طلحة ، وهو من قومها ، وكان بينها و بين على أكثر من سبب واحد للاختلاف ، وسنعرض إلى ذلك فى حينه .

عائشة فى عهد على بن أبى طالب

كانت عودة عائشة إلى مكة بدء مناوأتها لعلىّ ، ولعلنا نستنتج ما كان فى نفسها من قولها لمن حولها : « ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك . ردونى ردونى . فانصرفت إلى مكة ، وهى تقول قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه »[3] . كانت صدمتها إذن من تولية على أكثر من صدمتها من مقتل عثمان[4] ، وذلك لأسباب كثيرة تحدرت منذ الزمن القديم ، حتى تجمعت ووجدت فى مقتل عثمان سبباً مباشراً لظهورها .

وكانت عائشة تتصور أن طلحة سيصبح صاحب الأمر[5] ، ولكنها حين علمت بتولية علىّ عادت أدراجها إلى مكة ، حيث موطن الأمويين ، وباقى قريش ، وكثيرون منهم ينقمون على بنى هاشم ، وبدأت حركتها الظاهرة ، لنشر الدعاية ضد علىّ ، بحجة الطلب بدم عثمان ، بل انها اتهمته بقتل عثمان . وكانت تقول :

(١) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٦٨ (البلاذرى . الانساب ج ٥ ص ١٠٣ مع تغيير بسيط فى لفظ النص)
(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٨١
(٣) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٧٦ ، ابن الأثير — الكامل ج ٣ ص ٨٠
(٤) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٧٧
(٥) البلاذرى : الانساب ج ٥ ص ٩١ ، الذهبى ص ٦١

« إن عثمان قتل مظلوماً وأنا أدعوكم إلى الطلب بدمه وإعادة الأمر شورى »[1].

والظاهر أن المدينة كانت تتوقع أن تقوم عائشة بحركة ضد علىّ ، فقد كتب لها الإشتر من المدينة ، وهى بمكة ، قبل أن تظهر فكرة السفر إلى البصرة ، يذكرها بواجبها ، فى أن تقر فى بيتها ، فهو خير لها ، فإن خرجت فقد هددها بقتالها حتى يردها إلى بيتها[2].

ولهذه الخصومة بين على وعائشة أسباب :

كانت عائشة أول زوجة بنى بها الرسول ، بعد وفاة خديجة أم فاطمة ، ولقيت منه دلالا ، وحباً فأثار ذلك فى نفس فاطمة الزهراء زوجة على الألم والامتعاض ، ولا شك أن ذلك انتقل بواسطتها إلى على ، وكانت عائشة نفسها تشعر بهذا التوتر فى العلاقات ، بينها و بين فاطمة ، ثم بالتالى مع على ، ولم يكن الأمر يخلو من دعاة السوء ، الذين ينقلون الكلام من جهة إلى أخرى ، فتزداد العلاقات توتراً ، فتجد فاطمة من زوجها ملجأ تشكو إليه ، وتجد عائشة فى أبيها مرجعاً تتألم لديه .

إلى جانب هذا العامل سبب يماثله ، ذلك أن الرسول كان يحب فاطمة حباً شديداً ، وقد وضعها فى مقام مريم بنت عمران ، فقال فيها : «سيدة نساء العالمين ، و إنها عديلة مريم بنت عمران »[3] وقال فيها أيضاً : « يؤذينى مايؤذيها ، و يغضبنى ما يغضبها ، و إنها بضعة منى يريبنى ما رابها »[4].

ولا شك أن ذلك يثير فى نفس عائشة ألماً ، فقد كانت تود ألا يشاركها فى منزلتها أحد ، وألا يفوقها شخص فى مكانتها ، وقد رأينا فى مظاهر الغيرة عندها أنها كانت تغار من خديجة ، وهى بين الأموات .

وقد كان « لحديث الإفك أبعد » الأثر ، وأعمقه فى نفس عائشة ، فحقدت

(١) الذهبى ص ٦١
(٢) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٨٠
(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٥٧
(٤) نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٥٨

على كل الذين اتهموها ، وكان علىّ منهم حتى إنه أشار على النبى بتطليقها ، قائلا : « والنساء سواها كثير » قبل أن يجرى فى الأمر تحقيق عادل ، فى حين أنه وقف موقفاً يختلف كل الاختلاف عن هذا الموقف يوم اتهمت مارية القبطية بالتهمة التى اتهمت بها عائشة فى « حديث الإفك » فإنه اهتم ببراءتها حتى أثبت ذلك . فكان موقف علىّ سبباً فى أن يثير فى نفس عائشة ألماً وحقداً وكان فى رأيها مجانباً العدل والحق لأنه كال بكيلين مختلفين .

وزاد الأمر تعقداً ما نقل لعائشة عن على وفاطمة ، أيام محنتها بحديث الإفك من أنهما أظهرا شماتة سراً . وقد ردت عليها يوم نزلت براءتها من عند الله ، وهو ما يفعله المتهم ضد الذين اتهموه وآذوه ، إذا ما برأه القضاء العادل .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا شك أن يؤذيها تقريب الرسول لعلىّ يدفعها فى ذلك الحسد والغيرة . وقد كان يسوء علياً وفاطمة ما تلقاه عائشة من حب الرسول وما يلقاه أبوها أيضاً من تفضيل وإكرام .

ولقد لعبت العوامل النفسية دورها العظيم فى هذا الخلاف ، فلم ترزق عائشة أولاداً ، وقد كان الرسول يحب أن يرزق أولاداً . ورزقت فاطمة البنين والبنات ، وكان الرسول يحبهم حباً جماً ، حتى أنه تبناهم ، وكان يسميهم أولاده ، فيثير ذلك فى نفس الزوجة التى لم يرزقها الله بالولد الغيرة الشديدة .

اختار النبى فى مرضه الأخير بيت عائشة ، يمرض فيه ، وكان فى ذلك سبباً نفخر به فى اختيارها ، وتفضيلها ، وكانت بقية الزوجات ترجو أن تنال هذا الشرف ، وكانت فاطمة وعلىّ يرجو أن ينالها فخر إقامة الرسول عندهما ليخدماه . فالفخر الذى نالته عائشة بهذا الاختيار قابله حقد عليها ممن فشل فى تحقيق هذا الذى كان يرجوه .

وقد كانت خلافة أبى بكر سبباً فى إثارة عاملين مختلفين ، عند عائشة من جهة، وعند فاطمة وعلى من جهة أخرى . أما عائشة فقد زهت بما أصابها من خير ، فهى زوجة حبيب الله من ناحية ، وهى ابنة خليفة رسول الله من ناحية أخرى . وبالنسبة

لعليّ وفاطمة كانت مبايعة أبي بكر خيبة أمل وصدمة لهما . ذلك أن علياً كان يظن أنه لن ينازعه أحد فى هذا الأمر ، وقد قال له عمه: «وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أمدد يدك أبايعك ، فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يختلف عليك اثنان . قال : ياعم وهل يطمع فيها طامع غيرى ! »[1] . ولما تم الأمر لأبي بكر تلكأ على فى بيعته ، وكانت فاطمة خلال ذلك تناضل فى سبيل على وتجادل فى خلافة أبي بكر . وكان على وأنصاره يذيعون أن النبي أوصى لعليّ ، فكانت عائشة ترد ، « متى أوصى إليه فقد كنت مسندته إلى صدرى ؟ أو قالت فى حجرى، فدعا بالطست فلقد انخنث فى حجرى وما شعرت أنه مات فتى أوصى إليه »[2] .

لا شك أن أمراً كهذا لا يمكن أن يمر دون أن يزرع فى النفوس — عند الفريقين — جفاء وقد زاد الأمر حدة حين أوصى أبو بكر لعمر ، فكان ذلك عاملا جديداً فى نفس على ، على أبي بكر ، وأثار شماتة فى نفس عائشة ، وجدت لها رد الفعل الكافى فى نفس عليّ .

اتهام على لعائشة فى أنها دبرت أمر إمامة أبي بكر الصلاة فى مرض الرسول « فنسب على عليه السلام لعائشة أنها أمرت بلالا مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس لأن رسول الله كما روى قال ليصل بهم أحدهم ولم يعين ، وكانت صلاة الصبح ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى آخر رمق يتهادى بين على والفضل بن عباس ، حتى قام فى المحراب ، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى ، فجعل يوم صلاته حجة فى صرف الأمر إليه ، وقال أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله فى الصلاة ، ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة لصرفه عنه ، بل لمحافظته على الصلاة ، مهما أمكن فبويع على هذه النكتة التى اتهمها على عليه السلام على أنه

(١) سرح نهج البلاغة حـ ٢ ص ٤٥٩

(٢) ابن حنبل جـ ٦ ص ٣٢ (وفى البخارى حـ ٣ ص ١٩١ مع تغيير فى لفظ النص)

ابتدأت منها ، وكان على عليه السلام يذكر هذا لأصحابه فى خلواته كثيراً ، ويقول : إنه لم يقل صلى الله عليه وسلم إنكن لصويحبات يوسف إلا إنكاراً لهذه الحال ، وغضباً منها ، لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما ، وأنه استدركها بخروجه ، وصرفه عن المحراب »[1] . هذه هى رواية الشيعة وقد مرت بنا الرواية الأخرى ، التى ترويها عائشة ، وكيف أن الرسول أصرّ على أن يؤم أبو بكر الصلاة . وهذا اختلاف جوهرى له أثر فى مجرى الأمور ، حتى تغلبت كما يظهر فى ذلك الوقت رواية عائشة ، فبايع المسلمون أبا بكر لما ثبت عندهم تقديم الرسول له .

وقد ظهرت نقمة عائشة على على ، حينما توفيت فاطمة ، فيروى أن نساء الرسول جميعاً ذهبن يعزين فى وفاة فاطمة إلا عائشة ، فإنها لم تذهب وادعت المرض وأنه نقل عن لسانها لعلى كلام يدل على السرور[2] .

ولا شك فى أن ذلك اتهام أملاه ما بينهما من أسباب الحقد ، ولا نظن أنها كانت تتأخر عن أداء هذا الواجب الضرورى لو لم تكن مريضة حقاً .

هذه هى الأسباب التى ظهرت فى شكل خصومة انتهت بسفك كثير من الدماء فى « موقعة الجمل » ، والتى دعت إلى سوء ظن متقابل بين على وعائشة . ألم يقل على فى كتابه لأهل الكوفة عند مسيره إلى البصرة ، وكأنه يريد أن يجعل عائشة مسئولة عن قتل عثمان ، كما اتهمته هى من قبل ، بأنه تآمر على قتله ، قال: « وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتيح له قوم قتلوه »[3] وكذلك فى هذا القول اتهام لها وتبرئة له ، وذلك فى سبيل الدعاية لنفسه ، وتهيئة الرأى العام ، للأحداث المقبلة ، وكأنما أراد أن يقول لا يحق لمن حرض على القتل أن يطالب بدم القتيل .

(١) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٤٥٩
(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٥٩ — ٤٦٠
(٣) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٩٠

الخصومة فى دورها العملى : « موقعة الجمل » سنة ست وثلاثين للهجرة .

عادت عائشة إلى مكة[1] ، فخطبت الناس تحرضهم على قتلة عثمان ، لأنهم سفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستغلوا الشهر الحرام ، ثم قارنت بينه وبينهم ، فقالت : « والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض »[2] .

ولقد لبى دعوتها الكثيرون ولحق بها طلحة والزبير بعد قتل عثمان بأربعة أشهر . وجمعت فى بيتها طلحة والزبير ويعلى بن أمية[3] ، واقترحت السير إلى علىّ وقتاله فى المدينة ، ولكن تم الاتفاق بعد ذلك على السفر إلى البصرة فنادى المنادى أن عائشة تريد البصرة[4] وأرادت عائشة أن تصحب معها أمهات المؤمنين غاضبات على علىّ فيحرج مركزه ، فوافقتها حفصة ، ثم عدلت حين أمرها أخوها عبد الله أن لا تخرج[5] ، وخالفتها أم سلمة بل نصحتها ألا تفعل ، وقالت لها : إن عماد الدين لا يقام بالنساء[6] ، وذكرتها بحب الرسول لعلى وبلائه فى الإسلام وإخلاصه لنبيه كما ذكرتها بكرهها لعثمان وتحريضها عليه . وكانت أم سلمة ترجو غلبة علىّ . وتمنت لو استطاعت أن تخرج لنصرته ، ولكن أوامر الدين حالت دون ذلك ، فكتبت إلى علىّ « فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة . يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة . . . ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنهم يطلبون بدمه . . . ولولا مانهانا الله عنه من الخروج وأمرنا به من لزوم البيوت لم أدع الخروج إليك والنصرة لك »[7] .

(١) ولعل اختيارها مكة مقراً لبث دعايتها ومركزاً لمهاجمة الأعداء كان مما ساعدها فى كسب الاتباع ، فمكة مدينة الخليفة المقتول ، ومعقل قريش ، ونقطة دفاع عن زوج الرسول ، فلذلك وجدت عائشة فى مكة أرضاً خصبة فكثر أتباعها وأشياعها .

(٢) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٦٨

(٣) كان حليف بنى أمية وعديل لهم وقد أدرك النبي وروى عنه وكان من ولاة عثمان على اليمن

(٤) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٧٢

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٠ ، ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٨١

(٦) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٩ (٧) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٧٨

وكان طلحة والزبير يسيران مع عائشة ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن المصلحة جمعتهم أو أن المصيبة قربتهم ، ومع ذلك فإن الدينورى يروى الأمر بشكل آخر ، يخالف مارأينا ، من أن عائشة بدأت بالتحريض على علىّ ، والمطالبة بدم عثمان ، منذ أن علمت ببيعة على . قال : « قال الزبير وطلحة لعائشة : إن أطعتنا طلبنا بدم عثمان ، قالت : وممن تطلبون دمه ؟ قالا : إنهم قوم معروفون ، وإنهم بطانة على ، ورؤساء أصحابه ، فاخرجي معنا ، حتى نأتى البصرة ، فيمن تبعنا من أهل الحجاز ، وإن أهل البصرة لو قد رأوك لكانوا جميعاً يداً واحدة معك ، فأجابتهم إلى الخروج »[1] . وقال علقمة للاشتر إن « ابن الزبير هو الذى أكره عائشة على الخروج »[2] . كما أن اليعقوبى[3] ردد ذلك فى تاريخه . وهى أقوال لا تتفق مع الواقع ، ولعلها قيلت بعد أن تابت وندمت ، وغفر لها علىّ ، وذلك احتراماً لكونها أم المؤمنين — والمعروف أن عائشة هى التى بدأت بالمطالبة بدم عثمان ، وأظهرت نقمتها على قتلته ، ولم يكن طلحة والزبير قدما مكة بعد ، بل كانا فى المدينة ، حتى مضت أربعة شهور على مقتل عثمان[4] . فالثابت إذن أن عائشة دعت إلى الطلب بدم عثمان ، وساعدها على ذلك طلحة والزبير وعبد الله بن عامر ، عامل عثمان على البصرة ويعلى بن أمية عامل عثمان على اليمن ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وجماعة أخرى من بنى أمية[5] .

وظهرت الخصومة من ناحية عائشة ، بمظهر الرغبة فى الإصلاح ، فقالت لأم سلمة وهى تجادلها أن لا تخرج : « إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله »[6] كما قالت إلى القعقاع فى البصرة عند ما سألها « أى أمه ماشخصك

(١) الأخبار الطوال ص ١٤٥ — ١٤٦

(٢) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٥٢٨

(٣) جـ ٢ ص ٢١٠

(٤) الطبرى . ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٤٧١ ، ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٨١ ويلاحظ أن الطبرى جـ ٣ ص ٥٢٨ نفسه قال إن ابن الزبير أكره عائشة على الخروج ومثل هذا القول لا يتفق مع تأخيره فى المدينة أربعة شهور حتى كانت عائشة ابتدأت بالتحريض على علىّ

(٥) ابن الأثير جـ ٣ ص ٨٠ — ٨١ ، أبو الفدا جـ ١ ص ١٨٢

(٦) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٧٨

وما أقدمك هذه البلدة قالت : « أى بنى الإصلاح بين الناس »[1] وكذلك جوابها إلى أبى الأسود الدؤلى ، وعمران بن حصين ، عند ما أرسلهما عثمان بن حنيف إلى عائشة يستفسران الأمر[2] . وهكذا ابتعدت عائشة عن كل ما يشتم منه غرض شخصى أو حقد ، وظهر معها أنصارها جميعاً ، بهذا المظهر إنما يريدون أن يقتصوا من قتلة الخليفة ، ويريدون أن يقتص على من هؤلاء الذين استباحوا الدم الحرام .

تجهزت عائشة للسفر ومدت بالمال والسلاح منها ، أربعمائة ألف درهم وأربعمائة بعير وأكثر ، من يعلى بن أمية[3] وأعطاها عبد الله بن عامر مالا كثيراً وإبلا ، فخرج معها سبعمائة رجل من أهل مكة ، ولحقها ناس كثير حتى أصبحوا ثلاثة آلاف رجل[4] « وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق — بظاهر مكة — فبكوا على الإسلام فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم ، فكان يسمى يوم النحيب »[5]

بالرغم من أنه كان بين أصحاب عائشة عدد كبير من كبار المسلمين ، إلا أنها كانت هى التى تدير الأمر ، وكانت لها الرياسة الفعلية ، والرأى الغالب ، والنفوذ القوى ، وقد قال أبو بكرة فى ذلك عند ما دخل عليها لنصرتها وهى فى البصرة ، « وإذا هى تأمر وتنهى ، وإذا الأمر أمرها »[6] وعند خروجها إلى البصرة اختلف فيمن يؤم الصلاة حين سأل مروان بن الحكم أيكون ذلك طلحة أم الزبير ، فاختلف ابناهما كل أرادها لأبيه فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له : « أتريد أن تفرق أمرنا ، ليصل ابن أختى »[7] تعنى عبد الله بن الزبير ، وفى رواية أخرى أنهم اتفقوا

(١) ابن الأثير — الكامل جـ ٣ ص ٩١
(٢) الطبرى ، ابن جرير — تاريخ جـ ٣ ص ٤٧٩ ، ابن الأثير جـ ٣ ص ٨٢
(٣) نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧١
(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٠
(٥) نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ٣ ص ٨١
(٦) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٨١
(٧) طبرى ، ابن جرير — تاريخ جـ ٣ ص ٤٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ٣ ص ٨١

على أن يصلى محمد بن طلحة يوماً ، وعبد الله بن الزبير يوماً [1] ، وأرسلت ابن عامر إلى البصرة — وله بها صنائع — ليهيء الرأى العام لمجيئها ومن معها ، « وكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس » وغيرهم [2] ، وكانت تتولى بنفسها محادثة الذين يأتون معسكرهم ، بل كان هؤلاء القادمون يقصدونها ، قبل طلحة والزبير ، لعلمهم أن الأمر بيدها ، وحدث ذلك مع الأحنف [3] ومع القعقاع بن عمرو ، حين أرسله علىّ للبصرة ، لعله يصلح الأمر بين الفريقين المختلفين ، فقابل عائشة أول ما قابل ، وذلك طبيعى فهى زيادة على مكانتها التى تمتعت بها — حبيبة حبيب الله وأم المؤمنين — فقد كان لها من الذكاء المتوقد ، والدهاء ، وحسن التدبير ، ما جعل رياستها للقوم طبيعية ، ولعل من أسباب هذه الرياسة ظن عائشة ومن حولها أن منزلتها — وهى أم المؤمنين — تحول دون مقاتلتها . قالت لأبى الأسود الدؤلى بعد أن نصحها عن هذا الأمر ، الذى جاءت من أجله ، فرفضت « أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى ، قال أما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد» [4] .

كانت الفكرة أولى الأمر أن تخرج عائشة وطلحة والزبير وأتباعهما إلى الشام ، فقيها معاوية يعضده سكان البلاد ، وله من وفرة المال والنفوذ والدهاء ، ثم لقرابته من الخليفة الأموى المقتول ما يساعدهم على تحقيق مأربهم ، يضاف إلى ذلك العامل الشخصى ، وهو عدم اطمئنانه إلى حكم على واحتمال إقصائه له عن ولاية الشام . ولكن ابن عامر صدهم عن ذلك ، وقال : « إن معاوية لا ينقاد إليكم ولا يعطيكم من نفسه الضعة ، لكن هذه البصرة لى بها صنائع وعدد فجهزهم بألف ألف درهم ، ومائة من الإبل ، وغير ذلك فسار القوم نحو البصرة [5] . ولعل رضاء طلحة والزبير

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢١١ — المسعودى ج ٤ ص ٣٠٧
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٨٢
(٣) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٨١
(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٨١
(٥) المسعودى ج ٤ ص ٣٠٥

برأى ابن عامر سببه مالهما من النفوذ فى البصرة والكوفة ، فخشيا لو أنهما ذهبا إلى الشام لغلبهما معاوية على مركزهما وقد قال من فضل البصرة على الشام إن « معاوية بالشام وقد كفانا أمرها »[1] و بقى أن يستولوا على العراق ، ليحيطوا بعلى من الشمال والشرق فيغلبوه على أمره .

سارت عائشة بمن معها من مكة ، تريد البصرة ، وفى الطريق فى مكان يسمى « الحوأب »[2] نبحت كلاب القافلة ، فتطيرت عائشة من ذلك ، وسألت عن المكان ، فقيل لها « الحوأب » لأنها سمعت الرسول يوماً ، بينما كانت نساؤه عنده يقول « أيتكن تنبحها كلاب الحوأب[3] ، فقالت عائشة إنها هى صاحبة ماء الحوأب ، فأرادت الرجوع ، فتأخر القوم عن الرحيل يوماً وليلة ، قال لها عبد الله بن الزبير : إن ذلك الماء لم يكن ماء الحوأب ولم تجيب إليه وأصرت على الرجوع ، فقال لها : « النجا النجا فقد أدرككم على بن أبى طالب ، فارتحلوا نحو البصرة[4] » وأقسم لها الزبير وطلحة أن ليس الماء ماء الحوأب ، وشهد على ما قال خمسون رجلا ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور فى الإسلام[5] .

و يفسر (Muir) [6] حادث الحوأب بالنسبة إلى السيدة عائشة تو بيخ الضمير والعودة إلى الحق .

ولعل الذى حدا بعائشة إلى الإصرار على العودة إلى بيتها فى المدينة إنها رأت ما فى معسكرها من خلافات ، فهذان طلحة والزبير يختلفان على إمامة الصلاة ،

---

(١) أبو الفدا جـ ١ ص ١٨٢

(٢) موضع فى طريق البصرة وهو بئر نبحت كلابه على عائشة أم المؤمنين عند مقبلها إلى البصرة . ويقال أن صاحبة هذا الحادث سلمى بنت مالك الفرازية وكانت سبية فوهبت لعائشة فأعتقتها وقد ارتدت فيمن ارتد وقتلت فى حروب الردة . معجم البلدان لياقوت الحموى .

(٣) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٤٨٦ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ٣ ص ٨٢ أبو الفدا جـ ١ ص ١٨٢

(٤) ابن الأثير ، الكامل جـ ٣ ص ٨٢ ، أبو الفدا جـ ١ ص ١٨٢

(٥) المسعودى جـ ٤ ص ٣٠٦

(٦) Caliphate p. 242

ثم إثارة سعيد بن العاص مشكلة تولية أمر المسلمين بعد الظفر[١] ، وهذا مروان بن الحكم لا تطمئن إلى إخلاصه ، وهذا على قد استنفر معظم الصحابة وفيهم أربعون بدرياً ، فعاودها اليأس مما أرادت القدوم عليه ، فعولت على التخلص من عار الهزيمة قبل أن تقع ، ولكنها غلبت على أمرها هذه المرة . كما أنها — وقد رغبت فى العودة والانصراف عن الخصومة — وجدت ذلك وسيلة لعلها تدفع بها الحجة التى أخذت بها وأثيرت عليها فى كل مكان من أنها خالفت هذه الآية التى يخاطب بها الله تعالى المرأة « وقرن فى بيوتكن » فقد فسر خروجها بأنه خروج على هذا الأمر . ومهما يكن من أمر صحة هذه الحادثة ، فإنها فترة تردد من عائشة ، فيما كانت مقدمة عليه ، وهى أن ما ساورها من الندم على ما حدث من خلاف بين المسلمين قد يؤدى إلى أن يقتتلوا فيما بينهم — كما حدث — فقالت بعد ذلك « والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة »[٢] .

الاستيلاء على البصرة :

اقتربت عائشة ومن معها من البصرة ، فبعثت عمير بن عبد الله التميمى يحمل كتبها لأهل البصرة ، و بقيت هى فى الحفير[٣] ، تنتظر نتيجة رسائلها ، فلما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف ، وكان أمير بيت مال البصرة من قبل على ، عمران ابن حصين ، وأبا الأسود الدؤلى ، وأرسلهما إلى عائشة يستفسران الأمر ، فلما دخلا عليها وسألاها ، قالت : « والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ، ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام ، فسفكوه ،

(١) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٧٢ وابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ٨١

(٢) ابن الأثير — الكامل ج ٣ ص ١٠١

(٣) موضع بين مكة والبصرة . معجم البلدان لياقوت الحموى .

وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وفرقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قوم ، كانوا كارهين لمقامهم ، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين ، لايقدرون على امتناع ، ولا يأمنون ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا . وقرأت لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف، أو إصلاح بين الناس[1] ، وقال طلحة والزبير مثل ما قالت عائشة ، فأخبرا عثمان بالأمر ، فلما وصلت عائشة المربد[2] — بظاهر البصرة — خرج عثمان بن حنيف ومن معه إلى المربد ، فخطب طلحة والزبير فى الناس ثم خطبت عائشة ، وكانت جهورية يعلو صوتها — وقالت بعد الحمد له — « كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على أعماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويردن حسناً من كلامنا فى صلاح بينهم فننظر فى ذلك فنجده براً تقياً وفياً ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة وعذر ، إلا أن مما ينبغى لا ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل »[3] وقرأت (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم سورة آل عمران آية ٢٣ فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين ، فرقة صدقت ما جاءت به عائشة وأخرى كذبته ، وهكذا انقسم أصحاب عثمان بين مؤيد له ومعارض ! تحارب أصحاب عائشة ، وأصحاب عثمان فاقتتلوا ثم اصطلحوا ، وكان ذلك بدار الرزق ، ونادى منادى عائشة بالكف عن القتال ، ثم طلب الصلح بعد أن كثر

---

(١) الطبرى ، ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٤٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل جـ ٣ ص ٨٢

(٢) المربد كل شىء حبست فيه الإبل ومربد البصرة من أشهر محالها وكان يكون سوق الإبل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء وهو الآن بائن عن البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال وكان ما بينهما كله عامر وهو الآن خراب . معجم البلدان لياقوت الحموى .

(٣) الطبرى ، ابن جرير — تاريخ جـ ٣ ص ٤٨١ (ووردت فى ابن الأثير ، الكامل جـ ٣ ص ٨٣ مع تغيير فى لفظ النص)

القتلى والجرحى ، وتواعدوا أن يكتبوا كتاباً بينهم ، على أن يبعثوا إلى المدينة رسولا يسأل أهلها إن كان طلحة والزبير بايعا علياً مكرهين أم طائعين ، فإن أكرها خرج عثمان من البصرة ، وإن لم يكونا كذلك خرج طلحة والزبير[1]، وقد كتب فى وثيقة الصلح « هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصارى ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وطلحة والزبير ، ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما إن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر ، وإن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة ، ولا يضار بعضهم بعضاً ، فى طريق ولا فرضة ولا سوق ولا شرعة ، ولا مرفق ، حتى يقدم أمير المؤمنين على بن أبى طالب فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمة وإن أحبوا لحق كل قوم بهواهم ، وما أحبوا من قتال أو سلم ، أو خروج ، أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذه على نبى من أنبيائه عهد وذمة وختم الكتاب »[2] .

وظاهر أن اسم عائشة اختفى من هذا الكتاب ، مع أنها فى الواقع هى التى أشارت به — كما تقدم — فلم يكن لامرأة أن تستولى هذا العمل ، فتكون مسئولة عنه ، ويستنتج أيضاً منه أن الغلبة كانت لأصحاب عثمان فسياق كتاب الصلح يفيد هذا المعنى بدليل بقاء عثمان على ما كان عليه من إمارة وبدليل ما فيه من إمارة على للمؤمنين، وأن المبايعين له هم الأمة ويبقى إذن الخارجون عليه خارجين على الأمة . وهذا ما يجعلنا نشك فى هذا الكتاب ، إذ كيف يمكن لطلحة والزبير ، ومن معهم أن يقبلوا التسجيل على أنفسهم بالخروج على الأمة . وكيف ترضى أم المؤمنين ذلك على نفسها ؟

(١) الروايات فى أمر مبايعة على متناقضة ، فالاختلاف يقوم حول وقت مبايعته أفى يوم مقتل عثمان بالذات أم بعده بأسبوع فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٣٥ وكما أنه يختلف إذا كان طلحة والزبير بايعاه رأساً أو تلكأ فى ذلك أو إذا بايعاه كرهاً أو طوعاً .

(٢) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ٥٠٠

فالشك فى هذا الكتاب يأتى من ناحيتين ، أولا ما ذكرناه ، وثانياً مما يدل عليه من أن أصحاب عثمان هم الغالبون لأن الصيغة تدل على إملاء من شارف على النصر ، فى حين أن أصحاب عثمان انقسموا عليه من جهته ، فأضعفوا قوته ، وانعزل الأحنف ابن قيس عن الفريقين ، وانعزل معه ستة آلاف[1] ، وكانوا يرون أنهم وقد بايعوا علياً ، واعترفوا بأن طلحة والزبير من حوارى رسول الله ، وأن أم المؤمنين عائشة تسندهما ، لذلك لا يمكنهما تأييد أحد الفريقين على الآخر يضاف إلى ذلك أنه كان مع عائشة جيش كبير ، وأنه تغلب على أنصار عثمان . كما أن رواية الطبرى لصيغة الكتاب تختلف اختلافاً كبيراً عن صيغة شرح نهج البلاغة[2] ، وهى « هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ، ومن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين، أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده ، وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما ، متى يرجع أمين الفريقين ، ورسولهم كعب ابن سور من المدينة ، ولا يضار واحد من الفريقين الآخر فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة ، بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر ، فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما ، وإن شاء عثمان خرج يلحق بطيته ، وإن شاء كل معهما ، وإن رجع بأنهما لم يكرها ، فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة علىّ ، وإن شاء أخرجا حتى يلحقا بطيتهما ، والمؤمنون أعوان الفالج منهما »[3] .

والفرق ، أن صيغة الطبرى تترك لكل من الفريقين السيادة التامة على الجزء الذى استولى عليه ، فى حين شرح نهج البلاغة ، يترك معانى السيادة مركزة بيد عثمان ، وفرق آخر ، أن شرح نهج البلاغة يجعل طلحة والزبير خارجين على أمير المؤمنين علىّ ، وأن

---

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٥١١ ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٩٤

(٢) كتاب شرح نهج البلاغة يمثل آراء الشيعة أما الكتب التاريخية الأخرى منها لم تذكر صيغة الكتاب وإنما أشارت فقط إلى كتاب صلح بين الفريقين (ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٨٤) وأخرى تشير إلى عقد صلح فقط ولا تذكر الكتاب (مسعودى ج ٤ ص ٣٠٦)

(٣) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٨٤ ؛

التعاهد يبدأ بذكر عثمان عامل على، ثم طلحة والزبير، كثائرين فى حين أن الطبرى يذكر اسمى طلحة والزبير قبل اسم عثمان، وأن الفريقين مثلهما كمثل دولتين تختصمان أو قائدين يختلفان.

ومع كل ما يثار من شكوك حول هذه الصيغة فإنها لو صحت لكانت خطة سياسية محكمة يتمتع بموجبها أصحاب عائشة، بحرية التنقل فى البصرة، ليقنعوا الناس بوجهة نظرهم ريثما يأتى على أو رسول عثمان إلى المدينة بالخبر، وليستطيعوا — فى حالة الهدنة هذه — مكاتبة القبائل، ليجمعوا جموعهم، وليخذلوا الناس عن نصرة على، فى وقت يكونون فيه آمنين مطمئنين، لا تشغلهم الحرب عن الدعاية والسياسة. وهو ما فعلوه، فقد كاتبوا القبائل، وبايعتهم بعضها، وهو ما لم يكن الوقت ليتسع له لو شغلوا بالخصومة المسلحة.

وعاد رسول عثمان إلى المدينة يحمل جواب أسامة بن زيد من أن طلحة والزبير بايعا مكرهين، وجاء رسول على يقول: إنهما بايعا غير مكرهين، فعندما قدم الكتاب أرسل طلحة والزبير إلى عثمان أن يخرج عنهم فرفض عثمان فجمع طلحة والزبير الرجال حولهم فى ليلة قاسية باردة مظلمة، وقصدا المسجد عند صلاة العشاء، وخرج الزط والسيابجة[1] بالسلاح، واقتتلوا وأجلوا عثمان، ونتفوا شعر لحيته وأشعار عينيه وحاجبيه ورأسه، وضربوه أربعين سوطاً وأرسلا إلى عائشة يخبرانها بالذى حصل وطلبت منهم أن يخلو سبيل عثمان وليذهب حيث شاء[2]. هكذا استولت عائشة على البصرة، وكانت قد أوصت وهم يقتتلون مع عثمان ألا يقتلوا إلا قتلة عثمان.

(١) لفظة معربة وهى تطلق على قوم من السند، شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١

(٢) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٨٩، المسعودى ج ٤ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٨٤ وتختلف رواية ابن أبى الحديد فى أن النزاع حدث على امامة الصلاة الصبح وأن أصحاب عثمان وأصحاب الزبير حاول كل منهما تقديم صاحبه حتى كادت الشمس أن تطلع فغلب أصحاب الزبير ثم اقتتل الفريقان فقتل كثير من أصحاب عثمان وغلب على أمرهم وتضارب عثمان ومروان بن الحكم بسيفهما ثم خير عثمان فاختار اللحاق بعلى فسمح له. شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١

ولـكن الأمر لم يتم . ذلك أن علياً كان يسير بجيش ضخم ، يريد البصرة ، وطلحة والزبير ، فينتهي ما بهما من خلاف ، إما حرباً أو سلماً . وعائشة خلال هذه المدة ، وقبل أن يقدم على تكاتب الأمصار ، كتبت إلى أهل الكوفة « أما بعد فإنى أذكركم الله عز وجل الإسلام أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه . اتقوا الله واعتصموا بحبله . وكونوا مع كتابه ، فإنا قدمنا البصرة ، فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده فأجابنا الصالحون .. ثم ذكرت كيف أن الضالين ، ومعهم عثمان بن حنيف والأشرار استقبلوهم بالسلاح وقاتلوهم . . . حتى منعنى الله عز وجل بالصالحين فرد كيدهم . . . »[1] وتقول إنهم بقوا ستاً وعشرين ليلة يدعوهم إلى كتاب الله إلى أن غلبوهم على أمرهم .

وكتب طلحة والزبير إلى أهل الشام ، بما صنعوا وبانتصارهم وأنهم بايعهم خيرة أهل البصرة ، وخالفهم الأشرار ، وطلبوا السلاح والمعونة وكتباً كذلك لأهل الكوفة واليمامة والمدينة[2] .

عندما علم على بمسير عائشة ، وصحبها إلى البصرة ، ومبايعة أهل البصرة لهم إلا بنى سعد وكعب بن سور ، وقد كان يعتزم السفر بجيشه إلى الشام لحرب معاوية ، حول وجهته وجيشه تجاه البصرة ، لينتهى أولا من القضاء عليهم ، وقد كان مصيباً فى ذلك فقد قدر أن معاوية قد دانت له الشام وخشى أنه لو ترك عائشة وتوجه لمعاوية ، لاستطاعت بمكانتها وبذكائها من تأليب العراق عليه ، فليدركها هى إذن أولا ، ما دام له فى العراق أنصار قبل أن يفقد هؤلاء الأنصار ، وبعث بكتبه وأنصاره لأهل الكوفة لثقته بهم ، فبعث إليها محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر ، يطلب المعونة منهم وأقام بالربذة ينتظر المدد من المدينة ، وهناك جاءه عثمان بن حنيف ، وشرح له كل شىء ، وكان يقول لمن يسأله أنه يريد الإصلاح إن رضوا فيه . ولما

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٢ ص ٤٨٩ — ٤٩٠

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٨٩

وصل على موقع ذى قار [1] بعث على رسله إلى الكوفة يستنفرون أهلها ، وهم محمد ابن أبى بكر وابن عباس والأشتر ومحمد بن جعفر والحسن بن على وعمارا ، ولما شارف البصرة بعث القعقاع بن عمرو ، لعله يفلح فى التوفيق بين على من جهة ، وعائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى ، فقابل عائشة أولا وسألها عن مجيئها إلى البصرة ، فقالت : الإصلاح بين الناس ثم طلب من عائشة أن تبعث وراء طلحة والزبير ، ففعلت . فسألهما إذا كانا متابعين لأم المؤمنين ، أو مخالفين لها ، فقالا : متابعان . فسألهما عن هذا الإصلاح فقالا قتل قتلة عثمان . و بعد أن تحدثوا سألته عائشة عن رأيه ، فقال : السكينة ، ثم مبايعة على ، فرضوا بذلك ، فعاد القعقاع إلى معسكر على ، فاختلفوا فمنهم من طلب الاشتراك ، ومنهم الاجتناب ومنهم الصلح ، ولما تقابل الفريقان بعث على حكم بن سلامة ، ومالك بن حبيب ، قائلا : « إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا واقرونا نزل وننظر فى هذا الأمر » [2] فخرج إلى على أحنف بن قيس ، و بنو سعد وحالفوا على بن أبى طالب .

وكانت الأمور قد وصلت حداً بين الفريقين لم يعد ينفع فيه حديث أو مفاوضة ، وقد تغلبت الثورة النفسية على التعقل والهدوء ، ولم يكن بد من أن ينتصر أحد الفريقين على الآخر ، وهكذا بدأ القتال ، وتقابلوا فى المعركة ، فتذاكروا فرجع الزبير نادماً من قتله ابن جرموز غدراً ، وندم طلحة أيضاً ، فأراد الرجوع فرماه مروان بن الحكم بسيف فقتله . وتولت عائشة بنفسها قيادة المعركة ، فخرجت على جملها عسكر [3] وقد حصنت هودجها بالأدراع تخطب بالناس ، وتستثير حمية أنصارها ، وتضاعف اندفاعهم .

كان الجمل نقطة الهجوم والدفاع حتى امتلأ جسمه بالنبل ، وأصبح كالقنفذ ،

---

(١) قرية من قرى المدينة . معجم البلدان لياقوت الحموى

(٢) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٥٠٩

(٣) وهو من كرام الإبل كان قد اشتراه لها يعلى بن أمية من اليمن بمائتى دينار وقيل بثمانين دينار ، وقد سميت « موقعة الجمل » لخروج عائشة على جمل .

ولما رأى على حرص أصحاب عائشة ودفاعهم المستميت أشار إلى من ينيخ الجمل فضربه أحدهم على عرقوبه فسقط ، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء المعركة التى قتل فيها خلق كثير قدر بعشرة آلاف من الفريقين [1] . وكانت معركة حاسمة وقد قيل عنها « فما رؤيت وقعة قط قبلها ولا بعدها ولا يسمع بها أكثر يداً مقطوعة أو رجلا مقطوعة منها لا يدرى من صاحبها وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب يومئذ قبل قتله وكان الرجل من هؤلاء وهؤلاء إذا أصيب شىء من أطرافه استقتل إلى أن قتل [2] .

و بعد أن انهزمت عائشة فى موقعة الجمل أمر على أن يحمل هودجها من بين القتلى ، وطلب من أخيها محمداً أن يصحبها و يسألها إذا كانت أصيبت بجراح ، فقيل إنها أصيبت بخدوش بسيطة [3] . وأتاها على فقال لها : « ياحميراء : أرسول الله ﷺ أمرك بهذا ؟ ! ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك ؟ ! والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذا صانوا حلائلهم وأبرزوك » [4]. ثم قال لها : « كيف أنت يا أماه ؟ قالت : بخير. قال : يغفر الله لك . قالت : ولك » [5]. أخذ محمد عائشة وأنزلها فى البصرة دار عبد الله بن خلف الخزاعى ، وكان ممن قتل فى المعركة .

لم يبق لعائشة إذن إلا أن تهادن وتصالح علياً ، بعد أن هزمت جموعه جموعها و بعد أن قتل طلحة والزبير ، ولم يبق إلا أن تعود إلى المدينة كما أراد الخليفة المنتصر وأن تقر فى بيتها . فقد دان العراق والحجاز ومصر لعلى ولم يبق خارجاً عنه إلا الشام بإمرة معاوية ، ولعل الشعور الذى كان يكتنف عائشة من ناحية معاوية هو شعور

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٥٤٣ ، الدينورى ص ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ المسعودى جـ ٤ ص ٣٠٥ ، ٣١٥ ، ٣٦٦ — ابن الأثير — الكامل جـ ٣ ص ٨٢ ، ٩٦ ، ١٠١ — أبو الفدا جـ ١ ص ١٨٢ .

(٢) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٥٢٥ (ووردت فى بن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٩٧ مع تغيير فى لفظ النص)

(٣) الدينورى ص ١٥٣ ، المسعودى جـ ٤ ص ٣٢٧

(٤) المسعودى جـ ٤ ص ٣٢٧

(٥) ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ١٠١

الامتعاض فقد خذلها وكان عليه أن ينصرها لا أن ينتظر النصر ليقتطف الثمر ولذلك وقفت عائشة من خصومته مع على بعد ذلك موقفاً سلبياً .

جهز على عائشة بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك ، و بعث معها كل من نجا من أتباعها إلا من أحب البقاء وأرسل معها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ، ورافقها أخوها محمد إلى بيتها فى المدينة مكرمة معززة فانصرفت عائشة عن السياسة بعد الفشل ، وانصرف على من جهته ، يحاول أن يزيل ما علق بها من الدعايات أثناء زعامتها حركة مقاومته وذلك أن وضع اللوم كله فيما حدث على طلحة والزبير وأعوانهما ، بعد أن اتهمها بالتحريض على قتلى عثمان كماذكرنا . وقد حاول على بذلك أن يسبغ على أم المؤمنين ما يجب لها من الحرمة والترفع فقال : « فخرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تجر الأمة عند شرائها متوجهين بها إلى البصرة فحبسا نساءهما فى بيوتهما وأبرزا حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلها ولغيرهما فى جيش مامنهم رجل إلا وقد أعطانى الطاعة وسمح لى بالبيعة طائعاً غير مكره »[1] . وقال مرة فى كتاب له : « إن طلحة والزبير بايعانى ثم نكثانى بيعتى وألبا على الناس »[2] ولم يذكر عائشة فى هذا الكتاب بسوء لا بل إنه فى مناسبة أخرى بعد هزيمتها ذكر المسلمين أنها زوجة نبيهم فى الدنيا والآخرة لعل الذكرى تنفع المؤمنين ، فتمحو ما كان فى القلوب من لوم وحقد فى محاربتها على . كما أن علياً تمنى الموت على محاربته عائشة[3] وغفرلها إساءتها له[4] .

ولسنا نشك فى أن عائشة ندمت لخروجها على على ، فهى قد خالفت أمر الله تعالى فى خروجها من بيتها فلذلك كانت إذا قرأت « وقرن فى بيوتكن . . . . بكت حتى تبل خمارها »[5] وكانت كلما ذكر يوم « الجمل » تبكى حتى كان يظن من رآها

(١) نهج البلاغة جـ ٢ ص ٤٩٦
(٢) نفس المصدر (ولكن فى الشرح) جـ ٣ ص ٢٩٤
(٣) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٥٤١ — ٥٤٢ ، ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ١٠١
(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٣٩ (٥) الذهبى ص ٦٠

أنها لا تسكت »[1] . ولعلها تذكرت الخليفة عمر وتضييقه على النساء ومراقبته لتصرفاتهن ولشد ما رغبت لو أن نصحها عبد الله بن عمر قبل أن تخرج إلى البصرة إذ رجت ممن حولها أن يريها إياه ، إذا مر ، فلما مر قيل لها فقالت « يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهانى عن مسيرى — قال — رأيت رجلا قد غلب عليك ! — يعنى ابن الزبير »[2] . ونستدل على ندمها الشديد من قولها للقعقاع بن عمرو « والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشر سنين »[3] تعنى يوم الجمل . وليس مجهولا حب عائشة للأولاد ، فهى قد تمنت لو كان لها عشرة أولاد من الرسول كلهم ماتوا ولم يكن يوم الجمل[4] . ومما زاد ندمها حسن معاملة على لها بعد الموقعة ، إذ سئلت بعد رجوعها إلى المدينة عن مسيرها فسجدت ، وقالت : « ما ازددت والله يا ابن أبى طالب إلا كرماً وددت أنى لم أخرج هذا المخرج وإنى أصابنى كيت وكيت من أمور ذكرتها شاقة وإنما قيل لى تخرجين فتصلحين بين الناس فكان ما كان »[5] . ولعل عائشة شعرت أن خروجها على على قد أغضب زوجها وأباها — وكانت تحدث نفسها فى أن تدفن بجوارهما فى بيتها — إذ قالت : « إنى قد أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدفنونى مع أزواج النبى »[6] .

وكان هذا الندم مصحوباً برغبة من الجانبين فى نسيان الماضى وحوادثه المؤلمة والتفاهم . وقد قالت حين خرج الناس لتوديعها من البصرة عائدة إلى المدينة مخاطبة أبناءها ألا يعتب بعضهم على بعض « إنه والله ما كان بينى و بين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها و إنه عندى على معتبتى من الأخيار . وقال

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٥٢٩

(٢) الذهبي ص ٦٠

(٣) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٥٤١ — ٥٤٢

(٤) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٦٠

(٥) المسعودى ج ٤ ص ٣٣٥

(٦) ابن سعد ج ٨ ص ٥١

على : يا أيها الناس صدقت والله وبرّت ما كان بيني وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة »[1].

وهكذا ندما وأرادا أن يتصافيا ، وأن ينسيا تلك الأحداث ، وأن يرجعاها لا إلى أسباب تفرق بينهما إلى الأبد ، وإنما إلى أسباب إن فرقت يوماً فإنها تجمع في يوم آخر .

ولعلنا نتساءل لم لم يكن الظفر حليف عائشة وصحبها ؟ . وهى أم المؤمنين وقد شد أزرها طلحة والزبير ، ومدها بالمال والسلاح يعلى بن أمية وعبدالله بن عامر ، والتف حولها بعض الأمويين ، ونصرها كثير من المسلمين الذين قال فيهم على : « منيت أو بليت بأطوع الناس فى الناس عائشة ، وبأدهى الناس طلحة ، وبأشجع الناس الزبير ، وبأكثر الناس مالا يعلى بن أمية ، وبأجود قريش عبد الله بن عامر »[2] . أليس لنا أن نتساءل بعد ذلك لماذا انهزمت أم المؤمنين وهى بحسب مركزها الدينى والاجتماعى قد تمتعت بتأييد مادى ومعنوى ؟ غير أن فى التاريخ حوادث تبدو خارقة أو محض صدفة . ولو أن الباحث نبصر فى كثير منها لوجد أن لها مسببات ظاهرة أو خفية، مادية أو معنوية ، تؤدى إلى الواقع ونستطيع أن نقول فى هذه الحادثة ، أن تغلب على على عائشة سببه الأساسى زيادة قوته على قوتها ، وكثرة أنصاره بالنسبة لها ، وتوحيد كلمة رجاله ، كما أن النظام الذى أشاعه بين أنصاره كان أكثر إحكاماً من النظام بين فريق عائشة . يضاف إلى ذلك أنه كان لفشلها أسباب أخرى منها أنها لم تؤيد تأييداً فعالا من البيت الأموى ، فلا معاوية أمدها بجنده ، ولا مروان أفادها بمركزه . ثم إنه لم يكن طلحة والزبير على اتفاق ، بل كان بينهما خلاف على أيهما يتقدم الثانى ، وأن تقديم شخص آخر عليهما لتنظيم القيادة لم يكن ممكناً لمركزهما فى الإسلام . ويجب أن نذكر انحراف أخيها محمد عنها ، ونصرته للخليفة على ،

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ جـ ٣ ص ٥٤٧ (ووردت فى ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ١٠٢ مع تغيير فى لفظ النص)
(٢) الأغانى جـ ٢ ص ١٢٥

وما كان لذلك من أثر فى نفوس الكثير من المسلمين . ومما لا يصح إغفاله مركز عائشة الدقيق ، وهى تقود الحركة ، وقد أمرت أن تقر فى بيتها ، وها هى قد خرجت تقود الجموع ضد على ، فأساء ذلك إلى حركة المقاومة والتقليل من أنصارها وقد استغل أنصار على هذه الحجة أحسن استغلال ، ومن أمثلة ذلك ما قاله لها زيد ابن صوحان من وجهاء الكوفة ومتنفذيها ، وقد أرسلت له كتاباً وهى فى البصرة تقول فيه « من عائشة ابنة أبى بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان : أما بعد فإذا أتاك كتابى هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا فإن لم تفعل فخذل الناس عن على — فكتب إليها يقول — أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك و إلا فأنا أول من نابذك . قال زيد بن صوحان رحم الله أم المؤمنين أمرت أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل فتركت ما أمرت به وأمرتنا به وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه »[1] ومثل هذا ما قاله لها جارية ابن قدامة السعدى[2] عندما قدمت البصرة تحرض الناس على على « يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وابحت حرمتك إنه من رأى قتالك يرى قتلك لئن كنت أتيتينا طائعة فارجعى إلى منزلك و إن كنت أتيتينا مكرهة فاستعين بالناس»[3] . ومن ذلك حين دخل عبد الله بن عباس إلى عائشة يبلغها أمر على بالرحيل إلى المدينة ، فلم تضع له شيئاً يجلس عليه فتناول وسادة وقعد عليها فقالت له « يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها ، دخلت إلينا بغير إذننا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا ، فقال لها : لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه

(١) الطبرى ابن جرير — التاريخ ج ٣ ص ٤٩٢ (ووردت فى ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٨٤ مع تغيير فى لفظ النص)

(٢) وهو قد أخذ البيعة لعلى على الناس فى البصرة بعد أن هرب عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة ، المسعودى ج ٤ ص ٣٠٤

(٣) ابن الأثير — الكامل ج ٣ ص ٨٣

وسلم ما دخلنا إلا بإذنك ، وما جلسنا إلا بأمرك »[1] . يضاف إلى ذلك نظرة العرب إلى المرأة ، بقطع النظر عن مركزها فى وجوب ابتعادها عن أمثال هذه الحركات ، حتى أنه روى عن الرسول قوله « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة »[2] .

عائشة فى عهد معاوية :

كان معاوية شديد الطموح ، قوى النفوذ فى الشام ، فتطلع بعد مقتل عثمان إلى أن تبقى الخلافة أموية ، وهو أقوى الشخصيات الأموية . وقد كان على يشعر بخطر معاوية ، ومن أجل ذلك هم بعزله لولا نصح ابن عباس بألا يفعل .

كان طبيعياً إذن أن تتجه عائشة ، وهى تخاصم علياً إلى معاوية ، وله من وفرة المال ، وكثرة الجند المدرب الطائع ما يساعدها فى حركتها ، غير أن بعض أنصارها منهم ابن عامر أشار عليها ألا تفعل ، لأن معاوية لا ينقاد إليهم[3] ، وكان أن خرجت إلى البصرة ، واصطدمت بجموع على ، ثم انهزمت ، فمهد ذلك الطريق لمعاوية ، إذ أن موقعة الجمل أضعفت علياً نسبياً وزادت حركة معاوية قوة ، بصورة غير مباشرة ، فاتخذ حزب معاوية حركة عائشة ضد على وسيلة يروجون بها دعوتهم . من ذلك ماقاله عمرو بن العاص لعائشة « لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل فقالت ولم لا أبالك فقال كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التشنيع على على »[4] .

لا شك أن تقاعس معاوية عن نجدة عائشة عسكرياً فت فى عضدها ولو أنه فعل لتغير وجه التاريخ على الأغلب ، إلا أن وقوف معاوية هذا الموقف قد يعلل باختلاف الأغراض التى يعمل هو وعائشة على تحقيقها ، فلم تكن عائشة لترضى بخلافة أموية ، ولم يكن معاوية ليرضى بخلافة تيمية كما أنه كان يخشى إذا ترك الشام أن يضعف مركزه

(١) المسعودى ج ٤ ٣٣٠
(٢) البخارى ج ٤ ص ٣٧٧ وفى الكامل ابن الأثير ج ٣ ص ٨١ «تدبر» عوضا عن «ولوا»
(٣) المسعودى ج ٤ ص ٣٠٥
(٤) المبرد ص ١٥١

وتتفرق قوته ، ولم يفته كذلك ملاحظة الخطر من ناحية مصر ، وهى تغلى ، ولكنه لم يتأخر عن قطف ثمر الزرع الذى زرعته مقاومة عائشة لخلافة على .

لكل ذلك كان من المعقول أن تخاصم عائشة معاوية ، وأن تثير عليه الرأى العام ، وقد خذلها ، وهى تحارب علياً ، وإن احتج بمقتل عثمان طالباً القصاص من قتلته واتخذ ذلك ذريعة لا ليحقق الحجة التى احتج بها ، وإنما ليتولى الملك ، ثم إنه انفرد بالأمر بعد مقتل على . ولكنه رغم ذلك كله لم تفعل عائشة ، ولعلها كانت تخشى الفشل مرة أخرى ، ولم يكن لديها من يناصرها من الصحابة الذين تثق بهم وتعتمد عليهم ، فطلحة والزبير قتلا ، وأنصار على لا يبيحون لأم المؤمنين أن تخرج عن بيتها ، فلو فعلت لانتقدوها ، ومعاوية استجلب قلوب الكثيرين من كبار المسلمين ، منهم عمرو بن العاص ملوحاً له بولاية مصر — وغيره بمختلف الطرق والوسائل ، وليس لها فى مصر أنصار ، والكوفة علوية ، والبصرة لو أنها بقيت على تأييدها لعائشة لما أغنت عنها من الأمر شيئاً . يضاف إلى ذلك أن المسلمين فى الحجاز كان قد شغلهم الترف وأقعدهم ، فأصبحوا يفضلون الدعة والهدوء على الخصومة . فلم يكن لها إذن سند قوى يعضدها ، لو أرادت أن تقوم بحركة ضد معاوية ، وهى تلك المرأة الفطنة اللبيبة ، التى لا تتهور بعمل ، خاصة بعد أن تلقت درساً قسياً فى حركتها ضد على. ولهذه الأسباب التزمت عائشة جانب الهدوء ، واعتزلت المعترك السياسى ، بعد أن هزمت جموعها فى « موقعة الجمل » وصرفت نشاطها فى المجالين الاجتماعى والدينى ، ولذلك كان موقفها فى النزاع بين على ومعاوية حيادياً فى الظاهر ، وإن كنا نعتقد أنها كانت فى نفسها ترجو غلبة على وانتصاره ، حتى أنها طالما ذكرت فضائله بعد عودتها للمدينة ويقينها أن علياً أحرص على الدين من معاوية ، كما أن ذلك يتيح لها فرصة الثأر من معاوية ،

وليس غريباً أن يكون شعور عائشة وقومها نحو معاوية شعور المستاء ، وقد قتل أخوها محمد — وكان والياً على مصر من قبل على — بيد أنصار معاوية[1] الأمر

(١) اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٢٧

التى لم تنسه فقد ذكرت به معاوية حين قدم الحجاز حاجاً فقالت « أمنت أن أخبأ لك رجلا يقتلك بأخى — قال — صدقت — وفى رواية أخرى قال — ما كنت لتفعلى »[1] . وكان معاوية من جهته يحرص كل الحرص على استرضائها فقد أرسل لها الهدايا والوسائل ، واستشارها فى بعض أمور الدولة ، وعمل بما أشارت به[2] وقد قبل وساطتها وشفاعتها ، من ذلك أنه لما قتل معاوية حجر بن عدى وأصحابه من أشياع على ، كتبت عائشة إلى معاوية ، تسأله الحلم والصفح ، ولكن القتل سبق وصول الكتاب[3] فلما رأته حيث حج ، ودخل إليها قالت : « يامعاوية أقتلت حجراً وأصحابه فأين غرب حلمك عنهم أما أنى سمعت رسول الله يقول يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السموات قال لم يحضرنى رجل رشيد يا أم المؤمنين »[4] .

(١) الذهبى ص ٧٠ — ٧١

(٢) ابن سعد جـ ٨ ص ١١٨ ، ابن حنبل جـ ٦ ص ١٨٣ ، الذهبى ص ٧١

(٣) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٥٢ — ١٥٣

(٤) اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٧٥

الباب الخامس

الفصل الأول

صفات السيدة عائشة :

كانت عائشة كما قلنا ذات شرف ونسب ، بهية الطلعة ، وضاءة الجبين ، زاهية الشباب ، متوقدة الذكاء ، حاضرة الذهن ، عذبة الحديث ، على جانب عظيم من الحكمة والفكاهة .

كانت جميلة ، بيضاء اللون تميل إلى الشقرة [1] ، وكان الرسول ينعتها أحياناً « يا حميراء [2] » كما أن غيره صلى الله عليه وسلم كان يلاحظ ذلك أيضا ، ويروى أن عيينة بن معنى الفزارى دخل على الرسول ، وعائشة عنده ، وكان ذلك قبل أن يضرب عليها الحجاب فقال « من هذه الحميراء يارسول الله قال هذه عائشة بنت أبي بكر ، قال أفلا أنزل لك عن أجمل النساء فقال له لا فلما خرج قالت عائشة من هذا يا رسول الله قال هذا الأحمق المطاع فى قومه » [3] .

وكانت السيدة عائشة نحيلة الجسم ، كما يتضح ذلك من « حديث الإفك » عندما حمل القوم هودجها ، ولم يشعروا بغيابها عنه عند عودة المسلمين من غزوة بنى المصطلق ، ومن سبقها للرسول ، لخفتها .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٠ ، الذهبى ص ١٨

(٢) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٥ والحمراء فى خطاب أهل الحجاز هى البيضاء بشقرة وهذا نادر فيهم — الذهبي ص ٥٠

(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٠ (البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٥٦ — ٦٥٧ ، الذهبي ص ٤٩)

وكانت عائشة أيضاً معتدلة القوام ، أو أقرب إلى الطول ، ونستنتج من «حديث الإفك » أنها لم تكن فى صحة جيدة ، وأنها كثيراً ما كان ينتابها المرض ، كما يتبين ذلك من قولها « كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى فلم يفعل ذلك بى فى شكواى تلك فأنكرت ذلك منه »[1].

والظاهر أن ضعف صحة عائشة أثر على شعرها فتساقط ، وقد قالت عند زواجها بالرسول وقدومها إلى المدينة « فنزلنا فى بنى الحرث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعرى »[2].

ولم يكن الرسول هو وحده المعجب بجمال عائشة ، وإنما أعجب به أهل زمانها وقد رأينا الانطباع الذى تركته فى نفس عيينة الفزارى ، وكان مدح الناس بها يثير الرضا فى نفس الرسول ، فقد تبسم مغتبطاً عندما ذكر أمامه عمر بن الخطاب ما قاله لابنته حفصة « لا يغرنك حب رسول الله لعائشة وحسنها أن تراجعينه بما تراجعه به عائشة فلما ذكر حسنها تبسم رسول الله »[3].

كانت تمتاز عائشة بصفات ورثتها عن أبيها مما جعل الرسول ينعتها بابنة أبى بكر ، لشدة ذكائها ونباهتها وسرعة بديهتها وجرأتها الكبيرة ، وقد كانت جهورية الصوت بحيث تستطيع أن تخطب الجماهير ، كما فعلت فى « موقعة الجمل » .

لم تخرج عائشة عن أنوثة المرأة ، وعن طبيعتها ، بل احتفظت بهما ، وحاولت أن تبرزهما باهتمامها بأمر زينتها ولباسها وطيبها وعطرها ، وكان هذا الاهتمام والولع شديداً ، إذ لم تهمل أمر تطيبها ، وكانت فوق ذلك تطيب الرسول وهى تقول «طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى هاتين لحرمه حين أحرم ولحله قبل أن يطوف »[4].
ولعل مرجع حرصها على زينتها وطيبها ورغبتها فى إرضاء زوجها نزعة الأنوثة فى المرأة

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣٣١ ، الطبرى ابن جرير التاريخ ج ٢ ص ٣٦٦
(٢) الطبرى محب الدين — السمط الثمين ص ٣٢
(٣) ابن سعد ج ٨ ص ١٣٦ ، البخارى ج ٣ ص ١٠٥
(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٩

وحبها التفوق على ضرائرها ، ومنافستهن واستهواء للرسول ، ويتضح ذلك من قول الرسول لها ، حين سال على رأسها الطيب الأصفر « أن لونك ياشقيراء لحسن »[1] .

وطالما وجهت السيدة عائشة النصح للنساء ، للعناية بأنفسهن ، ووجوهن ، ليكن أحسن قبولا ، عند أزواجهن ، فقالت : « يامعشر النساء إيا كن وقشر الوجه فسألتها امرأة عن الخضاب فقالت لا بأس بالخضاب ولكن أكرهه لأن حبيبي صلى الله عليه وسلم يكره ريحه »[2] . ويروى أنه دخلت عليها بكرة بنت عقبة « وهى جالسة فى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت « شجرة طيبة وماء طهور »[3] . وسألتها عن الحفاق فقالت « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى »[4] .

اتصفت عائشة بالذوق الجميل فكانت ترغب بلبس الطريف فلبست الفرو أهداه إليها محمد بن الأشعث[5] ، وأحب الألوان إليها الأحمرين المذهب والمعصفر وكانت تلبس أيضاً درعاً مضرجاً ، أو معصفراً ، أو أحياناً كساء خز ، وكانت تلبس خماراً ، إما أسوداً أو جيشانياً[6] ، وترغب فى أن يكون هذا الخمار كثيفاً ، وذلك وضعاً لأحكام الله موضع التنفيذ ، إذ أن الإسلام أمر نساء النبي بالحجاب ، وأن يضربن بينهن و بين الرجال أستاراً إلا ذى رحم .

ومن مزايا عائشة الاحتشام والوقار ، إذ كانت تتستر كثيراً ، وتفرض ذلك على كل امرأة عند الصلاة ، فتقول : « لابد للمرأة من ثلاثة أثواب تصلى فيهن درع وجلباب وخمار وكانت عائشة تحل أزرارها فتجلب به »[7] . ومن ذلك أنه لما

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٠
(٢) المسند جـ ٦ ص ٢١
(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٨ ، الذهبي ص ٧٣
(٤) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٨ ، نفس المصدر ص ٧٣
(٥) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٩
(٦) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٩ ، البلاذرى . الأنساب جـ ١ ص ٦٦٥
(٧) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٩

دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن وعليها خمار رقيق فشقته عائشة وأبدلته لها بخمار كثيف[1] .

اكتسبت عائشة من الرسول كثيراً من عاداته وأخلاقه ، وحرصت على أن تتبع سننه وتطبق إرادته ، حتى أصبحت تلك المزايا فيها طبيعية ، ومن ثم فقد أصبحت عائشة بعد ذلك من أكبر المراجع والأصول ، لسنة الرسول وأعماله . فمن الطبيعي أن تصبح كذلك وهي التي قد نشأت في هذه التربة الصالحة ، وتهذبت على يدي المعلم الأكبر .

كانت السيدة عائشة تقية ورعة ، تؤدي فروض الدين على وجهها الأكمل ، تصلي ، وتصوم الدهر ، ونقوم بفروض الحج ، والعمرة ، وتحسن إلى الفقراء والمساكين ، ولم يكن صيامها انقطاعاً عن المأكل والمشرب ، وإنما عبادة تسمو بالنفس ، وتتعالى بالروح ، فتترفع عن شهوات الدنيا ، لتشارك الفقراء والمساكين ، ما حرموا من خيرات ، ثم تعطيهم مما أفاء الله عليها ، فقد وزعت مالا كثيراً بعث به إليها ابن الزبير ، ولما دنا موعد الإفطار طلبت من أم ذرة أن تأتيها بأكل ، فتعجبت أم ذرة ، لعدم احتفاظها ببضعة دراهم ، فتشترى بها لحماً للإفطار ، فأجابت عائشة : « لو كنت ذكرتني لفعلت[2] وروى عروة عن كرمها ، وإشفاقها على الفقراء والمساكين ، فقال : « رأيتها تتصدق بسبعين ألفاً ، وإنها لترفع جانب درعها »[3] . وكانت من « أكرم أهل زمانها ولها في السخاء أخبار »[4] . اتصفت عائشة بالدعة والرقة والحدب على الضعفاء والأرقاء ، فكانت لهم خير نصير ، ترأف بهم ، وقد أعتقت مائة رقبة[5] . كما أنها حرصت الحرص كله على تأدية فروض الحج ،

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٩ ، ٥٠
(٢) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٦ ، ابن حجر جـ ٨ ص ١٤١
(٣) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٥
(٤) الذهبي ص ٤ ويذكر في ص ٧١ أنها فرقت منه ألف درهم بعث بها معاوية إليها ولم تحتفظ لنفسها بشيء منها
(٥) البلاذري - الأنساب جـ ١ ص ٦٦٣

وكان الرسول يرغب فى أن تكون كذلك وسألته يوماً عن الجهاد، فقال لها: «جهادكن الحج»[1] وسألته مرة أخرى، هل على النساء من جهاد؟ فقال لها: «نعم عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة»[2] كما أنها طلبت منه يوماً أن تجاهد معه، فقال لها صلى الله عليه وسلم: «لك أحسن الجهاد، وأجمله الحج مبرور، فقالت عائشة فلا أدع الحج أبداً بعد أن سمعت هذا من رسول الله»[3].

وكثيراً ما حجت برفقة الرسول، وفى حجة الوداع ذهبت معه مع سائر نسائه فكن يركبن الهوادج، وكان معهن عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وفى هذه الحجة قال الرسول لنسائه «هذه ثم ظهور الحصر»[4] فلذلك حج جميعهن، بعد وفاة الرسول سوى زينب التى كانت توفيت وسودة التى قالت «قد حججتُ واعتمرت فأنا أقعد فى بيتى كما أمرنى الله»[5].

وبعد وفاة الرسول رغبت عائشة وضرائرها فى أداء فريضة الحج، فمنعهن عمر من ذلك أولا، ولكنهن استأذنه فى آخر حجة حجها، وفى سنة ثلاث وعشرين أذن لهن، وحججن جميعاً، وبعث معهن عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وكان عثمان يسير أمامهن وعبد الرحمن وراءهن، ولم يدعا أحداً يدنو منهن، وكن يحملن على الهوادج المكسوة بالأطلس الأخضر، ولم يأذن لأحد أن يراهن، ونزلن أثناء رحلتهن منزل إحدى النساء — أم عبد بنت خالد بن خليف — فسترت عليهن الشجر وأحضرت لهن اللبن والأكل، وبعد رجوعهن واستلامهن العطاء أعطتها كل منهن خمسين ديناراً[6].

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٠
(٢) المسند جـ ٦ ص ١٦٥
(٣) نفس المصدر جـ ٦ ص ٧٩
(٤) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٠، البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٤٦
(٥) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٠
(٦) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٥١ — ١٥٢

وفى خلافة عثمان استأذنته عائشة للحج فأذن لها ، وذهبت جميع نساء الرسول معاً سوى زينب وسودة ، وكان عبد الرحمن بن عوف برفقتهن ، وكان يجد فى ذلك شرفاً عظيماً ، وأجراً كريماً ، لأن الرسول قال : « الذى يحافظ على أزواجى الصادق البار »[1]

تزهدت عائشة فى أواخر أيامها ، فأهملت الزينة ، وأصبحت تعمل بوصية الرسول القائلة : « إن أردت اللحوق بى فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب وإياك مجالسة الأغنياء ولا تستخلعى ثوباً حتى ترقعينه »[2] .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١٥٢
(٢) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٢ — ٥٣

الفصل الثانى

مرض السيدة عائشة ووفاتها :

مرضت السيدة عائشة مرضها الأخير ، فحزن الناس ، وهرع الكثيرون مستفسرين عن صحتها ، متمنين لها الشفاء ، ولكنها كانت تشعر بدنو الأجل ، وأن حياة الدنيا لا قيمة لها ، وودت لو كانت نسياً منسياً . ونرى عائشة على فراش الموت تناجي ربها تنظر إلى الدنيا فتراها متاعاً حقيراً . وبينما هى كذلك جاء ابن عباس يستأذن عليها ، فدخل ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن ، يطلب منها أن تأذن لابن عباس فرفضت . فألح عبد الله بأنه يود أن يكلمها ويودعها ، فأذنت له ، فدخل معزياً إياها بحب الرسول لها ، وبنزول آية التيمم[1] بسببها ، ثم نزول براءتها من فوق سبع سموات ، تلك الآيات التى أصبحت تتلى فى مساجد الله ، قال كل ذلك لها ، محاولا أن يخفف عنها رهبة الموت فكان جواب عائشة « دعنى منك يابن عباس ، فوالذى نفسى بيده لوددت أن كنت نسياً منسياً »[2] . وبعد خروج ابن عباس دخل عليها ابن الزبير ، فقالت له : « أثنى علىّ عبد الله بن عباس ، ولم أكن أحب أن أسمع أحداً اليوم يثنى على لوددت أنى كنت نسياً منسياً »[3] .

وقالت أيضاً : « ياليتنى لم أخلق ، ياليتنى كنت شجرة أسبح ، وأقضى ما علىّ »[4] .

---

(١) خرجت عائشة مع الرسول فى بعض أسفاره ففقدت عقدها فذهبت تبحث عنه فأرسل الرسول أناسا من أصحابه فى طلبها فأدركتهم الصلاة فى مكان بعيد عن الماء فصلوا بغير وضوء فأنزلت فى المناسبة آية التيمم

(٢) ابن سعد ج ٨ ص ٥٢

(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ٥١

(٤) نفس المصدر ج ٨ ص ٥١

ويروى أنه دخل عليها ابن أبي عتيق ، فقال : « يا أمه كيف تجدينك جعلت فداك قالت هو والله الموت ، قال فلا إذاً ، فقالت لا تدع هذا على حال تعنى المزاح »[1].

نرى من هذا أن عائشة كانت شاعرة برهبة الموت وجلاله فثناء ابن عباس وعزاؤه ومزاح ابن أبي عتيق لم يخرجاها عما كانت تفكر فيه ولم ينسياها أن الدنيا حياة الغرور وأمرت أن تدفن مع أزواج النبي ، وألا يتبعوا سريرها بنار ولا يجعلوا تحتها قطيفة حمراء .

توفيت عائشة ، ولها من العمر ستة وستون عاماً ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين[2] ، ودفنت فى البقيع ليلا ، كما أمرت ، وصلى عليها أبو هريرة ونزل معها فى قبرها خمسة ، عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر ، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر .

كانت وفاتها ليلا فحمل معها جريد فى الخرق مغموس فى الزيت وقد أشعلت فيه النار ، ودفنت ليلتها ، وكانت أنوار المشاعل متلألئة ، حتى كاد يخيل إلى البعض بأنه عيد[3] .

حزن الناس على عائشة كثيراً وكان البعض كمسروق يود إقامة المناحة على أم المؤمنين، ولكنه أمر ألا يفعل ذلك « فاجتمع الناس وحضروا فلم تر ليلة أكثر ناساً منها نزل أهل العوالى فدفنت فى البقيع »[4] .

وهكذا طويت آخر صفحة من تلك الحياة الزاخرة المليئة بالحوادث ، والتى اختلف الناس فى أمرها أشد اختلاف ، ولكنهم جميعاً أمضهم الحزن عليها فى موتها ، ولا غرو فقد كانت أم المؤمنين جميعاً أن اختلفت و إياهم فلتتفق على خير مما اختلفت عليه .

رضى الله تعالى عنها

---

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٣ ، البلاذرى — الأنساب جـ ١ ص ٦٦٦

(٢) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٤ ، اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٨٣ ، ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٤ ، ابن حجر جـ ٨ ص ١٤١ . وقيل أنها توفيت سنة سبع وخمسين ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٥٠٤ ، ابن حجر جـ ٨ ص ١٤١

(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ٥٣ ، البلاذرى . الانساب جـ ١ ص ٦٦٦

(٤) نفس المصدر جـ ٨ ص ٥٣

الخـــاتمة

كان من نتائج انتشار الإسلام أن علت مكانة المرأة ، وتحسن مركزها فتمتعت بحقوق كثيرة ، ومزايا متعددة ، جعلتها كائناً محترماً مرموق المكانة ، تحسدها عليه زميلتها الجاهليه ومعاصرتها غير المسلمة .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا اتخذنا السيدة عائشة مثلا رائعاً لكمال هـذا التطور فى حياة المرأة فقد امتزجت بالحياة العامة بعد وفاة الرسول أشد امتزاج ، وأثرت فيها أعظم التأثير . لم تقف نشاطها على المجال الاجتماعى والدينى فحسب وإنما تعدتهما إلى السياسة والخصومة فأصابها نجاح وفشل تركا لها ذكراً خالداً فى التاريخ الإسلامى عامة وتطور المرأة خاصة .

وإذا كانت قد اندفعت كثيراً فى مجالى الحياة بحيث انفردت تقريبا فى ذلك بين بنات جنسها فلأنها أرادت أن تستعمل كل ما منحت من حقوق ، وأن تنهض بكل ما اعتقدته واجباً عليها .

ولعل لعائشة من نشأتها وتربيتها والبيئة التى نشأت أو عاشت فيها ما يبرر لها هذا الاندفاع فهى بنت أحب خلق الله إلى رسول الله ، الذى احتل المكانة العليا فى الجاهلية والإسلام ، بما جمع من فضائل الصفات ، وهى أحب زوجة إلى رسول الله لجمالها ، وصغر سنها ، وشدة ذكائها ، وهى من أجل كل ذلك محسودة أشد الحسد ، وخاصة من ضرائرها ، ثم هى بعد ذلك نقطة حساسة يتخذها المنافقون وسيلة للنيل من زوجها كما أشاعوا عليها « حديث الإفك » ظلماً وبهتاناً ، فزادها ذلك مكانة ، إذ برأها الله بكتابه الكريم فتاهت على غيرها بهذا كله ، ومن ثم نزعت نفسها إلى السيطرة على ضرائرها ، إذا لم يكن فى استطاعتها التخلص منهن مما سبب لها ذلك

بعض المتاعب فلقيت كيداً وخصومة ، ظاهرة أحياناً ، ومستترة أحياناً ، أخرى من بعضهن .

ونظراً لطبيعتها الحية النشطة ، وللرغبات التي ملأت نفسها ، ولآرائها الخاصة في الخلافة ، تلك الآراء التي استوحت بعضها من كبار الصحابة — وبعضهم أقاربها — فقد زجت بنفسها في شئون الخلافة في أواخر أيام عثمان ، وأوائل عهد على مما ترتب عن ذلك حادثة من أهم الحوادث في التاريخ الإسلامى ، تلك هى «موقعة الجمل» التي اشترك فيها أئمة الصحابة ، وكبار المسلمين ، فاختلفت الآراء وتفرقت في أمر من اشترك في الموقعة جميعاً ، وذلك طبيعى ، فقد حوت فوق التقدير السياسى ، ونصرة الحزبية عنصراً دينياً له أهميته ، فأى من الفريقين أخطأ فحل عليه الإثم، وأيهما أصاب فحاول سواء نجح أو فشل — أن يظهر حكم الدين . وبديهى أن تتجه شيعة على وحزبه وأنصاره إلى وضع اللوم على عائشة وأصحابها ، وأن يحملوهم وزر ماسفك من دم المسلمين وأن يتجه أصحاب عائشة اتجاها مناقضاً ، فيثيروا المسلمين على على ويتهموه بخذل عثمان وأنه قبل بيعة الثائرين وأكره المسلمين على بيعته . ثم يأتى الذين لم يندمجوا في هذا الفريق ، أو ذاك ، فيفصلوا في الأمر ، ويحيطه بعضهم بجو من الفلسفة والتخرج ، فمن مبرىء للفريقين، إلى متهم لهما ، إلى من يقول بخطأ أحدهما دون أن يعين هذا الفريق.

ولئن اختلفت الفرق الإسلامية في نظرها إلى المشتركين في « موقعة الجمل » إلا أن علياً نفسه برأ عائشة من وزر ذلك الحدث الذى أثر في نفسها ، فجعلها تنسحب من الحياة السياسية الصاخبة ، وانصرفت إلى الزهد والقناعة لا تعرض لغير النصح الأخلاقى أو التشريع الدينى ، فقواعد الفقه ورواية الحديث ، وأصول الدين يعود الفضل في كثير من نواحيه إلى رواية عائشة .

والذى لا مراء فيه أن السيدة عائشة احتلت أعظم مكانة في التاريخ ، تتحدث عنها الأجيال بعد الأجيال ، وهى من قوة شخصيتها ونفوذها مصدر دائمى لكثير من الناس يستوحون منها معانى الاعتداد بالنفس والإقدام الحازم ،

رحم الله السيدة عائشة أم المؤمنين ، ورضى عنها .

المراجع العربية

الأبشيهى (٨٥٠ هـ) . شهاب الدين احمد

١) المستطرف فى كل فن مستظرف جزءان (القاهرة سنة ١٢٧٢ هـ)

ابن الأثير (٦٣٠ هـ — ١٢٣٨ م) : على بن احمد أبو الحسن

٢) الكامل فى التاريخ ١٢ جزءاً (بولاق سنة ١٢٧٤ هـ)

٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ١٥ جزءاً (القاهرة سنة ١٢٨٦ م)

الأزرقى (٢٢٣ هـ): محمد بن عبد الله أبو الوليد

٤) أخبار مكة (ليبزك سنة ١٨٥٨ م)

الأصفهانى (٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) : على بن الحسين أبو الفرج

٥) الأغانى ٢١ جزءاً (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ)

الألوسى (١٣٤٢ هـ) : محمود شكرى

٦) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م)

الأفغانى (حى) : سعيد

٧) الإسلام والمرأة (دمشق سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م)

أمين (حى) : احمد

٨) فجر الإسلام ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م)

البلاذرى (٢٧٩ هـ) : احمد بن يحيى

٩) أنساب الأشراف الجزء الأول (مخطوطة فى دار الكتب المصرية رقم ٤٨٥٦ تاريخ)

١٠) والجزء الخامس (القدس سنة ١٩٣٦ م)

١١) فتوح البلدان (ليدن سنة ١٨٦٦ م)

البخارى (٢٥٦ هـ) : محمد أبو عبد الله

١٢) الجامع الصحيح ٤ أجزاء (ليدن سنة ١٨٦٢)

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) : عبد الرحمن أبو الفرج

١٣) كتاب الأذكياء (القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ)

ابن حجر (٨٥٢ هـ) : شهاب الدين بن على

١٤) الإجابة فى تمييز الصحابة ٨ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ)

ابن أبى الحديد (٦٥٥) : عبد الحميد بن هبة الله

١٥) شرح نهج البلاغة ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ)

حسن ابراهيم (حى) : حسن
١٦) تاريخ الإسلام السياسى جزءان (القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م)
ابن حنبل (٢٤١ هـ) أحمد بن محمد أبو عبد الله
١٧) المسند ٦ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٣ هـ)
الخضرى (١٩٢٧ م) : محمد
١٨) تاريخ الأمم الإسلامية ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ)
الدينورى (٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ)أحمد بن داود أبو حنيفة
١٩) الأخبار الطوال (القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ)
الذهبي (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ — ١٣٤٨ م) شمس الدين محمد بن احمد
٢٠) سير النبلاء
نشر سعيد الأفغانى الجزء الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنها
(دمشق سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م)
الزركشى (٧٩٤ هـ) : بدر الدين
٢١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة
نشره سعيد الأفغانى (دمشق سنة ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩ م)
زيدان (١٩١٤) : جرجى
٢٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٩١٣ م)
ابن سعد (٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م) : محمد بن سعد كاتب الواقدى
٢٣) الطبقات الكبير ٨ أجزاء (ليدن سنة ١٣٢٥ هـ)
السهيلى (٥٨١ هـ) : عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد
٢٤) الروض الأنف جزءان (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م)
السيوطى (٩١١ هـ — ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبى بكر
٢٥) الجامع الصغير فى مدينة البشير النذير جزءان (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ)
الطبرى (٦٩٤ هـ) أحمد ، محب الدين أبو العباس
٢٦) السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين (حلب سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م)
الطبرى(٣١٠ هـ) محمد بن جرير أبو جعفر
٢٧) تاريخ الأمم والملوك ٨ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٩ م)
٢٨) جامع البيان فى تفسير القرآن ٣٠ جزءاً (القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ)
ابن عبد البر (٤٦٣هـ) : أبو عمر جمال الدين
٢٩) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جزءان (حيدر أباد سنة ١٣١٨ هـ)
ابن عبد ربه (٣٢٨هـ) : أحمد أبو عمر
٣٠) العقد الفريد ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م)
ابن عساكر (٥٧١ هـ — ١١٧٥ م) على بن أبى محمد أبو القاسم
٣١) التاريخ الكبير ٥ أجزاء (دمشق سنة ١٣٣٢ هـ)
عفيفى (+ قريباً) : عبد الله

٣٢) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها جزءان (القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م)
العينى (٨٥٥ هـ): بدر الدين أبو محمد
٣٣) عمدة القارىء فى شرح صحيح البخارى ١١ جزءاً (الأستانة سنة ١٣٠٨ هـ)
أبو الفــدا (٧٣٢ هـ) : اسماعيل بن على بن محمود
٣٤) المختصر فى أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ)
القــالى (٣٥٦) : اسماعيل أبو على
٣٥) الأمالى جزءان (القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م)
ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) : عبد الله بن مسلم أبو محمد
٣٦) عيون الأخبار ٤ أجزاء (سنة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م)
ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) : شمس الدين أبو عبد الله
٣٧) أخبار النساء (القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ)
ابن الكلبي (٢٠٤ هـ) هشام أبو منذر
٣٨) الأصنام (القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ)
ابن ماجه (٢٧٣ هـ) : محمد بن يزيد أبو عبد الله
٣٩) سنن ابن ماجه (دهلى سنة ١٩٠٥ م) المبرد (٢٨٥ هـ) : محمد أبو العباس
٤٠) الكامل جزءان (ليبرك ١٨٧٤)
مسلم (٢٦١) : بن الحجاج أبو الحسين
٤١) الجامع الصحيح ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
المسعودى (٣٤٦ هـ) على بن الحسين أبو الحسن
٤٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٩ أجزاء (١٨٧٧ م)
الميدانى (٢١٨ هـ) : أحمد بن محمد أبو الفضل
٤٣) مجمع الأمثال جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ)
ابن هشام (٢١٨ هـ) عبد الملك أبو محمد
٤٤) السيرة النبوية ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م)
ولـكنج « ا »
نقـله عن الألمـانية بندلى صليبا الجوزى
٤٥) الأمومة عند العرب (قازان سنة ١٩٠٢ م)
ياقوت (٦٢٦ هـ) ابو عبد الله شهاب الدين
٤٦) معجم البلدان ٦ أجزاء (مصر سنة ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٦)
اليعقوبى (٢٨٠ هـ) : أحمـد بن أبى يعقوب بن واضح
٤٧) تاريخ اليعقوبى جزءان (ليدن سنة ١٨٨٣ م)

المراجع الأجنبية

(٤٨) Abbot, Nabia

Aishah, the Beloved of Mohammed

(Chicago, 1942).

(٤٩) Ali, Muhammad

Muhammad the Prophet

(Lahore, 1933).

(٥٠) Grimme, Hubert

Mohammed Das Leben

2 vols, (Munster, 1895).

(٥١) Hitti, Philip

History of the Arabs

(London, 1943).

(٥٢) Huart, Tome

Histoires des Arabes

(Paris, 1912).

(٥٣) Lammens, Henri

L'Arabie Occidentale avant l'Hégire

(Beyrouth, 1928).

(٥٤) Le Berceau de L'Islam

(Romae, 1914).

(٥٥) Fatima et les Filles de Mahomet

(Romae, 1912).

(٥٦) La Mecque à la Veille de l'Hégire

(Beyrouth, 1924).

(٥٧) Le "Triumvirat," Aboû Bakr, Omar et Aboû Obaide

(Beyrouth, 1910).

(٥٨) Lane-Poole, Stanely

Studies in a Mosque

(London, 1893).

(٥٩) Margoliouth, Daird Samuel
Mohammed and the Rise of Islam
(London, 1923).

(٦٠) Muir, William
The Life of Mohammad
(Edinburgh, 1912).

(٦١) The Life of Mahomet and the History of Islam
4 vols, (London, 1858).

(٦٢) The Caliphate
(Edinburgh, 1924).

(٦٣) Micholson, Reynold
A Literary History of the Arabs
(London, 1923).

(٦٤) O Leary de Lacy
Arabia Before Muhammad
(London, 1927).

(٦٥) Scholl Jules-Charles
L'Islam et son Fondateur
(Neuchatel, 1874).

(٦٦) Sprenger A.
Das Leben Und Die Lehre Des Mohammad
3 vols, (Berlin, 1869).

(٦٧) Stobart, J. W. H.
Islam and Its Founder
(London, 1876).

(٦٨) The Encyclopaedia of Islam, English Edition.

فهرست الأعلام

(ب)

(ف)

فهرست الأماكن

فهرست الأمم والقبائل والبطون

فهرست الأديان والمذاهب والفرق

فهرست الحروب والغزوات والوقائع والأيام

فهرست المواضيع

الباب الأول

الحياة العربية قبل الإسلام و بعده

صفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الباب الثانى

الباب الثالث

السيدة عائشة بعد زواجها من الرسول

الفصل الأول

صفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الباب الرابع

أثر السيدة عائشة فى المجتمع الإسلامى

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الباب الخامس

الفصل الأول

الفصل الثانى

الأغلاط المطبعية وصوابها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥	١	حصر	حضر
٢٣	١ هامش	Arabie	L'Arabie
٢٨	١ هامش	وانطرتا	واقلرتا
٢٩	١٣	وآخريات	وأخريات
٣٢	٨	الصباء	الصمة
٣٣	٥	اليل	اليه
٣٣	١٤	سائدين	سأندين
٣٥	٢٠	Annianus	Ammianus
٤٤	١٣	المناءة	المناء
٥٠	٥	الحقيق	العقيق
٥٩	٢ هامش	بالجحون	بالحجون
٦٠	١٢	سوءتها	سؤتها
٧٦	٣	فبكيت	فبكت
٧٩	١٩	يدعى	يدعو
٨٠	٤	يقسوا	يقسو
٨٠	١٤	برعاتها	براعتها
٩٠	٢ هامش	الصهيلى	السهيلى
٩١	١	كل	لكل
٩٥	١٩	بريرة	بريرة
٩٦	١١	براءت	برّأت
٩٧	٣ هامش	Ayesha	Aishah
١٠٨	٢	تاصبنى	تاصينى
١١٢	١ هامش	لزواج	بالزواج
١١٢	١ هامش	الخص	الخصى
١١٢	١ هامش	صيرين	سيرين
١١٤	١٢	ضرأراها	ضرائرها
١١٩	١ هامش	تأمرت	تآمرت
١٢١	١٥	انقض	انقضى
١٢٦	٦	يتعلمها	يتحملها
١٥٩	١ هامش	ولعلى	واملى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦٤	١	الأعمشى	الأعمش
١٦٥	٣٨	الإشير	الاشتر
١٦٦	١٩	يرجو	يرجوان
١٧٢	١٣	أولى	فى أول
١٧٣	١٠	تجيب	تجب
١٧٣	٢ هامش	كلابة	كلابه
١٧٦	١ هامش	م	ام
١٨٢	٨	قتلى	قتـل
١٨٦	٣	ولو	ولوا
١٩١	١٨	فتجلب	فتجلبب

كتب اللجنة

أصدرت اللجنة حديثاً الكتب الآتية، وتطلب جميعها من مكتبة عيسى البابى الحلبي بسيدنا الحسين بالقاهرة :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	محتويات الكتاب
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	مشكلات أدبية واجتماعية ، يتساءل الانسان عنها ، ويجد فى الكتاب الجواب السديد . ص ٢٧٢ ، ٢٥٠ مليما
٢	أثر الشرق فى الغرب	الدكتور فؤاد حسانين على المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول	وصف حضارة الشرق فى مختلف النواحى ، وكيف أفادت الغرب . ص ١٢٨ ، ١٥٠ مليما
٣	قصة الكهرباء واللاسلكى	الأستاذ محمد عاطف البرقوقى — المفتش العام للعلوم بوزارة المعارف	قصص علمائها ، تطور مخترعاتها ، مواصلاتها السلكية واللاسلكية ، الرادار فى الحرب والسلم . ص ٢٥٦ ، ٢٥٠ مليما
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	الأستاذ محمد عطية الابراشى — المراقب العام المساعد للتعليم الحر بوزارة المعارف	المشكلات الاجتماعية : لا سيما الفقر ، والجهل ، والمرض ، وعلاج هذه المشكلات . ص ١٦٦ ، ٢٠٠ مليم
٥	الحبشة	الأستاذ حسن محمد جوهر — مراقب منطقة قنا التعليمية	تاريخ الحبشة ، جغرافيتها ، أديانها ، لغة سكانها المرأة الحبشية ص ١٦٠ ، ٢٠٠ مليم
٦	الغزل عند العرب	الأستاذ حسان أبو رحاب مدير ادارة التحريرات العربية بوزارة المعارف	معنى الغزل، نشأته ، دواعيه، شغف العرب به ، أثره ، تطوره فى جميع العصور لا سيما فى العصر الحديث . ص ٢٩٨ ، ٢٥٠ مليما